يناير ٢٠١٤ / العدد ٩

النور

للدراسات الحضارية والفكرية

المقاصد في رسائل النور

- أساسيات منهج الفكر المقاصدي عند النورسي
- المقاصد القرآنية في فكر النورسي
- مقاصد القرآن من خلال رسائل النور
- الإيجابية والحاجة المستمرّة إليها في حياة المسلمين

al-Nur

Academic Studies on Thought and Civilization

An Academic Biannual Journal (January-July)
Published by the Istanbul Foundation for Science and Culture
Year 5, Number 9 (January 2014)
ISSN 1309 4424 (En-Nur)

Annual Subscriptions (2 issues)

Turkey:	TL 20
Individuals outside Turkey:	US$ 15
Institutions outside Turkey:	US$ 30

Addresses for Subscriptions and all Communications

Istanbul Ilim ve Kultur Vakfi,
Kalendarhane Mahallesi, Delikanli Sk. No: 6
Vefa 34134 Fatih, ISTANBUL – TURKEY
Tel : +90 212 527 81 81 (pbx)
Fax: +90 212 527 80 80
info@nurmajalla.com

Abdulkerim Baybara: kerimbaybara@gmail.com
Sozler Publications,
30 Gafar al-Sadiq Street, al-Hayy al-Sabi',
Nasr City, Cairo, Egypt.
Tel. / Fax: +20 2 22 602 938

www.nurmajalla.com

للدراسات الحضارية والفكرية

تصدر عن مؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم

THE ISTANBUL FOUNDATION FOR SCIENCE AND CULTURE

صاحب الامتياز والمدير المسؤول: كنعان دميرطاش kenan@nurmajalla.com

رئيس التحرير: أ.د. عمار جيدل editor@nurmajalla.com

المشرف العام: إحسان قاسم الصالحي ihsankasim@gmail.com

هيئة التحرير

أ.د. ثروت أرماغان؛ أ.د. محمد خليل جيجَك؛

د. سعاد الناصر؛ د. محمد جنيد شِمشَك

اللجنة الاستشارية

أ.د. حسن الأمراني؛ أ.د. سليمان عشراتي؛ أ.د. عبد العزيز برغوث؛ أ.د. عبد العزيز خطيب؛ أ.د. عبد الكريم عكيوي؛ أ.د. عبد المجيد النجار؛ أ.د. عماد الدين خليل؛ أ.د. محسن عبد الحميد؛ أ. د. محمد عبد النبي؛ د. بوكاري كيندو؛ د. سمير بو دينار؛ د. محمد كنان ميغا.

الإخراج الفني

سعيد طاقطاق، حسن الحفيظي

رقم الإيداع الدولي

ISSN: 1309 – 4424 (En-Nur)

الطباعة

يناير ٢٠١٤

İmak Ofset Basım Yayın Ticaret ve Sanayi Ltd. Şti.
Atatürk Caddesi Göl Sok. No: 1. Yenibosna/Bahçelievler–İstanbul
Tel: +90 (212) 656 49 97

المركز الرئيسي

Kalendarhane Mahallesi, Delikanli Sk. No: 6
Vefa 34134 Fatih, ISTANBUL – TURKEY
Tel: +90 212 527 81 81 (pbx)
Fax: +90 212 527 80 80
info@nurmajalla.com
www.nurmajalla.com
www.iikv.org

بسم الله الرحمن الرحيم

النور للدراسات الحضارية والفكرية

١– التعريف بالمجلة:

مجلة علمية أكاديمية محكّمة نصف سنوية (يناير– يوليو)، تصدر عن مؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم.

تُعَد مجلة ''النور للدراسات'' مجلة الباحث والمفكر المجدد فضلا عن من يتمرّس بالبحث من شباب هذه الأمة، وهي منبر علمي أكاديمي مفتوح أمام كلّ المفكرين والباحثين الجادين.

تعمل المجلة على توجيه النظر إلى الجمع بين أصالة الأمة ممثلة في أستاذها الأول ''مصادر الإسلام'' (القرآن الكريم والسنّة المطهّرة) وثقافة العصر فيما لا تتعارض وحقيقة ثقافة الأمة وأصالتها، كما تعمل على الإفادة منها في التأسيس لبعث معرفي وحضاري، إنساني البعد إسلامي الروح، يسعى إلى فحص المتداول في الدرس الاجتماعي والإنساني بقصد تمحيصه والتأسيس للبديل المنبثق عن التصور التوحيدي للعالم والحياة والإنسان، وتَعَهُّد هذا الكسب (العلم المنجز) بالمراجعة والاستدراك المستمر، وتدريب المثقف الرسالي على التوقّف المنهجي والمعرفي عند ''الكونية'' التي يراد من خلالها تمرير مشاريع التحكّم في المعرفة ومن ثمَّ الهيمنة على مؤسسات صناعة الوعي في برامجها ومناهجها، والحيلولة الموضوعية دون ضياع سائر موارد القرار في مختلف مجالات الحياة.

٢– تتناول المجلة وفق الخط العام المشار إليه أعلاه:

قضايا المنهجية الإسلامية الجامعة بين مخاطبة العقل والقلب في ذات لحظة التذكير، حتى يغدو الفصل بينهما في عداد المحال المنهجي والمعرفي على السواء.

قضايا المعرفة من حيث خلفيتها النظرية، ومصادرها ونظمها وفلسفتها وإنتاجها.

العودة بالأمة إلى أستاذها الأول (القرآن الكريم)، مبعث نهضتها، ومؤسس فعاليتها في شعاب الحياة المعرفية.

الحث على البحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية في إطار النظرة الإسلامية وفي كنف تكاملها مع سائر علوم الشريعة، بقصد بعث الفعالية الحضارية المنشودة.

دراسة وفحص ثم تمحيص مناهج التعامل مع الخبرة المعرفية الإسلامية (التراث) والإنسانية في مختلف مجالات التدين (العقيدة، والشريعة، والأخلاق) بالإسلام.

الإفادة من مشاريع النهضة والإصلاح في العالم الإسلامي، ولاسيما مشروع بديع الزمان النورسي المبيّن في رسائله الموسومة بـ ''رسائل النور''، سعيا منا إلى الاستفادة من هذه التجربة وغيرها من خبرتنا في مجال النهضة والتغيير، بغرض المساهمة في فهم الحاضر والتخطيط الجيّد للمستقبل.

ما تنشره المجلة يعبّر عن رأي صاحبه، وليس رأي المجلة ضرورة.

المحتويات

- كلمة العدد التاسع ..... أ.د. عمار جيدل ٣

الدراسات والبحوث

- العقل المؤيد بالإيمان عند الإمام النورسي
أو اتصال الآيات والقيم ..... د. إدريس مقبول ٧
- الإيجابية والحاجة المستمرّة إليها في حياة المسلمين ..... أ.د. عمار جيدل ٢١
- مسألة الشر والسيئات وعلاقتها بالعدالة الإلهية في الخلق
من خلال رسائل النور ..... طالب الدكتوراه: بن شيه عبد الله ٤٧
- الثنائي البلبل والوردة تعبيرا عن الحب القائم بين الخالق
والمخلوقات في كتابات النورسي ..... أ.د. جورج غريغوري ٦١
- النورسي والتصوف أو من توحيد الولي، إلى توحيد الصفي ..... د. جعفر السُلَمي ٧١
- بديع الزمان النورسي من برزخ التصوف إلى معراج القرآن ..... أ.د. فريد الأنصاري ٨٣
- الرؤية الكونية للأخلاق عند النورسي وأثرها في بناء الإنسان ..... د. محمد الصمدي ١٠٥

ملف العدد : المقاصد في رسائل النور

- أساسيات منهج الفكر المقاصدي عند النورسي ..... ذ. عبد العزيز البطيوي ١٢٣
- المقاصد القرآنية في فكر النورسي ..... ذ. عبد السلام الأحمر ١٤٧
- مقاصد القرآن من خلال رسائل النور ..... علي قاطي ئوز ١٥٩

الحوار والإصدارات والمؤتمرات

- حوار مع أ.د. ثروت أرمغان ١٦٧
- الإصدارات: قراءة في كتاب: اللؤلؤ والمرجان من حكم بديع الزمان
سعيد النورسي (من الكلمات). ١٧٧
- المؤتمرات والحلقات الدراسية:
١- المؤتمر العالمي العاشر بإسطنبول ١٨٠
٢- ندوة حول الأستاذ النورسي في مدينة أربيل ١٨٨
٣- المؤتمرات المستقبلية لموسم ٢٠١٤ ..... ١٩١
- معلومات عن النشر في المجلة ١٩٢
- الإشتراك السنوي / Contents ١٩٣

● ترتيب الدراسات والبحوث يخضع لاعتبارات فنية صرف.

كلمة العدد التاسع

أ.د. عمار جيدل

نستقبل العدد التاسع من مجلتكم ببحوث متنوعة، تغطي جملة من المعارف المبثوثة في رسائل النور للأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي.

استهلت المقالات بدراسة الأستاذ إدريس مقبول الموسومة بـ ''العقل المؤيد بالإيمان عند الإمام النورسي أو اتصال الآيات والقيم''، وهو بحث في استرجاع الرؤية الفطرية الإسلامية الشاملة والمتكاملة، باستعادة العقل أنوار القيم، أردفتها دراسة ضرورية في ظل ظروف أمتنا، وخاصة في جو غابت فيه معاني الدرس الأخيرة من حياة الأستاذ النورسي ''العمل الإيجابي البناء''، فكانت الدراسة سعيا مستمرا لاستعادة الإيجابية، القيمة المغيّبة في التزاحم الفكري والاجتماعي و...للأستاذ عمار جيدل، استضفنا في هذا العدد مقالة مميّزة لطالب الدكتوراه بن شية عبد الله ''مسألة الشر والسيئات وعلاقتها بالعدالة الإلهية في الخلق''، والبحث محاولة طيّبة ينتظر إثراؤها بالسير في فضاء البحث بخطى ثابتة، عرضنا بعدها ''الثنائي البلبل والوردة تعبيرا عن الحب القائم بين الخالق والمخلوقات في كتابات النورسي'' للأستاذ جورج غريغوري من رومانيا وهومن قدماء المشتغلين برسائل النور، ودراسته حَرِيَةٌ بالقراءة، لما تضمنته من إشارات أدبية راقية، كما تناولت دراسة ''النورسي والتصوف أو من توحيد الولي، إلى توحيد الصفي''، للأستاذ جعفر السُلَمي جوانب الترقية الروحية في تجربة النورسي التربوية، وعدنا في هذا العدد إلى أحد أعمدة العمل العلمي الرصين المرحوم الأستاذ فريد الأنصاري، بدراسته الموسومة بـ ''بديع الزمان النورسي من برزخ التصوف إلى معراج القرآن''، وهي دراسة في فلك استعادة القرآن مركزه في المعرفة وصناعة الوعي والعروج المتنامي إلى عالم الترقي الروحي، وترتبط هذه بالدراسة المعنونة بـ ''الرؤية الكونية للأخلاق عند النورسي وأثرها في بناء الإنسان'' للأستاذ محمد الصمدي.

آثرنا أن يكون موضوع ملف العدد المقاصد في رسائل النور، وافتتحت بموضوع غاية في الأهمية لبيان الضوابط المنهجية في الفكر المقاصدي، بدراسة ''أساسيات منهج الفكر المقاصدي عند النورسي'' للباحث عبد العزيز البطيوي، وهذه الدراسة لها

صلة وثيقة ببحث مقاصد القرآن في رسائل النور من خلال بحث الأستاذ عبد السلام الأحمر ''المقاصد القرآنية في فكر النورسي''، وختمنا الملف بقراءة في مقاصد رسائل النور للشيخ علي قاطي ئوز ببحثه الممتع عن ''مقاصد القرآن من خلال رسائل النور''.

استضفنا في حوار العدد الأستاذ الدكتور ثروت أرمغان أحد أعمدة الدراسات الحقوقية في الجامعة التركية والعالم العربي، وأحد أبرز الأحفاد المعرفيين والتربويين للأستاذ النورسي، فقد أخذ رسائل النور بالأسانيد المتصلة بالأستاذ النورسي، فقد سمع الرسائل وشروحها من الأستاذ عبد الله يكن، أخذ عنه وسمع منه في ظل ظروف كان مجرّد التفكير في الاستماع عليها يعاقب عليه''القانون''، فكان حوارا مثمرا، يستبين منه القارئ كيفيات الاستفادة من رسائل النور في مختلف ميادين المعرفة الإنسانية والمعرفة البحت.

عرفنا في العدد بالإصدارات الجديدة من خلال قراءة في كتاب ''اللؤلؤ والمرجان من حِكَمِ بديع الزمان'' لمؤلفه الأستاذ مأمون جرار، والكتاب في عرضه شيّق وممتع، كما عرّفنا بالمؤتمرات والحلقات الدراسية، فكان التعريف بالمؤتمر العالمي العاشر الذي عقدته مؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم كعادتها، أيام ٢٢- ٢٤/٠٩/ ٢٠١٣م بعنوان ''دور النبوة ومكانتها في البحث عن الحقيقة من منظور رسائل النور''، وكذا ندوة حول الأستاذ النورسي في مدينة أربيل، وأخبرنا بما ستعقده المؤسسة في قابل الأيام، منها مؤتمران يعقدان في الهند في الثلاثي الأول من السنة الحالية، ومشاركة علمية في مؤتمر أكاديمي يعقد في الجزائر في الشهر الرابع، وفي الفترة نفسها تقريبا تعقد رئاسة الشؤون الإسلامية الأندونيسية مؤتمرا علميا يعرف فيه برسائل النور، وفي نهاية الشهر نفسه تستضيف جامعة القرويين ''قضايا المرأة والأسرة والمجتمع من خلال رسائل النور لبديع الزمان النورسي''. هذه جهودكم رتبناها واعدناها إليكم، راجين من السادة الأساتذة مساهمات جديدة تثري المجلة، وتثبّت جذورها في الأرض وتسهم ببناء طوابقها في قابل الأيام، وتسعف القارئ الكريم وغيره على استعادة وظيفته الحضارية.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل

* * *

الدراسات والبحوث

العقل المؤيد بالإيمان عند الإمام النورسي
أو اتصال الآيات والقيم

الدكتور إدريس مقبول[1]

تقديم:

يحظى العقل الأخلاقي بما هو فعالية إنسانية وهبة إلهية عند الإمام النورسي رضي الله عنه بمنزلة عظيمة، ذلك أنه جماع التوليف بين قوتين متى تفرقتا دخل الضعف على الكائن الإنساني من حيث تمام قوته في اتحادهما، إن الأمر يتعلق بالعقل آلة التفكر والاستدلال والإبداع من جهة والقيم الأخلاقية التي تعصمه من الشرود في دروب التدمير ومهاوي المعصية من جهة أخرى.

وعند الإمام النورسي تقوم على صفحة النفس الإنسانية حرب ضروس بين العقل والهوى في مسيرة ابتلاء الإنسان حتى يتغلب أحدهما على الآخر، والعقل ينبغي عليه أن يضطلع بدوره القرآني في الإنصات لصوت الحق وتمعنه والحرص على التمثل والامتثال، وهو في صراع دائم مع قوة الهوى وسلطان الحس التي تتربص به كلها للإطاحة به وحجب أدائه وقدراته.[2]

وقبل أن نمضي في تفصيل الفرق بين مراتب العقل واتصاله أو انفصاله عن القيم، نتوقف في البداية عند مفهوم العقل الآلة وما يتفرع عنه من خصائص وما يحده من حدود عند الإمام النورسي:

العقل الآلة: يعرف الإمام النورسي العقل بأنه آلة تابعة لإرادة الإنسان بعد أن تُعَيّن له الحق من الباطل والخير من الشر، فإنها -أي الآلة- لا مدخل لها في الفعل من حيث الاختيار، فالإنسان قد يعرف الشر بعقله ويأتيه مع علمه بضرره اللاحق له أو لغيره في العاجل أو في الآجل، ويعرف الخير ويتركه مع علمه بنفعه، وهو سر الابتلاء،[3] ولهذا لم يكن امتلاك هذه الآلة وحده كافيا ليحقق ماهية الإنسان وسعادته ما

لم يؤيد بالإيمان الذي يحمل الكائن الإنساني على الفعل الخَيّر (فعل الاستخلاف)، بل إن العقل الآلة ما لم يستعمله الإنسان في طريق الخير المطلق أو في سبيل الله كما يرى النورسي "فإنه يتحول إلى عضو مشؤوم مزعج وعاجز، إذ يحمّلك آلام الماضي الحزينة وأهوال المستقبل المخيفة، فينحدر عندئذٍ إلى درك آلة ضارة مشؤومة، ألا ترى كيف يهرب الفاسق من واقع حياته وينغمس في اللهو أو السكر إنقاذا لنفسه من إزعاجات عقله؟ ".[4] وليس هذا الهروب سوى قطع للعقل بما هو آلة إدراك للعالم عن الفعل النبيل والبناء في هذا العالم بما هو الفعل نفسه إدراك للغاية التي من أجلها خلق الكائن الإنساني، ولأجلها كُرِّم، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾،[الذاريات:٥٦] حيث لا يستقيم وجود عبادة بدون عقل، ولا عقل بدون عبادة.

وللعقل الآلة عند النورسي سمات يمكن إجمالها في أنه:

أولا: عقل حسي:

يتكلم النورسي عن محدودية العقل الإنساني، فلا قدرة لهذه الطاقة على تخطي عوالم الحس إلى عوالم الغيب مما أخبرت به رسائل الوحي من قبيل ما وراء الطبيعة، وكلامه في المحدودية لتأكيد أمرين اثنين:

الأول: عجز الكائن الإنساني بعقله عن إدراك مدى القدرة الإلهية، فلا سبيل له إلى ذلك.

الثاني: امتداد الإحساس الباطني القلبي (الإيماني) لمعرفة ما يعجز العقل عن إدراكه.

والإحساس الباطني هو نوع ثان من العقل لكنه أرقى درجة من العقل المجرد لقيامه على البعد الإيماني.

ومحدودية العقل الإنساني مرتبطة بطبيعة المعرفة التي يطلبها، فإن كانت معرفة حسية طبيعية كان له اقتدار على وصفها وتفسيرها وفق أدواته ومقاييسه المعتبرة، والتي راكمها عبر التجارب والملاحظة والتعميم والمقايسة، وأما إذا كانت معرفة ما وراء الطبيعة فإن كلام العقل فيها تخرص وتخبط، لأن مقاييسه تصير آنئذ كليلة حائرة عاجزة عن التحقق بهذا الضرب من المعرفة.[5]

ثانيا: عقل مفتون:

العقل المفتون عند النورسي هو عقل مشغول بقواعده، مشغول بقدرته ومعجب

بإمكاناته الهائلة على التحليل والتفكيك، أمام هذه الكائنات المضطربة المنسابة إلى الزوال، يصرخ ''العقل'' المفتـون،[6] إنه عقل مفتون لأنه أصبحت عنده ''حركات الذرات شعرات مظلمة لأهداب العقل، أسدلت على البصر المادي وأعمته، فلم يعد يرى الفاعلَ لتشكيل الأنواع كلها. وهكذا تقع الضلالة''.[7]

العقل المفتون عند النورسي عقل لا قدرة له على الانتقال إلى الحقيقة الكاملة، مشلول بالأشكال التي تأسره، غافل عن عجزه وإعاقته التي تقعد به عن التفكر القرآني والتدبر السنني.

وهو عقل لدرجة افتتانه بذاته، تألّه حتى صار مع الوقت إلها يتصور أن بإمكانه أن يقدم تفسيرا لكل ما يحيط به، لأنه هو الذي أوجده على نحو من الأنحاء، وهو يعتقد أن كل شيء وكل موضوع لا يخرج عن دائرة الفهم، وهي مسلمة تعكس غروره وضعفه في نفس الآن، يقول مانويل دودكيز: ''إن مسلمة قابلية كل شيء للفهم، وبالأدوات التي يوفرها العلم المزهو المنتصر على وجه التحديد والحصر، معناه الانزلاق إلى ما هو أشد ادعائية ألا وهو قابلية كل شيء للتفسير الذي لن يقبل إلا بالوجهة الواحدة وبالأحادية المركزية.''[8]

ولا يفوت النورسي أن يسجل في إطار نقده للعقل المعاشي المادي أن هذا العقل ذري وتجزيئي غارق في جزئيات ما ينظر فيه، يقول: ''ومن الغرائب أن العقل الذي يتطاول إلى الإحاطة بالعالم والنفوذ إلى الخارج والخروج من دائرة الإمكان، يغرق في قطرة.. ويفنى في ذرة.. ويغيب في شعرة.. وينحصر الوجود عنده فيما فنى فيه.. ويريد أن يدخل معه كل ما أحاط به في النقطة التي بَلَعته''.[9]

ثالثا: عقل محجوب:

يؤكد الإمام النورسي أن العقل قد ينحجب بأدواته عن معرفة الحقيقة، فيكون جهله بها سببا في كفره بها وإنكاره لها، ومعلوم أن العقل في هذه المرتبة قد يكون سبب انحجابه أيضا سبق النكوص في الإرادة عن معرفة الحقيقة، وكأن العقل يأتي في النتيجة ليريح النفس من تعب البحث والاجتهاد والتأمل في ما وراء الصنعة من صانع، وما وراء المُلك من مالك، يقول النورسي: ''إنك لا تعرف مالك هذا القصر ولا تَرغب في معرفته، فتستبعد أن يكون له مالك وتنساق إلى إنكار أحواله لعجز عقلك عن أن يستوعب هذه المعجزات الباهرة والروائع البديعة، مع أن الاستبعاد الحقيقي، والمشكلات العويصة والصعوبات الجمة في منطق العقل إنما هو في عدم معرفة المالك

والذي يفضي بك إلى إنكار وجود هذه المواد المبذولة لك، بأثمانها الزهيدة ووفرتها العظيمة. بينما إذا عرفناه يكون قبول ما في هذا القصر، وما في هذا العالم سهلاً ومستساغاً ومعقولاً جداً، كأنه شيء واحد، إذ لو لم نعرفه ولولاه، لكان كل شيء عندئذٍ صعباً وعسيراً بل لا ترى شيئاً مما هو متوفر ومبذول أمامك.''[10]

وكأن هذه المعرفة بالمالك تُيَسّر فهم العقل لشؤون المُلك، فلا يتعب كثيرا في ربط الموجودات بمُوجدها، والأشياء بحِكْمتها، فينعم حينئذ العقل بالاستقرار والاطمئنان لأن ثمت ميزانا تقوم عليه الأفعال في الكون تنفي عنه سلطان العبث.

إن العقل العلماني والمادي والتقني والوضعي نماذج لهذا العقل المحجوب، والذي لا يرى حاجة في التطلع إلى شيء اسمه الآخرة ما دام التقدم العلمي والتقني الذي هو حصيلة هذا العقل وثمرته، قادرا وحده على أن يرفع عن الإنسان أسباب الجوع والمرض والمشقة في هذه الحياة التي ليس ثمت شيء فوقها. كما أنه قادر على أن يمده بأسباب رغد العيش ومتعة العمل ونعمة الأمن في الدنيا، متناسيا أن الجزء الأكبر الذي تعاني منه البشرية اليوم متصل اتصالا مباشرا بجانبها الروحي والمعنوي والأخلاقي، ولهذا تجد النورسي يتساءل: ''ترى هل يمكن أن يسعد إنسان لمجرد تملكه ثروة طائلة، وترفله في زينة ظاهرة خادعة، وهو المصاب في روحه وفي وجدانه وفي عقله وفي قلبه بمصائب هائلة''.[11]

مراتب الوجود ومراتب العقول:

يذهب النورسي إلى أن ''أهل الحكمة وأهل الدين وأصحاب العقل والنقل متفقون ضمنياً على أن الموجودات لا تنحصر في عالم الشهادة هذا، وان عالم الشهادة الظاهر الجامد الذي لا يكاد يتفق مع إقامة الأرواح وتشكلها قد تزين بهذا العدد الهائل من ذوي الأرواح والأنسام؛ لذا فالوجود لا يمكن أن يكون منحصراً فيه. بل هناك طبقات أخرى كثيرة من الوجود، بحيث يصبح عالم الشهادة بالنسبة لها ستاراً مزركشاً. وما دام عالم الغيب وعالم المعنى ملائمين للأرواح -كملاءمة البحار للأسماك- فلابدّ أنهما يزخران بأرواح ملائمة لهما.''[12]

عوالم بعضها فوق بعض، وعقول بعضها أيضا فوق بعض، ومنزلة العقل المادي فيها لا تعدو منزلة خفاش ''جيد الإبصار في ظلمات الكون المادي وما أودع الله فيه من أسباب، حتى إذا خرج من كهفه ذاك إلى حيث تسطع شمس حقائق الغيب عمي عمى مطبقا، وأنكر أن يكون في الوجود غير ما وقع عليه حسه الكليل''.[13]

ولما تعددت مراتب الوجود وطبقاته، حتى كان الوجود الحسي أدناها ولا يمثل شيئا أمام عظم الوجود عامة، كانت العقول أيضا مراتب يوافق منها كل واحد مرتبة من مراتب الوجود، فعلى قدر تحقق الإنسان بواحد من هذه العقول كان له الاطلاع اللائق بالمرتبة المطلوبة من الوجود المتواري خلف الحس، وهذه العقول تتدرج في القوة حتى يكون أضعفها هو العقل الحسي المجرد وأقواها هو العقل الإيماني المؤيد، وبينهما مراتب من العقل الشرعي المسدد.[14]

وإن معارف المراتب العالية من الوجود الخارجة عن الحس يتلقفها العقل الإيماني المؤيد لمعات لا يستقيم تناولها بميزان العقل المجرد وقوانينه، بل إن اللغة نفسها تضيق فلا تتسع للتعبير عن هذه الحقائق المتوارية، و"عدم التعبير ليس عَلَماً على عدم الوجود. فكما أن اللسان كثيراً ما يتقاصر عن أن يترجم عن دقائق ما في تصورات العقل؛ كذلك قد لا يتراءى بل يتغامض عن العقل سرائر ما في الوجدان، فكيف يترجم عن كل ما فيه؟"[15]

وإذا كان هذا في سرائر الوجدان فكيف بسرائر الأكوان مما هو كائن أو كان، خصوصا إذا تفاعلت النفس بهذه اللمعات، يقول النورسي: "لقد مازج هذه اللمعة شيء من الأذواق والمشاعر، فأرجو عدم تقييمها بموازين علم المنطق؛ لأن ما تجيش به المشاعر لا يراعي كثيراً قواعد العقل ولا يعير سمعا إلى موازين الفكر."[16]

إنها حقائق الوجود حين تتأبى على الوصف، وتخرج عن طوق الترسيم كما قال النفري صاحب المواقف والمخاطبات"كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة".[17] وكأن اللغة في هذا المقام الوجودي التواصلي مرتبطة بما يستطيعه العقل الإنساني من ممكنات، ويبقى ممكن المعنى الروحي فوق العبارة المنتهية والمنتسبة لعالم العقل الذي لا يستطيع مجاراة الوجدان في تملي الأسرار الإلهية. فالإنسان أعظم من اللغة في حضرة الحق فقد كان الإنسان ولم تكن اللغة.

ارتقاء العقل:

لقد أبان النورسي رحمه الله على أن منهج التربية في القرآن كما يعلي من قيمة العقل بما هو حاكم وسبب في رقي الإنسان وصناعة تطلعاته في الحياة وبما يمنحه من قدرات على الابتكار والإبداع في دنيا الابتلاءات فإنه في مسيس الحاجة لنفحة الإيمان تحفظه من المهالك وتجعله على أقوم المسالك، إذ العقل عند الإمام النورسي في

مسيس الحاجة لنفحات الرحمن والاتصال بالمطلق"الله" حتى يجد معنى حقيقيا لهذه الحياة ويبقى على خط البناء والعمران لا الهدم والخسران.

والبقاء على خط الاستقامة والبناء يستلزم صراعا مستمرا مع خصوم الإنسان وأعدائه في الداخل والخارج على محور الابتلاء، ولهذا كان الإنسان دائم المراوحة بين الذكر والغفلة،" وعندما تهيج أحاسيسُ الإنسان لا ترضخ لموازين العقل، بل الهوى هو الذي يتحكم، فيرجح عندئذ لذةً حاضرةً ضئيلة جداً على ثواب عظيم في العقبى، ويتجنب ضيقاً جزئيا حاضراً أكثر من تجنبه عذاباً أليماً مؤجلاً. ولما كانت الدوافع النفسانية لا ترى المستقبل بل قد تنكره، وان كان هناك حثّاً لها من النفس وعوناً، فان القلب والعقل اللذين هما محل الإيمان، يسكتان، فيُغلبان على أمرهما. فلا يكون عندئذ ارتكاب الكبائر ناتجاً من عدم الإيمان، بل من غلبة الهوى وسيطرة الوهم والحسّ المادي، وانهزام العقل والقلب وغَلَبة كل أولئك عليهم".[18]

فإذا تغلب الهوى ضاعت حقائق الغيب، وانمحت آثار التقوى من النفس، فانحط العقل إلى أخس دركاته، فيصبح مزينا للباطل، مسوغا للقبيح، مستشارا وموجها للنفس الأمارة بالسوء.

والإنسان إذا تدارك غفلته، فتاب عقله عن عنجهيته وتمرده على خالقه، وسجد بين يديه سبحانه معترفا بالتقصير والضعف والتناهي، تداركته يد العناية، فيتحول العقل الجامد إلى عقل حي، وينقلب العقل المحبوس إلى عقل منطلق، ويرتفع الإنسان من وهدة البهيمية الراتعة بلا مسؤولية ولا رقابة أخلاقية إلى مراقي التشريف والتكريم، يقول الإمام النورسي رضي الله عنه: "وانظر إلى الإنسان كيف ترقَّى من حضيض الحيوانية الذي هوى إليه بعجزه وفقره وبعقله الناقل لأحزان الماضي ومخاوف المستقبل، ترقّى إلى أوج الخلافة بتنور ذلك العقل والعجز والفقر. فانظر كيف صارت أسبابُ سقوطه -من عجز وفقر وعقل- أسبابَ صعوده بسبب تنورها بنور هذا الشخص النوراني."[19]

وحقيقة ارتقاء العقل لا تكون إلا بأخذه بالإيمان وبالقيم الأخلاقية، وإلا استحال أمر تحكيمه منفردا إلى ضرب من التأليه الذي يودي بالحياة الإنسانية إلى أتون الفوضى والاقتتال، يقول النورسي: "القلب الإنساني إذا انتزع منه الرأفة والرحمة والاحترام فإن العقل والذكاء يسيطران -عندئذ- على زمام الإنسان ويجعلان أولئك الناس كالوحوش الضارية والكلاب المسعورة."[20]

وهكذا فإن الترتيب الفطري للإنسان يرفع القلب إلى مقام الإمارة، ويجعل العقل وزيرا له، والحواس خَدَمَة، فإذا فسدت الفطرة تأمر العقل، وتمرد على القلب ومعانيه، وهذا فساد العقل الفلسفي العبثي، فإن فسدت الفطرة الفساد التالي للفساد الأول، الملازم له، الناتج عنه، تَأَمَّرَ الهوى بشهواته، وسَخَّرَ العقل لأغراضه، وطرد معاني القلب من القيم الإيمانية العالية.[21]

وقد استمر النورسي طوال حياته يدافع عن العقل الأخلاقي الذي يرجح القيم الإنسانية النبيلة على القيم الإنسانية المنحطة، ويذكر في كل مناسبة أن قيمة العقل من قيمة الأخلاق التي يدافع عنها، يقول: ''فلئن كانت المداهنة والتملق والتزلف وفداء المصلحة العامة في سبيل المصلحة الخاصة، تعدّ من مقتضى العقل.. فاشهدوا إني أقدم براءتي من هذا العقل، مفتخراً بالجنون الذي هو أشبه ما يكون بمرتبة من مراتب البراءة.''[22]

ولعل هذا الإعلان أصرح بيان تنديدي بالروح الحداثية وبالمدنية المفصولة عن القيم الأخلاقية، والتي تستجيز التضحية بالآخرين من أجل تغذية وإشباع النهم والشراهة الذاتية، على قاعدة الأخلاق الميكيافيليلية اللاإنسانية: ''الغاية تبرر الوسيلة.''

العقل مفتاح الكنز:

حتى يكون العقل مفتاحا للكنوز عند الإمام النورسي رضي الله عنه ينبغي أن يرتبط بالقرآن الكريم وبتصوره الشمولي الذي يتحدث أول الأمر عن العقل بما هو فعل القلب،[23] وليس مفصولا عنه، بل الممارسة العقلية في أجلى صورها تكون من هذا المنطلق الرباني إشعاعات قلبية مهتدية بهداية القرآن، وهذا معنى قول النورسي: ''نور العقل يشع من القلب.''[24]

فلا إشعاع للعقل حتى يكون القلب مصدره الذي يخرجه مخرجا إيمانيا حيث يجمع العقل المؤمن آنئذ بين قراءتين في سهولة ويسر وانسجام ووئام:

قراءة كتاب الله المسطور، وقراءة كتاب الله المنظور،''للخروج من إسار الأمية بكل أشكالها ومعانيها: كتاب منزل متلو معجز وهو القرآن، وكتاب مخلوق مفتوح وهو هذا الخلق والكون والتجارب البشرية فيه''.[25]

والعقل المفتاح عند النورسي عقل متجاوز باستمرار لقشور الحكم إلى لب الحكمة، فهو مفتاح رائع،[26] ''بحيث يفتح ما لا يعد من خزائن الرحمة الإلهية وكنوز الحكمة الربانية فأينما ينظر صاحبه وكيفما يفكر يرى الحكمة الإلهية في كل شئ، وكل

موجود، وكل حادثة. ويشاهد الرحمة الإلهية متجلية على الوجود كله، فيرقى العقل بهذا إلى مرتبة مرشدٍ رباني يهيئ صاحبه للسعادة الخالدة.''[27]

ويشترط النورسي حتى يكون العقل مفتاح الكنوز أن يتحلى بالتوحيد حتى يخرج من الوحشة والخوف والضعف، ذلك أن ''التوحيد هو نفسه أوضح برهان، وأسطع دليل على الكمال والجمال الإلهي، لأنه: إذا عُرف أن صانع الكون واحد أحد، فسيُعرف جميع أنواع الكمال والجمال المشاهدة في الوجود، بأنها: ظلال وتجليات وعلامات لأنواع الكمال المقدس وأنماط الجمال المنزّه لذلك الصانع الواحد الأحد لذلك الكمال المقدس والجمال المنزّه، بينما اذا لم يُعرف الصانعُ الواحد، فستحال تلك الكمالات وأنواع الجمال إلى الأسباب التي لاشعور لها والى مخلوقات عاجزة، وعندها يحار العقل البشري أمام خزائن الكمال والجمال السرمديين، لأنه فقد مفتاح تلك الكنوز الخالدة''.[28]

منطق السببية والعقل الملكي:[29]

يتحدث النورسي عن عَبَدة الأسباب والذين يحيلون الخلق والإيجاد إلى الوسائط، ويسندون إليها التأثير، ويريدون بلوغ حقيقة الحقائق، ومعرفة الله جل جلاله عن طريق العقل والفكر وحده، كالحكماء المشائيين.[30]

وقد اجتهد الإمام النورسي رحمه الله في الرد على حجج فلاسفة الحتمية السببية بمنطق يشي بمعرفة واسعة بمذاهبهم وفي الوقت ذاته باطلاع واسع على أدبيات المتكلمين والفلاسفة المسلمين، كما يظهر للقارئ أن مناقشته للحتميين شبيهة بمناقشة الإمام الغزالي في تهافت الفلاسفة في إبطال قولهم في استحالة خرق العادات، وهو مبحث خصصه لنفي رجوع الاقتران لمنطق السببية، بل لما سبق من تقدير الله سبحانه، يخلقها على التساوق لا لكونه ضروريا في نفسه، غير قابل للفرق.[31] يقول الإمام النورسي: ''أيّ هذرٍ هذا !وأي وَهْم !أليس الذي يتفوه به بعيداً كل البعد عن سلامة العقل؟ فالذين يحيلون أمر الخلق والإيجاد في هذا الكون البديع إلى الأسباب والى الطبيعة يهوون في جهل مركب سحيق كهذا. وذلك لأن مظاهر الإبداع واضحة على الأسباب والطبيعة نفسها، فهي مخلوقة كسائر المخلوقات. فالذي خلقها -على هذه الصورة البديعة- هو الذي يخلق آثارها ونتائجها أيضا، ويظهرها معاً''.[32]

ويوضح النورسي''أن الأسباب إنما وُضعَت لتبقى عزةُ القدرة مصونةً من جهة نظر العقل الظاهري؛ إذ إن لكل شيء جهتين -كوجهي المرآة- إحداهما جهة ''المُلك''

الشبيهة بالوجه المطلي الملوّن للمرآة الذي يكون موضع الألوان والحالات المختلفة، والأخرى جهة ''الملكوت'' الشبيهة بالوجه الصقيل للمرآة. ففي الوجه الظاهر -أي جهة المُلك- هناك حالات منافية ظاهراً لعزة القدرة الصمدانية وكمالِها، فوُضعَت الأسبابُ كي تكون مرجعاً لتلك الحالات ووسائلَ لها. أما جهةُ الملكوت والحقيقة فكلُّ شيء فيها شفافٌ وجميلٌ وملائمٌ لمباشرةِ يدِ القدرة لها بذاتها، وليس منافياً لعزّتها، لذا فالأسباب ظاهرية بحتة، وليس لها التأثير الحقيقي في الملكوتية أو في حقيقة الأمر.''[33]

وإذا قارن النورسي بين منطق القرآن ومنطق المتكلمين، فإنه يفصح عن صورة تقدم الوحي وترفعه فلا توازيه في منزلته الإقناعية منزلة المتكلمين مهما تفننوا وبرعوا: ''فمن هذا السر يتبين :أن علماء الكلام، وإن تتلمذوا على القرآن الكريم وألّفوا ألوف الكتب -بعضها عشرات المجلدات- إلاّ أنهم لترجيحهم العقل على النقل كالمعتزلة، عجزوا عن أن يوضحوا ما تفيده عشرُ آيات من القرآن الكريم وتثبته إثباتا قاطعاً بما يورث القناعة والاطمئنان، ذلك لأنهم يحفرون عيوناً في سفوح جبال بعيدة ليأتوا منها بالماء إلى أقصى العالم بوساطة أنابيب، أي بسلسلة الأسباب، ثم يقطعون تلك السلسلة هناك، فيثبتون وجود واجب الوجود والمعرفة الإلهية التي هي كالماء الباعث على الحياة! أما الآيات الكريمة فكل واحدة منها كعصا موسى تستطيع أن تفجّر الماء أينما ضربت، وتفتح من كل شيء نافذةً تدل على الصانع.''[34]

إن النورسي من خلال هذا الكلام التمثيلي الرائع يوضح كيف يمضي تفسير القرآن للسببية من غير أن تصير حاجزا عن إدراك العقل للوجود في كليته، للوجود المتمكن بقدرة الله التي تفعل فيه وبه ما تشاء، كما يبين في الوقت ذاته كيف أن السببية الجامدة تشل حركية العقل المادي وتأسره كما أكد الغزالي وابن تيمية من فلاسفة الإسلام[35] ودافيد هيوم وبرتراند راسل من فلاسفة الغرب، فهي تحد من طاقته الإبداعية، فلا يتصور شيئا خارجا عن قانون وَضَعَهُ وسَكَنَ في قفصه إلى الأبد.

العقل والجمع بين الآيات والقيم:

العقل المؤيد بالوحي والإيمان عقل يصل بين الآيات والقيم، ومعلوم أن أحد أسباب التردي والانهيار في الواقع الكوني اليوم هو سيطرة فلسفات ومناهج معرفية تفصل بين الآيات والقيم، والحقيقة أنه لا نزاع في أن الكائن الإنساني يميل بفطرته التي خلقه الله تعالى عليها إلى أن يجد في الأحداث التي تجري من حوله دلالات

تجاوز واقعها، وهو يرى في حصولها إشارات تتعدى الظواهر؛ وتحمل إليه هذه الدلالات الدقيقة والإشارات الخفية، معاني بعيدة أو قيما عليا يشعر بالحاجة إلى الاهتداء بها وإتيان أفعاله على وفقها.

والحال أنه ليس في الأطوار التي تقلبت فيها الحضارة الإنسانية كما يذهب الدكتور طه عبد الرحمن "طور خالف هذا الميل الفطري لدى الإنسان مخالفة الواقع الكوني له؛ فهو يقر بوجود القيم، لكنه لا يقر بوجود الآيات؛ ولا يخفى أن الفصل بين الآية والقيمة إجراء تجريدي صناعي، بل تصنعي، ذلك أن الآيات لا تعدو كونها الظواهر عينها وقد تلبست بها القيم، والظواهر إنما هي الآيات وقد انتزعت منها هذه القيم، فهذا الانتزاع يؤدي إلى تجريد القيم من المواد التي تتجسد فيها أو من الموضوعات التي تحملها، ثم وضعها في عالم لا وجود له إلا في الأذهان، قد يزعم بعضهم أنه عالم المثال، أي عالم لا يأوي إلا الصور المجردة".[36]

لقد كان الإمام النورسي حريصا على تعليم تلامذته ومحبيه أن كل علم من العلوم التي يقرءونها يبحث عن الله دوما، ويعرّف بالخالق الكريم بلغته الخاصة. فاصغوا إلى تلك العلوم دون المدرسين.. وهذا هو معنى الربط بين الآيات والقيم.

من موجبات اشتغال العقل الإيماني المؤيد أن لا تنفك معرفة موضوع أي علم عن معرفة الله تعالى فيه، فكل معرفة عقلية كاملة تشكل مفتاحا من مفاتيح الاهتداء إلى طريق الله بقدر ما هي علمك بالموضوع الذي تختص ببحثه وبالكشف عن قوانينه، فالموضوعات أو الموجودات التي تنظر فيها العلوم هي على التحقيق مجلى قدرة الله ومظهر صنعه، وكل من سرح فيها فكره، وكان ذا عقل كامل، وجب أن يدركه فيها، وأن يزداد اقترابا منه."[37]

في استعارة رائعة يقول النورسي: "إن القرآن الحكيم بمثابة عقل الأرض وفكرها الثاقب، فلو خرج القرآن -والعياذ بالله- من هذه الأرض لجُنّت الأرض."[38]

إن جنون الأرض هو جملة الأمراض والأزمات التي تنبأ بها النورسي عندما تنفصل الآيات عن القيم، فتتحكم في دنيا الناس القيم المادية التي تطحنهم في رحاها، فلا يعيش إلا القوي ولا يتأمر إلا المحتال الذكي ولا يكون مثلا أعلى إلا الفارغ الغوي.

إن الأرض إذا خلت من القرآن، أي من نظام القيم الحافظة لانهيار الإنسان، تحولت إلى غابة يأكل فيها المتغلب المستضعف، واستحالت إلى حلبة ليس فيها معنى إنساني إلا الصراع الحيواني النيتشوي على المقدرات والمصالح... ولانعدم منها كل

إحساس بالحاجة إلى التراحم، وبالتالي لتحول العالم إلى شتات في قفص فولاذي بارد، ذلك أن الرحمة ''ليست خيرا ينبغي على كل واحد تحصيله فقط، بل إن الخير الذي تمثله هو بالذات ربط الصلات بين الناس كافة، بمعنى أن وجود الكونية منوط بوجود الرحمة، فبقدر ما يمارس الناس الرحمة فيما بينهم، تأتلف قلوبهم وتجتمع عقولهم، ومتى عرفنا أن التراحم لا ينحصر في وصل البشر بعضهم ببعض، بل يصل جميع الكائنات فيما بينها، ناطقة أو صامتة، متحركة أو ساكنة، أدركنا أن كونية الرحمة لا تعدلها كونية كما أدركنا خطأ أولئك الذين وقفوا الكونية على العقل النظري، أي العقل الذي انسلخ من رقة الإحساس وانعطاف الوجدان.''[39]

إن الغاية من إعمال العقل عند الإمام النورسي هي تحقيق التفكر والاعتبار، ومقتضى الاعتبار -كما يقول طه عبد الرحمن- هو العبور من أحكام النظر إلى أسرار العبر،[40] فيكون الإنسان المُعتبِر حقيقة هو من يرى الظواهر على أنها آيات، وينسب السيادة على الكون والوجود إلى صاحب هذه الآيات.

يعتبر الدكتور عبد الوهاب المسيري العقل المادي عقلا تافها وسطحيا، وهي النتيجة نفسها التي سبق إليها الإمام النورسي لأنه لا يمكنه أن يسأل أيا من الأسئلة الكلية والنهائية الكبرى (ما هو الإنسان؟ وما هو مصيره في الكون؟ كيف يواجه الموت؟ ما هو نطاق حدوده وشموليته؟) فهي أسئلة لا معنى لها من منظوره، وقضايا زائفة على حد قول الوضعيين لا يمكن البرهنة على صدقها أو كذبها''.[41]

إن العقل الإيماني المؤيد ينطلق من الأسئلة الكلية، ويرتبط بها في اشتغاله وإبداعه، فتكون بمنزلة البوصلة التي تحفظه من التيه والانزلاق والشرود المعرفي.

مما غيم على العقل الغافل عن الله في عصر مكتظ بالكيف الوصفي مثل عصرنا نسيان الكيف التدبري من جراء الركام، ومن جراء رثاثة الإيمان وعمى القلوب التي في الصدور.

فتجد عقولا ماهرة بارعة في وضع أسئلة الكيف الوصفي الوظيفي، زاهدة يائسة من وضع سؤال لماذا. عقول بارعة ماهرة في الجواب المفصل المدقق المعزز بآلات الفيزياء وتفاعلات الكيمياء وأشعة الفحص وتاريخ الحقب وتجريب الوظائف.

وهم عن الآخرة هم غافلون، وعن ربهم وخالقهم لا يسألون.[42]

إن العلم بمعناه المادي قد فشل بالتأكيد في أن يوفر للإنسان الراحة النفسية والسلوى والرضا، لأنه في الوقت الذي وفر فيه عالما للكفاءة والفعالية والقياس

والتنبؤ، قدم أيضا عالما فاقدا للمعنى الخفي ولا يهتم بالإشباع الروحي كما يؤكد ماكس فيبر، إنه عالم بارد غير مضياف، الحقيقة فيه ليست الجمال أو الفضيلة أو ما هو نافع ويخدم غايات نبيلة، إن القيمة والعاطفة والأمل والمخاوف ليست من اهتماماته.[43]

وإذا لم تكن هذه القيم الإنسانية من انشغالات العقل المادي واهتماماته، فإن النورسي يلح بالجواب على أن الإيمان هو الذي يقيم بين القلب والعقل،[44] وهو الحارس المعنوي الأمين الذي يراقب ميولات النفس وتطلعاتها الفاسدة حتى يبقى الإنسان عبدا لله الواحد الأحد متخلقا بالأخلاق المحمدية في زمن بات الخطر الكبير الذي يهدد حاضر ومستقبل الغرب هو الصعود المأساوي لنوع جديد من الأزمات: أزمة الإنسان.[45]

والحمد لله رب العالمين.

* * *

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- الشرقاوي محمد عبد الله: الأسباب والمسببات: دراسة تحليلية مقارنة للغزالي وابن رشد وابن عربي ، بيروت : دار الجيل, ١٩٩٧ .
- ابن عربي محيي الدين: التدبيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٠.
- العلواني طه جابر: الجمع بين القراءتين، قراءة الوحي وقراءة الكون، مكتبة الشروق الدولية، ط١، ٢٠٠٦.
- عمر عبد العزيز موسى: العقل والقلب في الطب والقرآن والسنة، كيف نثبت أن العقل بالقلب، دار السداد للطباعة الخرطوم، ط١، ٢٠٠٩.
- الغزالي أبو حامد: تهافت الفلاسفة، تعليق محمد السعيد محمد المكتبة التوفيقية مصر، ٢٠٠٣
- طه عبد الرحمن: العمل الديني وتجديد العقل، المركز الثقافي العربي، ط.٢، ١٩٩٧.
- طه عبد الرحمن: سؤال الأخلاق، مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، المركز الثقافي العربي، ط١، ٢٠٠٠.
- طه عبد الرحمن : الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، المركز الثقافي العربي،ط١، ٢٠٠٥.
- طه عبد الرحمن، روح الحداثة، المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، المركز الثقافي العربي، ط١، ٢٠٠٦.
- مانويل دودكيز: العقل وأوثانه: نقد فلسفي للعقل، ترجمة تقديم وترجمة عبد الله زارو، ضمن فكر ونقد، ع٤.
- المسيري عبد الوهاب: دراسات معرفية في الحداثة الغربية، مكتبة الشروق الدولية، ط١، ٢٠٠٦.
- المرزوقي أبو يعرب: مفهوم السببية عند الغزالي، تونس: دار بوسلامة, ١٩٨٥.
- النفري محمد عبد الجبار: المواقف والمخاطبات، تحقيق آرثر أربري ؛ تقديم وتعليق عبد القادر محمود . - القاهرة : مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب, ١٩٨٥.
- النورسي بديع الزمان: كليات رسائل النور، ترجمة إحسان قاسم الصالحي.

- ياسين عبد السلام: محنة العقل المسلم بين سيادة الوحي وسيطرة الهوى، مؤسسة الطباعة والتوزيع بالشمال، الرباط، ١٩٩٤.
- ياسين عبد السلام: إمامة الأمة، دار لبنان للطباعة، ط١، ٢٠٠٩.
-John F. Haught. Science and Religion, Paulist press, New York, 1995.
- Philipe Saint Marc. L'Economie Barbare, Frison Roche, 1994

* * *

الهوامش:

[1] أكاديمي مغربي
[2] في الحرب بين العقل والهوى يراجع: ابن عربي: التدبيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٠، ص٣٧.
[3] النورسي: المكتوب التاسع عشر، ص ١١٨.
[4] النورسي: الكلمات، ص١٦.
[5] النورسي: الكلمات، ص ١٠١.
[6] النورسي: الكلمات، ص ٢٣٥.
[7] النورسي: اللوامع، ص ٨٤٦.
[8] مانويل دودكيز: العقل وأوثانه: نقد فلسفي للعقل، تقديم وترجمة عبد الله زارو، ضمن فكر ونقد، ع٤، ص٨٤.
[9] النورسي : المثنوي العربي النوري، ص٢٢٥.
[10] النورسي: الكلمات، ص ٣١٩.
[11] النورسي: اللمعات، ص١٧٧.
[12] النورسي: الكلمات، ص ٦٠٢.
[13] ياسين عبد السلام: إمامة الأمة، دار لبنان للطباعة، ط١، ٢٠٠٩، ص١٢٤.
[14] للتعرف أكثر على هذه المراتب، يراجع: طه عبد الرحمن: العمل الديني وتجديد العقل، المركز الثقافي العربي، ط.٢، ١٩٩٧، ص٢٥ فما فوق.
[15] النورسي: إشارات الإعجاز، ص ٥١.
[16] النورسي: اللمعات، ص ٢١.
[17] النفري عبد الجبار: المواقف والمخاطبات، تحقيق آرثر أربري؛ تقديم وتعليق عبد القادر محمود. - القاهرة: مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب, ١٩٨٥ . ص٥١.
[18] النورسي: اللمعات، ص١١٨.
[19] النورسي: الكلمات، ص٢٥٧.
[20] النورسي: الشعاعات، ص١١٧.
[21] ياسين عبد السلام: إمامة الأمة، ص١٢٥.
[22] النورسي: سيرة ذاتية، ص٧٠.
[23] ذكرت مادة "القلب" في القرآن أكثر من مائة وثلاثين مرة، ما منها لفظة تنصرف للعضلة الصنوبرية اللحمية، وذكرت في القران مادة "عقل" خمسين مرة، ما منها لفظة تدل على الآلة المشتركة. يراجع للمزيد: عمر عبد العزيز موسى: العقل والقلب في الطب والقرآن والسنة، كيف نثبت أن العقل بالقلب، دار السداد للطباعة الخرطوم، ط١، ٢٠٠٩.
[24] النورسي : اللوامع، ص ٨٤٨. وقد ورد مثل هذا الكلام عند ابن عبد ربه في العقد الفريد على أنه حديث، ولا

نعلم صحته، جاء فيه: ''العقل نور في القلب، نفرق به بين الحق والباطل، وبالعقل عرف الحلال والحرام، وعرفت شرائع الإسلام ومواقع الإصلاح، وجعله الله نورا في قلوب عباده يهديهم إلى هدى ويصدهم عن ردى'' ج١/٩٦.

[25] العلواني طه جابر: الجمع بين القراءتين، قراءة الوحي وقراءة الكون، مكتبة الشروق الدولية، ط١، ٢٠٠٦، ص٢٠.

[26] النورسي: الكلمات، ص٢٤٠.

[27] النورسي: الكلمات، ص ١٦.

[28] النورسي: اللمعات، ص ٥٥٢.

[29] عن النظر الملكي والملكوتي عند النورسي يراجع ورقتنا في مؤتمر العدالة لأجل عالم أفضل للإنسانية: العدالة بين حكمة القرآن وفلسفة الإنسان: قراءة في التجربة الذوقية للحكيم النورسي، مؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم، ط١، ٢٠٠٧، ص٤١٤.

[30] النورسي: الكلمات، ص ٦٥٠.

[31] الغزالي أبو حامد: تهافت الفلاسفة، تعليق محمد السعيد محمد المكتبة التوفيقية مصر، ٢٠٠٣، ص ١٦٨ فما فوق.

[32] النورسي: اللمعات، ص ٥٤٩.

[33] النورسي: الكلمات، ص ٣٢٧.

[34] النورسي: الكلمات، ص ٥١٤.

[35] يراجع: المرزوقي أبو يعرب: مفهوم السببية عند الغزالي، تونس: دار بوسلامة، ١٩٨٥. والشرقاوي محمد عبد الله: الأسباب والمسببات: دراسة تحليلية مقارنة للغزالي وابن رشد وابن عربي، بيروت : دار الجيل, ١٩٩٧ .

[36] طه عبد الرحمن: الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، المركز الثقافي العربي، ط١، ٢٠٠٥، ص٤٧-٤٨.

[37] طه عبد الرحمن: العمل الديني وتجديد العقل، ص١٤٨.

[38] النورسي: سيرة ذاتية، ص ٣٩٦.

[39] طه عبد الرحمن، روح الحداثة، المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، المركز الثقافي العربي، ط١، ٢٠٠٦، ص٢٥٤.

[40] طه عبد الرحمن: سؤال الأخلاق، مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، المركز الثقافي العربي، ط١، ٢٠٠٠، ص ١٣٣.

[41] المسيري عبد الوهاب: دراسات معرفية في الحداثة الغربية، مكتبة الشروق الدولية، ط١، ٢٠٠٦، ص٣٥٤.

[42] ياسين عبد السلام: محنة العقل المسلم بين سيادة الوحي وسيطرة الهوى، مؤسسة الطباعة والتوزيع بالشمال، الرباط، ١٩٩٤، ص ١٢٠.

[43] John F. Haught. Science and Religion, Paulist press, New York, 1995.p15.

[44] النورسي: الخطبة الشامية، ص٧٣.

[45] Philipe Saint Marc. L'Economie Barbare, Frison Roche, 1994. P15.

الإيجابية والحاجة المستمرّة إليها في حياة المسلمين

أ.د عمّار جيدل[1]

ملخّص البحث:

يعرف العالم الإسلامي في ظل الظروف الراهنة كثيرا من مظاهر التزاحم المشروع، والذي تحوّل بفعل غياب الانتماء إلى الأمة والوطن في التصرفات إلى مصدر تهالك على إشباع الحاجات المادية والمعنوية الفردية على حساب الأمة والمجتمع والوطن، فشاع فينا داء ''نفسي نفسي'' ومرض: ''مجوعتي مجموعتي''، ومرض ''أما مالي''[2] فكانت هذه الأمراض منابع رئيسة للمهلكات، فتحوّل التزاحم المشروع في أصل وضعه إلى مصدر بلاء.

تحوّل التزاحم إلى تكسير عظام المتخالفين لبعضهم البعض، حتى غدت ساعة الحرية ساعة فوضى بامتياز، وغدا التشهير بالمخالف مسلكا أساسيا في التعامل مع المخالف الفكري والمسلكي، في وضع هذا شأنه نحن بحاجة إلى الاستفادة من خبرة علمية وعملية لثقافة العمل الإيجابي، ذلك أنّها دعوة للبذل قدر الطاقة لأجل الصالح العام مرضاة لله تعالى، والإفادة من كلّ المكوّنات فيما تحسن الخوض فيه والإفادة به.

تنطلق الورقة من فرضية أساسية مفادها: إنّ المجتمعات المفتقدة لثقافة العمل الإيجابي تتآكل طاقاتها ومكاسبها وقواها المادية والمعنوية، بحيث يتفنن أهل الوطن الواحد في كيفية منع بعضهم بعضا من بذل أي معروف أو عمل مفيد لحركة تنمية المجتمع والوطن والأمة، فينصب الجهد على منع المخالف من تأطير الواقع فكريا واجتماعيا.

نحاول بهذه الدراسة بيان الأثر السلبي لغياب ثقافة الإيجابية أي العمل الإيجابي، وأهمية استحضاره بعد تعويله إلى وعي عام في حركة المجتمع والأمة، لأنّ ثقافة

العمل الإيجابي أهم وسيلة فعّالة إذا اقتنعت بها العقول ومكّنتها من القلوب، ذلك أنّ المعارف إنْ لم تستقر في القلب بعد مرورها عبر العقل، فإنّها لن تجدي نفعا، فمن استقرت في قلبه ربع المعاني التي اقتنع بها عقلا لن يتحرّك في الواقع بأكثر مما استقر في قلبه، فيكون حاله معبّرا عن الاقتناع بالربع أو أقل، من هنا كان التذكير بالعمل الإيجابي لأجل أن يتحوّل إلى حال وليس مجرّد مقال، وكان من أهمّ تجليات تبني ثقافة العم الإيجابي الابتعاد عن مواطن الشبهة، لكي لا يكون المتشبّع بها مصدرا محتملا للتوترات فضلا عن أن يكون مصدرا فعليا لتوترات إضافية في حياة المجتمع.

فكان قصدنا-علم الله- أن نكون معينين على الخدمة في أبواب البذل من غير انتظار عوض، مفاتح للخير مغاليق للشر، مقتصدين في إحداث توترات في مجتمعات لها من التوترات ما يكيفها وزيادة، ممتثلين في ذلك لقول المصطفى ﷺ: ''من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت'' (متفق عليه).

مقدمة:

تعد رسائل النور[3] -التي صنّفها الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي-[4] في حقيقة أمرها ووفق ما أراد صاحبها جامعة بديلة عن المدرسة التي تمكّن منها خللٌ طرأ على أهلها في أوضاعهم العلمية والأدبية والأخلاقية إضافة إلى أوضاعهم الإيمانية أو الدينية بصفة عامة، لهذا كانت رسائل النور في وضعها الأصلي برنامج تلك الجامعة، ونظرا لعدم التمكّن العملي من تنفيذ مشروع تلك الجامعة، فقد تحوّل برنامجها المعروف برسائل النور إلى جامعة حرة مفتوحة متنقّلة.

والرغبة في معالجة وضع تسترعي معرفته تيسيرا لإصلاحه، نعرف حال الإسلام والمسلمين من خلال السؤال عن الأسباب التي دعت الأستاذ النورسي إلى التفكير في تأسيس تلك الجامعة (الزهراء)، وهو سؤال في حقيقة الأمر عن الأسباب الداعية إلى التفكير في وضع رسائل النور. وهل مازالت تلك الأسباب قائمة، فتبقى قيمة رسائل النور كبيرة لبقاء مبررات نشأتها ماثلة أمامنا؟

الضرورات المنهجية لمعالجة الموضوع في إطار ورقات معدودة، فرضت عرض تشخيص أوضاع العالم الإسلامي كما صوّرتها رسائل النور، ثم التعريج على العلاج كما صوّره بديع الزمان، فنعرض قضيتين في شكل متداخل يفي بالغرض ويستجيب للاختصار المركّز الذي تفرضه الدراسة المحكمة.

تؤكّد مقاصد[5] رسائل النور أنّ القصد الأكبر منها هو خدمة الإنسان مقصد مقاصد رسائل النور، فالإنسان في الإسلام هو مركو العناية، وعليه مدار التكاليف الشرعية في أمختلف صورها، فكان الإنسان هو المحور الرئيس الذي تدور عليه الرسائل، فهو مراعى في صياغة الرسائل ولغتها وأساليبها وأمثلتها وتفاصيل مواضيعها...، والإنسان المراعي في جملة ما أشرنا إليه هو ابن عصره ومصره، يتأثّر بأوضاعه ويؤثّر فيها، وبالرغم من تأثير المعطيات اليومية والعامة الزمنية على تفكيره في الواقع، وإظهار تنزيل الفهم في تدبير الشأن العام والخاص، وما يفرضه من تغيّر مستمر في تدبير التصرفات في الظروف العادية وظروف التزاحم، إلاّ أنّ هذا لا يغني عن التركيز على العمل الدؤوب على استعادة الإنسان أصل ما خلق مزوّدا به وخلق باستعداد لقبوله، وهذا ما رمت رسائل النور إلى تحقيق القول فيه، تمكينا له من القلوب والعقول وعملا على تجليته في شعاب الحياة، حدّدت رسائل النور المقاصد الكلية للدين[6] وفق ما استشفها الأستاذ بديع الزمان من القرآن الكريم، يستفاد من العرض التفصيلي لمقاصد رسائل النور حال المسلمين أنفسهم وحال الإسلام[7] كما يعرضونه أو يتجلى للآخرين من رؤى المسلمين وتصرفاتهم، لهذا فعرض المقاصد الكلية لرسائل النور ثري بالإشارة إلى المتطلّبات النظرية والعملية في سياق اللحظة الحضارية الراهنة، فكان يتجلى فيها أهم ما أصاب الأمة من أمراض، نوجزها في النقاط الآتية:

فقد المناعة الحضارية: هيمنة العمل السلبي.

إذا فقد الإنسان الشعور بالانتماء للأمة والمجتمع والوطن، وأصبح من جرّاء ذلك عرضة لفقد المناعة الحضارية، وفقدّ المناعة الحضارية المكتسب أساس تجنّد الإنسان في مقدمة الفيلق المسيء لنفسه وأمته ومجتمعه ووطنه، ذلك أنّ حبه لنفسه أفقده الحَمِيَة الوطنية والدينية والاجتماعية، وحبّه لمجموعته على حساب حب ربه خالقه، يوقع أسير الأهواء والغرائز، فلا يهمه أمر البلاد والعباد بقدر ما تهمه نفسه وشلته، تلك هي أهم أعراض المرض الخطير الذي أصاب الأمة في مقاتلها، أشار إلى ذلك الأستاذ بديع الزمان في جملة الرسائل وبأساليب مختلفة.

في ظل هذه الظروف يصبح العمل السلبي مسلكا متحكّما في العقول والقلوب، وهو ما امتاز بها عصرنا، ونحن إلى الآن نكتوي بنيران هذا الداء العضال.

يمكن ومن زاوية وظيفية أن نستشف بمسلك استقرائي أنّ عصرنا تميّز –بحسب

تعبير الأستاذ النورسي- بهيمنة العمل السلبي وتضييع العمل الإيجابي والإرهاب والعنف والفوضى والاستبداد والظلم إضافة إلى غيبوبة تسمّت صحوة، بسبب الإيمان المهدد داخليا وخارجيا زيادة إلى المحاولات الملحّة لإبعاد المسلمين عن دينهم من خلال إبعادهم عن القرآن الكريم، ولا شك أن تلك المحاولات قد تعددت صورها وتنوّعت أساليبها في أيامنا الأخيرة، وأتت أُكُلَها للأسف الشديد، بسبب خوف الناس والسلطة الحاكمة من المتديّنين، وبسبب عرض المتدينين لدينهم عرضا غير موفّق، حتى غاب عن العقول التفكير في الضمانات الواقعية لعدم تغوّل البعض على البعض، بصرف النظر عن الألوان الفكرية والسياسية، الخَطْبُ عام في تعامل المخالف مع مخالفه، السلبية تملأ الآفاق، وبالرغم من التساوي في العنجهية والتعسّف والسلبية التي هي منظار لا يرى من خلاله المصاب بفقد المناعة الحضارية غير سلبيات الآخرين، ويصرف النظر عن إيجابياتهم، قد تكون هذه الخلال الخسيسة في غير المتديّنين أظهر وأشدّ مما عليه عند المتدينين بالإسلام، إلاّ أنّ هذا لا يمنع من تحميل المسؤولية الأكبر للفصيل الأخير، ذلك أن من منطلق العمل الإيجابي فإنّ اللوم ينصبّ أساسا على خَدَمَةِ الإيمان أكثر مما ينصب على جهود الآخرين، لأنّهم أحرى بمعرفة وضعهم في التخطيط للدعوة وحماية مكاسبها، ومعرفة جيّدة بطريق العرض المراعية لظروف الناس العامة والخاصة في التفكير والتدبير والتبليغ، مع معرفة لما فقدناه في دنيا التدين، وخاصة فقد الصلة بين الإيمان والأخلاق، والذي أصبح بسببه الانتماء غير مثمر، كأنّه مجرد كلمات تلاك ثم ترمى، فضعفت الأخوة والمحبّة والتضحية والاتّحاد، مما سهّل طريق تمكّن كثير من الأمراض الاجتماعية.

هذا حال المسلمين منذ أمد ليس بقصير، والوضع على حاله، ومما يزيد هذا التحليل والتشخيص أهمية اتّساع رقعة تلك النقائص، فقد كانت في بداية أمرها محدودة المساحة إلا أنّها في أيامنا الأخيرة استشرت وعمّت، بحيث لا تجد بلدا من بلاد المسلمين بمنأى عن الوقوع في أسرها أو شراكها، لهذا عدّ تشخيصه عاما ومُعَرّفا بحال بلاد المسلمين قاطبة، وللتشابه الكبير الذي يكاد يصل حدّ التطابق في تشخيص حالنا، عدّت وصفته صالحة لمختلف البيئات الإسلامية بحكم التشابه المشار إليها، كما أنّ مردّ ذلك التشابه راجع إلى صور عرض الإسلام (محرّك الوعي وأساس التعامل مع الكون والحياة والموالف والمخالف...) ومؤسسات استنساخ أنموذج الإنسان كمؤسسات تبليغ الدين وعرضه والمنظومة التربوية والاجتماعية والسياسية والقانونية والفنية والرياضية...

التشخيص: أسباب فقد المناعة الحضارية المكتسب.

شاع بين الناس أنّ الإنسان الذي أزفت أيامه في الحياة الدنيا على الانتهاء، يكون سريع الخطو إلى تطليق دنيا الناس وقصر جهده على ما ينتظره في الدار الآخرة، وهذا شأن من يعيش لنفسه، أمّا من يعيش لأمّته؛ فإنّه يستصحب بتصرّفاته قبل أقواله سنّة النبي ﷺ، فيتجاوز الأنانية وينادي بملء فيه متأسيا بسيدنا رسول الله ﷺ: ''أمتي، أمّتي''.[8]

وقد كانِ الأستاذ بديع الزمان النورسي متمثّلا التوجيهات النبوية الكريمة، فضمّن آخر درس ألقاه في الحياة الدنيا[9] توجيهات تبيّن حال الأمّة الإسلامية والخلل الطارئ على تصوّراتها وتصرّفاتها.

ولو أردنا أن نلخّص تلك الأمراض التي أصابت الأمة، لوجدناها ما زالت بيننا تمدّ بعناصر البقاء للرعونة في تصوّراتنا وتصرّفاتنا، ولعلّ أهمّها على رأي النورسي، ما ملخّصه النقاط الآتية:

تغليب العمل السلبي على العمل الإيجابي.

أهمية العمل الإيجابي:

يولّد تغليب العمل السلبي على العمل الإيجابي الانشغال عن المبادئ المهددة، فتتهيّأ النفوس للغفلة عن إنقاذ الإيمان، ومن ثمّ تضييع وظيفة الخدمة الإيمانية، بسبب ضياع الإخلاص التام، وشيوع التخريب المعنوي.

لم تأت هذه الأمراض الفتّاكة من فراغ، بل صنعناها في مؤسساتنا الاجتماعية واستنسختها منظوماتنا التربوية المتجلية في مؤسسات التعليم العام والتعليم الديني على الخصوص؛ فكانت بالفعل والقول مسوّقات تلك التصوّرات والتصرّفات.

يستشف من مبررات إنشاء مدرسة الزهراء (الجامعة التي تمثّل رسائل النور برنامجها)[10] أنّ الخلل الطارئ على الأمّة نشأ بفعل كسبها وتصرّفات اتباعها، لهذا توقّف الأستاذ عند تلك الأسباب عرضا وتحليلا، ومن زاوية تحيينية نرى أنّ تلك المبررات مازالت حاضرة بيننا بعناوين مختلفة؛ فمازالت مشكلة التعليم تفرض نفسها، وما زال إهمال المناطق الفقيرة والنائية سببا في توتّر العلاقات بين المركز(السلطة المركزية) والأطراف(مواطن الأقليات أو المنبوذين...)، وزادت المؤامرة على الإسلام

استفحالا، وشاعت النزعات الانفصالية في بلاد المسلمين، وعطّلت المدارس دورها في صناعة الوعي، وتحكّم قلّة قليلة من الأسرة الإنسانية في مصير الأغلبية الساحقة المسحوقة، وتحوّل المؤمنون عن وظيفة الخدمة.

تغليب العمل السلبي على العمل الإيجابي وآثاره التدميرية:

حضور الأستاذ النورسي في المشهد الثقافي والتربوي أكبر من أن يستدلّ عليه؛ فعباراته الواردة في درسه الأخير، تؤكّد بما لا يدع مجالا للشك أنّنا أمام شخصية منفصلة جسمانيا عن المجتمع،[11] تعيش نوع عزلة شعورية، قلبها يتقطّر شفقة على المجتمع والأمة، ولكن من غير أن يكون منساقا لدواعي الأيام ومتطلبات الحياة العادية فضلا عن الرغيدة، يتألّم لآلام المجتمع وتضييعه لآماله، فأكبر الآلام جاءته من إحساسه المرهف بما آل إليه أمرنا، ورغبته الأكيدة في استعادة الأمة لحضورها أمام ربّها عبادة متجلية في شعاب الحياة، وتُرى تطهيرا للعقول وتعميرا للقلوب والأرض.

وليس للأمة استعادة هذه الوظيفة الربانية ما لم تزل من طريقها ملوّثات البيئة الفكرية،[12] تطهير البيئة عمل يتّصل بوعيها بما تعيشه من سلبيات خطيرة؛ فمن ذلك تنبيه الأستاذ إلى خطورة العمل السلبي على الأمة في حاضرها ومستقبلها، لما يقتضيه من عناية بأقوال وأعمال المخالفين أكثر من العناية بالبذل العملي الميداني، يشير إلى ذلك المعنى قول الأستاذ:

"إنّ وظيفتنا هي العمل الإيجابي البنّاء وليس السعي للعمل السلبي الهدام."[13]

ومن مقتضيات العمل الإيجابي السعي الدؤوب للقيام بالخدمة الإيمانية ضمن نطاق الرضى الإلهي دون التدخل بما هو موكول أمره إلى الله، وهذا يفرض التجمّل بالصبر والتقلّد بالشكر تجاه كل ضيق ومشقة تواجهنا وذلك بالقيام بالخدمة الإيمانية البناءة،[14] وغني عن التأكيد أن لفظ البناءة يؤكّد بما لا يدع مجالا للشك أنّ المطلوب هو تجاوز العمل السلبي بعمل يضيف قيمة مضافة للعمل المكتسب، إنّها تعني البناء لا الهدم وتهدف إلى تحقيق الاتصال والابتعاد عن الانفصال بكل معانيه وأبعاده، وفي ذلك مسلك حياة ومنهج تبليغ.

إنّه مسلك ينأى بالملتزم به ولا سيما الذين هيمن عليهم التشوّف إلى تصفية القلب لله عما سوى الله، عشّاق الحرية بمعناه الوظيفي المحرر من أسر التعلّق بالدنيا ومفاتنها

رغبة في تعميرها طلبا لتمام الرضا الإلهي، وهؤلاء هم الذين سُكِنَتْ قلوبهم بخدمة الأمة، وقد عمل الأستاذ برسائل النور على غرس ثقافة العمل الإيجابي المؤسس على عشق خدمة الأمة والتمتّع بنفعها، فكانت رسائل النور بفضل الله مانعة من الوقوع تحت طائلة المضاعفات الثانوية لتغليب العمل السلبي على العمل الإيجابي، فعملت الرسائل على دفع كلّ ما شأنه تعريض حاضر الأمة ومستقبلها للخطر، فكانت للأستاذ عناية ببيان المضاعفات الخطيرة لشيوع العمل السلبي، ولعل من أهمّها:

أ – ضياع الأمن والاستقرار:

ضياع الأمن والاستقرار نظرا لما يتطّلبه العمل السلبي من نقد ومطارحات ونقاشات، وهي أفتك الوسائل في تصفية الخصومات بعنوان الموضوعية، ولو فكّر المزاولون للنقد في جدواه وأهميته بالنسبة لحاضر الأمة ومستقبلها لابتعدوا عن كثير من قضايا النقاش، ولو فكّر في المسألة بإيجابية لأمكن تجاوز النقد بالعمل الإيجابي، والذي من ثمراته المباشرة الحفاظ على الأمن والاستقرار الداخلي، لما يفرضه من عمل بنّاء يؤسس للتواصل وينشد تحقيقه بكل أبعاده.

وقد ضرب الأستاذ النورسي أروع الأمثلة في العمل الإيجابي، رغم تهيّئ الجو للعمل السلبي، فقال متحدّثا عن نفسه:

''أقول متخذًا من نفسي مثالاً: إنّني لم انحن تجاه التحكم والتسلط منذ القدم. وهذا ثابت بكثير من الحوادث. فمثلاً: عدم قيامي للقائد العام الروسي، وكما إنّني لم أعر أيّة أهمية على أسئلة الباشوات في ديوان المحكمة العسكرية العرفية الذي كان يهددني بالشنق والإعدام. وطوري هذا تجاه القواد الأربعة تُبين عدم قبولي للتحكم والتسلط. إلاّ أنّني قابلت المعاملات الشائنة بحقي منذ ثلاثين سنة الأخيرة بالرضى والقبول، ذلك من أجل السعي للعمل الإيجابي والاجتناب عن السعي للعمل السلبي لأجل ألاّ أتدخل بما هو موكول أمره إلى الله. بل قابلتها بالرضى والصبر الجميل.''[15]

ومن ذلك أنّه رحمه الله لم يدع بسوء حتى على المدعي العام الذي اتخذ ضدّه قراره الجائر بالرغم من أنّه قد اثبت أخطاءه البالغة واحداً وثمانين خطأً.[16]

المسألة الأساسية في هذا الزمان هي العمل الإيجابي الذي طريقه الجهاد المعنوي، وإقامة السد المنيع أمام التخريبات المعنوية، وإعانة الأمن الداخلي بكل ما نملك من قوة.

ب- خوف الحكّام:

يحذّر الأستاذ النورسي من الاغترار بقوّة مسلك العمل الإيجابي واستعماله في غير تأمين الأمن الداخلي، ذلك أنّ وظيفته الأساسية هي الإعانة على ضمان الأمن الداخلي بكل ما يملك من قوة. لهذا السبب لم يشتغل الأستاذ بما يخلّ بنظام الأمن، وكانت تصرّفاته سعيا دؤوبا لدفع خوف الحكام وأنصارهم من جهة، وسعيا إلى التحقق بالحرية التي هي مطلب الجميع خدمة للبلاد والعباد.[17]

ج – الانشغال بالمعارك الهامشية عن المعركة الأصلية:

نسجّل في البداية أنّ العمل السلبي يشغل المهتمين بالدعوة عن المعارك المصيرية، ويسلمهم إلى معارك هامشية، المنتصر فيها منهزم، بالنظر إلى ضياع معركة المصير، وانشغالا بأولوية الأولويات سعى بديع الزمان إلى تطمين الحكّام على ملكهم ودفع خوفهم من المتديّنين،[18] وبهذا الصدد تراه يؤكّد أنّه ليس من مقاصد رسائل النور أو أهدافها في العصر الحاضر الاشتغال بالسياسة، إذ تتلخّص المعركة في تحطيم الكفر المطلق الذي يعدّ أس أساس الفوضى والاستبداد والتأسيس للأمن والنظام والحرية والعدالة.[19]

صرّح بديع الزمان بهذه المعاني في سياق مرافعته عن رسائل النور فقال رحمه الله: ''أيها البائسون!.. إن رسائل النور لا علاقة لها بالسياسة، بل تقوم بتحطيم الكفر المطلق -الذي أسفله الفوضى وأعلاه الاستبداد المطلق- وتفتيته وردّه على أعقابه. ..تسعى رسائل النور إلى تأسيس الأمن والنظام والحرية والعدالة في هذا البلد.''[20]

د – الابتعاد عن مواطن التهمة:

تدل تصرّفاته رحمه الله على تبني ذلك المسلك في التغيير، إذ تأسيسا لمعاني طلب الأمن والحرية والنظام والعدالة، تجده ينأى بنفسه عن أن يكون هدفا للاتّهام بالتعلّق بالدنيا ومفاتنها، لهذا تجده من منطلق الحكمة في التبليغ يتهرّب تهرّبا شديدا وينفر من التعرّض للسياسة والحكم، بالرغم من امتلاكه قوّة الحق ما يسمح له بالدفاع عن حقه بجدارة وكفاءة، تؤكّدها إشارته الرائعة إلى مقتضيات تغييب العدالة بالرغم من عزوفه عن الخوض في السياسة، وعزاءه في ذلك أنّه مادام كل شيء زائلاً وفانياً ومادام الموت موجوداً والقبر لا يزال فاغراً فاه، ومادام الأذى ينقلب إلى رحمة، فإننا نفضل

أن نصبر ونتوكل على الله ونشكره ونسكت. أما محاولة الإخلال بسكوتنا وهدوئنا بالإكراه بإيقاع الأذى بنا فإنها تناقض كل مفاهيم العدالة والغيرة الوطنية والحمية الملية.[21]

هـ – قلب الموازين:

- غيبوبة تسمّت صحوة:

ينأى العمل السلبي بأصحابه عن رؤية القضايا بموضوعية؛ يقلبُ هذا المسلك المحكّم التصوّرات وتهيمن عليه تشوّهات ظاهرة، فلا يرى الأمور على ما هي عليه في الواقع، وذلك من منطلق الرغبة الجامحة في تدمير الآخر، عِوض الانشغال بالبناء، ذلك أنّ مواقفها تعبّر عن ردود أفعال أكثر مما تعبّر عن حركة ذاتية مؤسّسة على معرفة جيّدة بالمعطيات وتفاعلها مع الواقع.

المصلح الإيجابي حينما يسجّل خللا في التصوّرات وانحرافا في الفعل، يسعى جاهدا إلى تحصيل صحوة تتجاوز الوعي الراهن الذي من مكوّناته عقلية العمل السلبي، ثم التأسيس لوعي يستوعب الراهن بجميع مكوّناته المادية والمعنوية، ويستلهم من القرآن دواءه، ذلك هو مسلك المصلحين الرساليين عبر الزمان.

جعل بديع الزمان التأسيس لصحوة إسلامية راشدة مقصدا رئيسا من مقاصد رسائل النور، ذلك ما ورد في الرسائل: ''أجل إن الهدف الذي كان يصبو إليه ...منذ نعومة أظفاره والأمل الذي كان يحدوه... هو حصول صحوة إسلامية تعم العالم الإسلامي.

أثبت الأستاذ تبني هذا المسلك الإيجابي في مباحثاته مع مئات العلماء في كثير من الأماكن التي حلّ بها حتى حيّر السياسيين. ولم تغادره هذه المسؤولية الجسيمة والمهمة الثقيلة والشوق الدائم قط. فكان يأمل أن يكون الإعلان عن الحرية والمشروطية في خدمة الشريعة الغراء، ويكون ذلك تباشير سعادة الأناضول والعالم الإسلامي قاطبة.

وأكّد تبني ذلك المسلك بلسانه وقلمه؛ فألقى الخطب في ضوء ذلك الأمل وكتب المقالات بغية تحقيقه، وظهر ذلك أيضاً في مؤلفاته ولاسيما في السنوحات، واللمعات وغيرهما مما ألّفه في تلك المرحلة، وكان لا يتوانى في التصريح أن أعظم صوت مدوٍ في المستقبل هو صوت القرآن العظيم.''[22]

- مهاجمة العلماء المخالفين:

يتوقّف أنصار العمل السلبي كثيرا عند نقد المخالفين دون نظر في المضاعفات الثانوية لتلك الهجمات، إذ قد نهيّئهم بتلك التصرفات للانخراط في سلك المناوئين لأصالة الأمة وميراثها.

سعى الأستاذ إلى بيان عدم جدوى هذا المسلك، فأكّد على ضرورة تجاوز مسلك البحث النظري المجرّد؛ إذ بيّن بأحواله قبل مقاله أنّ الميل إليه صرف للطاقات في غير أبوابها، يشهد لهذه المعاني قوله: ''إخواني! لا تهاجموا بعض العلماء الذين ظنوا بعض إلجاءات العصر ضرورة، وركنوا إلى البدع. لا تصادموا هؤلاء المساكين الذين ظنوا الأمر ضرورة، بدون علم وعملوا وفقها... فلا تتحرشوا بهم وإنْ كان المعارضون لنا من العلماء الأئمة.''

ويضرب النورسي أروع أمثلة العزوف عن مهاجمة أمثال أولئك العلماء، فقد كانت مواقفه تنبجس منها ثقافة العمل الإيجابي، وفي هذه المعاني قال:

''إنني قد تحملت وحدي المعارضات كافة، ولم أفتر مقدار ذرة قط. ووفّقت في تلك الخدمة الإيمانية بإذن الله. فالآن رغم وجود ملايين من طلبة النور، فإنني أسعى بالعمل الإيجابي وأتحمّل جميع مظالمهم وإهاناتهم وإثاراتهم.''

ويؤكّد ذلك المعنى في قوله: ''إنّنا لا نلتفت إلى الدنيا، فإذا ما نظرنا إليها فنحن لا نسعى سوى معاونتهم فيها. فنحن نعاونهم في تأمين الأمن بشكل إيجابي. وبسبب هذه الحقائق وأمثالها نحن نسامحهم حتى لو عاملونا بالظلم.''

- الاستجابة لضغوط الزمان:

المتلبّس بالعمل السلبي تقرن أفعاله في الغالب بمحاولات تكييف الموروث الثقافي والحضاري برغبات الغالب المحلي أو الدولي الوقتي الراهن، ويصل أحيانا الرغبة في التكيّف مع رغبة الغازي؛ فمن ذلك الفهم الخاطئ لقاعدة الضرورات تبيح المحظورات، من ذلك ما حكاه النورسي عن بعضهم، وخاصة في قولهم: ''نحن الآن مضطرون. أي أننا مضطرون في تقليد بعض الأصول الأوروبية وموجبات المدنية حسب القاعدة المعروفة: إنّ الضرورات تبيح المحظورات.'' فقال الأستاذ مخاطبا تلك الزمرة من المعجبين المخطئين في تقدير الضرورات: ''إنّكم منخدعون تماماً؛

لأنّ الضرورة النابعة من سوء الاختيار لا تبيح المحظورات. فلا يجعل الحرام بمثابة الحلال. بينما إن لم تنبع من سوء الاختيار، أي إن لم تأت الضرورة عن طريق الحرام فلا ضير.''

ويزيد الأستاذ المسألة وضوحا بسوق الأمثلة، فقال: ''مثلاً: إذا سكر شخص بسوء اختياره بشربه الحرام، ثم اقترف جريمة وهو سكران، فإنّ الحكم يجري عليه ولا يكون بريئاً بل يعاقب. ولكن إذا قام طفل مختل العقل بقتل شخص ما -وهو في حالة الاختلال- فهو معذور ولا يعاقب. لأنه لم يقترف الجريمة بإرادته. وهكذا قلت للقواد والأئمة: أي الأمور تُعد ضرورية مما سوى الأكل والعيش؟. فالأعمال النابعة من سوء الاختيار والميول غير المشروعة لا تكون عذراً لجعل الحرام حلالاً.''[23]

و- تضييع الحرية:

التركيز على تبني العمل السلبي يجلب التضييق على التصرّفات، ذلك أنّ الحكام أو من يقوم مقامهم يضيقون ذرعا بالعمل السلبي، بل سيكون العمل السلبي سببا في التضييق على العمل الإيجابي النابع من مصادر أخرى، فينال المجيد عقوبة بجريرة المقصّر، ولا يبعد هذا الخطر بغير المرافعة عن الحرية التي تخدم العمل الإيجابي، بل لا يمكن تصوّر عمل إيجابي في غير جو الحرية، لهذا رافع الأستاذ عن الحرية[24] من منطلق التأسيس للعمل الإيجابي والمحافظة عليه؛ فدعا إلى وضع قوانين أساسية تصونها من العابثين والوصوليين والانتهازيين، وتكون تلك القوانين مصونة بالشريعة الغراء، فالعمل على تكوين وعي بضرورة الحرية لا يختلف من حيث القيمة والتأثير عن العمل الإيجابي المؤسس للصحوة نفسها، إذ الخلوص إلى الصحوة يمرّ ضرورة عبر الحرية.

كما تجلى العمل على تأسيس صحوة إسلامية راشدة بإعادة الأمور إلى نصابها، فيعود الإيمان إلى مركزه في صناعة الوعي بالحياة ويكوّن دافع العمل على الخير الإنساني العام، وطريق ذلك إنقاذ الإيمان، وبهذا يكون من أهمّ متطلّبات تحصيل صحوة إنقاذ الإيمان والاعتصام بالقرآن الكريم.

إلاّ أنّ فعالية هذا المسعى تفرض سعيا مستمرا للتحقّق بالجهاد المعنوي وتحقيقه على مستوى الأحوال قبل الأقوال، لهذا يجب التحلي بمقتضيات الجهاد المعنوي.

النتائج المباشرة لتغليب العمل السلبي على العمل الإيجابي:

١ – الغفلة عن إنقاذ الإيمان وعن الاعتصام بالقرآن:

اعتبر الأستاذ رحمه الله أهم قضية في الوقت الحاضر إنقاذ الإيمان وتقويته بالاعتصام بالقرآن الكريم، وفي ذلك أقصر طرق صد الإلحاد، وحصر الأستاذ نظره في هذا المقصد، ذلك أنّ حماية الإيمان وإنقاذه حماية للأمة في ماضيها وحاضرها ومستقبلها، لهذا فالمرافعة مطلوبة حتى بمنظور وطني، لأنّها وطنية صادقة، ترمي إلى حماية البلاد والعباد من الوقوع في مخالب الأمراض القاتلة كالكفر والإلحاد الذين هم أخطر من طاعون والسل.

وقد كانت تلك المساعي سببا في تكالب أعداء الوطن والدين من الملحدين؛ فاختلقوا الافتراءات الظالمة والإشاعات المغرضة، وبالرغم من ذلك بقي الأستاذ صلبا شامخا صابرا، يجابه كل ذلك بثقة المؤمن بالله، ومردّ ذلك التحمّل، الإيمان، ذلك المقصد الذي عمل على إنقاذه، فقد كان الإيمان مصدر العمل الإيجابي البناء ومرجعه، وهو المصدر الوحيد والرئيس لتلك الإيجابية.

ويرجع تركيز الأستاذ على عامل الإيمان الفاعل لأنّه أقوى من صولجان السياسة، ويمثّل برنامجا مكثّفا يسع الحياة كلّها، إذ لو كانت لنا مائة من الأيدي لما كفت في حمل النور المنبعث من الإيمان، ذلك الإيمان الذي كان وسيبقى أساس مسلكنا الحاثّ على الإخلاص وابتغاء مرضاة الله وحده، وهذا هو مصدر قوة النور. فالعناية الإلهية تحمي خدمتنا ما دمنا مخلصين نعمل عملاً إيجابياً بناءً.[25]

– أهداف إنقاذ الإيمان:

أ– المصالحة بين المدرستين الدينية والحديثة:

المسلك المؤسس على الإيمان كمقصد رئيس في تطعيم الأمّة ضد أمراض الإلحاد مدرسة تُصالح بين أهل المدرستين الدينية والحديثة وأهل الزوايا والتكايا وتجعلهم يتّحدون في خدمة ذلك المقصد، ذلك أنّ الإيمان يحدث بينهم الميل عن التنازع ثم الميل إلى تبادل الأفكار[26] المؤسس للتثاقف الإيجابي.

ب– أقصر طرق الفعالية:

يعتبر بديع الزمان رسائل النور من أهم وأقصر طرق تحقيق مقصد إنقاذ الإيمان

وتحقيق الفعالية المنشودة المؤسسة للإيجابية المطلوبة، ذلك أنّها تطبيق عملي للأساس النظري الذي حقق القول فيه، فالعالية تسترد باستعادة الصورة الشاملة للدين، تلك الصورة المؤسسة على الطهارة في كلّ شيء طهارة القلب والعقل والبدن والأعضاء والمكان.

ج – مصدر قيم الخير وصد الشر:

الإيمان مصدر قيم الخير وحائط صدّ الشر من ولوج القلوب والعقول؛ فهو الدافع إلى الشكر والعبادة اللتين تعتبران مدار المقاصد الإلهية في بناء تعمير الكون ولا سيما الإنسان الذي هو أفضل عنصر في الكون وأفضل المخلوقات إزاء النعم التي جعلت له، يمثّل الإيمان مدار الاستفادة من الكون وعناصره المادية والمعنوية،[27] ذلك المقصد الذي يعدّ بمثابة محرّك سائر المقاصد ولبّ لبابها.

د – أساس التواصل الإسلامي والإنساني:

الإيمان يؤسس للتواصل بين المؤمنين من جهة وسائر مكوّنات الأسرة الإنسانية من جهة أخرى؛ ذلك أنّه رابطة قوية في التأسيس المعنوي لأسمى جمعية وأقدسها في الوقت الماضي والحاضر والمستقبل، هي جمعية الجنود المؤمنين. فجميع الذين انخرطوا في سلك الجندية المؤمنة المضحية ابتداءً من الجندي إلى القائد هم داخلون في هذه الجمعية، وتواصل هؤلاء مع سائر أفراد الأسرة الإنسانية مبناه القيّم المؤسسة للإيمان، تلك القيم التي يرى من خلالها البشر من أسرة واحدة ولا فضل فيها لعربي على أعجمي ولأبيض على أسود، وأنّهم خلقوا للتعارف، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾. الحجرات:١٣

هـ :أساس الشكر والعبادة :

أصفى خلاصة مترشحة من الإيمان بجميع مضامينه وأبعاده الوظيفية الشكر والعبادة والحمد والمحبّة، وتعدّ في رسائل النور أهم المقاصد الإلهية في الكون وأهم نتيجة لخلق العالم.[28]

و– التأسيس القلبي والعقلي للشفقة والمحبّة:

تعمل رسائل النور من خلال مقاصدها إلى تجاوز ما شاع تداوله بين البشر من ألفاظ فقدت اجتماعيا معانيها وخاصة مصطلحي المحبّة والشفقة، إذ لا نجد لتلك

المعاني في مزاولتنا الاجتماعية سندا من نقل أو عقل أو قلب، فكان منهج الرسائل مؤسسا للفكرة في أصل وضعها؛ فاستصحبت في وضع الرسائل، بل جعلها من غاياتها الرئيسة تأسيسا وتمحيصا، يشهد لهذه المعاني تأكيد بديع الزمان النورسي أنّ منهج رسائل النور يعبّر عن الشفقة والعدل والحق والحقيقة والضمير ليمنعنا بشدة من الوقوع تحت طائلة الاستجابة للاستفزاز الاجتماعي أو المعرفي من خلال قصر الاهتمام على الأمور الجزئية على حساب الأمور الكلية والأساسية، نحو اختصار الهم في المزاولة السياسية نقدا وتمحيصا بل وحتى تأسيسا.

والقضية بهذا الصدد تحتاج إلى تدقيق، فالمسألة المشار إليها قد تكون قضية خطيرة وكلية لها دور أساسي في تزييف الوعي أو تأخير صناعة وعي، إلاّ أنّها بالنظر إلى المسألة الأم تعتبر جزئية، من ذلك مثلا في ظل الظروف الراهنة مسألة الإلحاد؛ فلو قصرنا المعركة على المبتلين بهذا المرض النفسي والمعرفي؛ فإننا سنخسر أبناءهم وربّما أحفادهم، لهذا يؤكّد الأستاذ على أنّ وراء كل فرد من أولئك المبتلين بالإلحاد -واستحقوا بذلك العقاب- عدداً من الأطفال والمرضى والشيوخ الأبرياء. فإذا نزل بأحد أولئك المبتلين المستحقين للعقاب كارثة أو مصيبة، فإن أولئك الأبرياء أيضا سيحترقون بنارهم دون ذنب جنوه. وكذا لأن حصول النتيجة المرجوة أمر مشكوك فيه، لذا فقد مُنعنا بشدة[29] عن الاهتمام بالمسائل الجزئية على حساب معركة المصير المعبّر عنها بقضية حماية المكاسب الإيمانية والتأسيس لبقائها في المجتمع دون الدخول في معركة قد تعرّض البلاد والعباد إلى ما تحمد عقباه، لهذا يلحّ النورسي على التحليل الذي بموجبه نقدّر الأولويات، وأولوية الأولويات حسب تقديره حماية الإيمان بتثبيته وإثباته إن اقتضى الحال، وفي ذلك أبين جواب وأحسنه على الإلحاد عوض الدخول في مهاترات تعرّض طاقات الأمة إلى الضياع أو على الأقل تسهم في صرفها في غير أبوابها.

ح- إنقاذ الإيمان يعطي الحياة معنى:

إنقاذ الإيمان يعطي معنى إيجابيا لكل يوم من أيام العمر التي تمضي في السجن الكبير (الدنيا) أو السجن الصغير المعروف، فيمكن أن يُكسِب المرء ثواب عبادة عشرة أيام من عبادة يوم واحد، ويمكن أن يحوّل ساعاته الفانية - من حيث النتيجة - إلى ساعات باقية خالدة.. بل يمكن أن يكون قضاء بضع سنين في السجن وسيلة نجاة من سجن أبدي لملايين السنين.[30]

يحلّي الإيمان المنقذ الحياة بالرحمة وبذلك تكسب الحياةُ معنى وتشدّ إليها القلوب والعقول بما يخدم تعبيدها لله تعالى؛ فالرحمة وفق ضبط الشرع لها من أدلة القيامة والسعادة الأبدية؛ لأن الرحمة إنما تكون رحمةً، والنعمة نعمةً إذا جاءت القيامة وحصلت السعادة الأبدية. وإلاّ فالعقلُ الذي هو من أعظم النِعَم يكون مصيبةً على الإنسان، والمحبة والشفقة اللتان هما من ألطف أنواع الرحمة تتحولان ألماً شديداً بملاحظة الفراق الأبدي.[31]

ط ـ إنقاذ الإنسان والاستجابة لحاجاته:

ترمي المقاصد الكلية والجزئية إلى إنقاذ الإنسان، فتستجيب تلك المقاصد لحاجاته، إذ لا يمكن تصوّر عدم استجابة العدالة والحكمة الربانيتين لتلك الحاجة العظمى، حاجة البقاء لأسمى مخلوق وهو الإنسان في حين أنهما تستجيبان لأدنى حاجة لأضعف مخلوق، فهل من الممكن أن تردّا أهم ما يرجوه الإنسان وأعظم ما يتمناه، وألاّ تصونا حشمة الربوبية وتتخلفا عن الإجابة لحقوق العباد؟[32]

وبذلك تعطي للحياة البشرية معنى وتزوّدها بالعناصر الإنسانية في التصرّفات والمقاصد والأهداف المتعلّقة بالحياة الدنيوية نفسها.

ي- تجاوز الهلاك:

إنقاذ الإيمان يؤسس لحائط صدّ معرفي واجتماعي و...فيؤسس للتطعيم المعرفي والحضاري المانع من هيمنة الفكر المهلك، والمؤسس لتجاوز هذا النمط من التفكير المهلك فضلا عن منع المبتلى بذلك من إهلاك نفسه، لهذا ينصح الأستاذ وبإلحاح بالتعلّق بالدين والعض عليه بالنواجذ فهو حامينا من الهلاك الدنيوي والأخروي، لهذا قال النورسي ناصحا:

''أيها المسلم لا ترخِ يدك عن الإسلام الذي هو حامي وجودنا وكياننا تجاه الدمار الذي تولّده هذه النتيجة المخيفة لتقدم أوروبا، بل عض عليه بالنواجذ واستعصم به بقوة، وإلاّ فمصيرك الهلاك.''[33]

س- تليين القلوب:

ترمي مقاصد رسائل النور إلى تثبيت القلوب وتنشيط عزائم الأتقياء والصالحين وتشدّ على أيديهم؛ فتزوّدهم بالقيم والأصول الميسّرة لتحقيق ذلك الأمر بيسر ووضوح، بل تتجاوز ذلك إلى خدمة كل من دخلها محررا من أفكار مسبقة؛ وهو سرّ

فشل أعداء رسائل النور المتسترين في تحمّل تلك الفتوحات النورية، فنبّهوا المسؤولين في الدولة ضد أهل الرسائل، وأثاروهم عليهم، فأصبحت الحياة - مرة أخرى - ثقيلة مضجرة، إلاّ أنّ العناية الإلهية تجلّت على حين غرة، حيث إن المسؤولين أنفسهم - وهم أحوج الناس إلى رسائل النور - بدأوا فعلاً بقراءة الرسائل المصادرة بشوق واهتمام، وذلك بحكم وظيفتهم. واستطاعت تلك الرسائل بفضل الله أن تليّن قلوبَهم وتجعلها تجنح إلى جانبها. فتوسعت بذلك دائرة مدارس النور، حيث إنهم بدأوا بتقديرها والإعجاب بها بدلاً من جرحها ونقدها. فأكسبتهم هذه النتيجة منافع جمة، إذ هي خير مائة مرة ممّا هم فيه من الأضرار المادية، وأذهبت ما عانوه من اضطراب وقلق. ولكن ما إن مرّت فترة وجيزة، حتى حوّل المنافقون -وهم الأعداء المتسترون- نظر الحكومة إلى شخصي أنا، ونبّهوا أذهانها إلى حياتي السياسية السابقة، فأثاروا الأوهام والشكوك، وبثوا المخاوف من حولي في صفوف دوائر العدل والمعارف (التربية) والأمن ووزارة الداخلية. ومما وسّع تلك المخاوف لديهم ما يجري من المشاحنات بين الأحزاب السياسية، وما أثاره الفوضويون والإرهابيون - وهم واجهة الشيوعيين- حتى أن الحكومة قامت إثر ذلك بحملة توقيف وتضييق شديد على الأستاذ النورسي وتلاميذه، وبمصادرة ما تمكنت من الحصول عليه من الرسائل، فتوقف نشاط طلاب النور وفعالياتهم.[34]

٢- تضييع وظيفة الخدمة :

تضييع وظيفة الخدمة الإيمانية غفلة ظاهرة عن مقتضيات الجهاد المعنوي كالتغافل عن التكليف والانشغال بالبحث النظري الذي لم تكلّف به، ومن ذلك البعد عن العمل الإيجابي البنّاء وتمثّل العمل الهدّام.

يؤكّد النورسي أنّ وظيفتنا الخدمة فحسب. بينما النتيجة تعود إلى رب العالمين، وأنّنا مكلّفون ومرغمون في الإيفاء بوظيفتنا. وبهذا الصدد يردد الأستاذ قول جلال الدين خوارزم شاه: ''إنّ وظيفتي الخدمة الإيمانية، أمّا النصر أو الهزيمة فمن الله سبحانه. وإنّني قد تلقيت درس التقلد بالإخلاص التام من القرآن الكريم.'' [35]

ييسّر إنقاذ الإيمان تحرير مجال الفعل الإنساني بدقة متناهية، فتجلي تلك الحقيقة المنقذة مساحة الفعل، وتؤسس للعمل في المساحات المتاحة فعلا والابتعاد عن المساحات غير المطلوبة أو الممنوعة، والقيام بوظيفة الخدمة انسجاما مع العناصر

الكونية في شقيها المادي والمعنوي، ذلك أنّ بين العناصر الكونية تكاملا يستغرق الجميع؛ فقد أعطى القدير الجليل كلَّ عنصرٍ من العناصر وظائف كثيرة، ويُنشئ على كلٍ من تلك الوظائف نتائج كثيرة.[36]

– خدمة الإيمان:

تتميّز رسائل النور بإكساب قرائها علما بطريقة مبتكرة أصيلة في تحصيل الحقيقة؛ ذلك أن كلّ تحصيل علمي آخر تكون الغاية من الاستمرار فيه هي المنفعة المادية أو الحصول على موقع ما. بمعنى أنّ الدوام لهذه الدروس لا تكون عن رغبة بل في الغالب للحصول على منافع مادية أو على شهرة. أما رسائل النور فتشبه جامعة حرة مفتوحة، والذين يداومون في هذه الجامعة بقراءة رسائل النور لا يبتغون أي هدف دنيوي بل يبتغون خدمة الإيمان والقرآن فقط لا غير.[37]

خدمة الإيمان تيسّر للإنسان تذكّر الغايات والمقاصد لأنّ الإنسان مبتلىً بالنسيان، وأسوأ النسيان نسيانَ نفسه. إلاّ أنّ نسيان النفس إن كان في المعاملة، والخدمة، والسعي، والتفكّر فهو الضلال. وإن كان في النتائج والغايات فهو الكمال. فأهل الضلال، وأهل الهدى متعاكسان في النسيان والتذكر. أما الضال؛ فينسى نفسه عند النظر للعمل، وتطبيق دساتير الوظيفة، بل يمدّ نظرَه إلى الآفاق لتطمين الأنانية المتفرعنة، وغرورَه المنبسط الذي تضيق عنه النفس. لكن يتذكر نفسه في كل شيء من الغايات فتيلاً أو نقيراً. حتى لا غاية عنده، إلاّ ما يعود إلى نفسه. وأنّ غاية الغايات في نظره، حب ذاته.[38]

ومن مظاهر خدمة الإيمان جعل الهدف المباشر لرسائل النور هو الآخرة، ولا علاقة له بالدنيا إلا بقدر ما ييسّر له العمل على تحقيق مقصد الآخرة، يشهد لهذا قول الأستاذ: ''إنّ رسائل النور لا تستهدف الدنيا، بل تستهدف السعادة الأخروية الدائمة وتستهدف نيل رضى الله الباقي الأزلي الرحيم ذي الجلال الذي لا يشكّل الحسن والجمال في الدنيا إلاّ ظلاً خافتاً لجماله ولا تشكّل لطائف الجنة جميعاً إلاّ لمعة من محبته سبحانه. فما دام مثل هذا الهدف الإلهي المقدّس ومثل هذا الهدف السامي موجوداً، فإنني أبرئ رسائل النور وأنزهها ألف مرة من الوقوع في أمور سفلية ومحرمة تؤدي إلى نتيجة كتحريض الناس ضد الحكومة. ونحن نلوذ بحمى الله تعالى من شرور هؤلاء الذين لا يريدون منا أن نتعلم أمور ديننا ولا أن نخدم إيماننا فيفترون علينا مثل هذه الافتراءات لكي يقضوا علينا.[39]

– نيل مرضاة الله:

يحقق السعي إلى الخدمة الإيمانية التهيّؤ لنيل رضا الله سبحانه وتعالى، لأنّ الله هيّأ لنا فرصة اكتساب محبّة الملايين من أهل الحقيقة ودعاءهم وشفاعتهم. وأنّ الحقيقة السامية المسماة بـ ''رسائل النور'' أمامكم. فهل المراتب والمقامات الدنيوية الفانية والسفلية هي غايتها؟ أم أنّ غايتها هي نيل رضى الله تعالى الذي هو السعادة العظمى والفرحة الكبرى والهناء التي ما بعدها هناء؟

أو تحفز كلماتها الإنسان إلى الأخلاق الرديئة والهابطة أم تجهزهم بالإيمان وتجملهم بالفضيلة وبالأخلاق السامية؟ أنتم تجدون رسائل النور أمامكم وهي منبثقة من الإعجاز المعنوي للقرآن المبين الذي هو نور إلهي. فما دام اكتساب الإيمان، والانتقال بهذا الإيمان في الدنيا إلى سعادة الدار الآخرة أهم غاية للإنسان، ومادامت رسائل النور تقدم -بفيض من القرآن- الحقائق الإيمانية وتقرب مئات الآلاف من قرائها ومستنسخيها إلى هذا الهدف، إنّ طلاب النور لا يسعون إلا لنيل رضى الله تعالى وانّه لا هدف لهم سواه.[40]

– بعث الصلة بين الإيمان والأخلاق:

شاع في أدبياتنا الانفصال النكد بين الأخلاق والإيمان، حتى صارت الصلة بينهما مفقودة؛ فتجد الرجل يدندن بكلمات إيمانية لا صلة لها بحياته الشخصية أو الاجتماعية، كأن يكون لسانه لاهجا بذكر الله ولكن عقله وسلوكه في أبعد ما تكون عن تلك المعاني المردّدة باللسان، وقد ظهرت رسائل النور من أجل تجاوز ذلك الانفصال بالتأسيس للتواصل بينهما؛ فجعلت الهدف الوحيد والخدمة الوحيدة لرسائل النور والأستاذ وطلبة النور هي إيفاء خدمة مقدسة للإسلام ولاسيما إيفاء خدمة مقدسة للأمة المسلمة من ناحية الإيمان والأخلاق...، وأنّ إيفاءنا هذه الوظائف هو في سبيل الحصول على رضى الله تعالى...[41] بل نعمل على الاشتغال بالحقائق الإيمانية وحدها[42] وربطها بالأخلاق، إذ لا معنى لإيمان مفصول عن الأخلاق.

– الأخوة والمحبّة والتضحية:

رسائل النور سعي إلى تحصيل المحبّة والأخوة والتضحية وصورة عملية لتمثّلها، وبهذا تيسّرت لها فرصة تبليغها، ذلك أنّها عملت على التأسيس العملي لجمعية الجنود المؤمنين، وتشمل في عضويتها جميع الذين انخرطوا في سلك الجندية المؤمنة

المضحية ابتداءً من الجندي إلى القائد كلهم داخلون في هذه الجمعية. والذي يعد من أقدس أهدافها الاتحاد والاخوة والطاعة والمحبة وإعلاء كلمة الله يمثّل جنود تلك الجمعية مراكزها، لهذا ينصح الأستاذ بالسعي إلى الانتساب إليهم، لأنّ صفّهم الأول المجاهدون والشهداء والعلماء والمرشدون.[43]

– الاتّحاد بين أهل الإيمان:

صرّح بديع الزمان في أكثر من موضع وبأسلوب صريح -كما هي عادته- أنّ من أهم غايات ومقاصد رسائل النور العمل على توحيد كلمة المؤمنين، ولمّ شملهم لخدمة هدف واحد مؤدّاه خدمة الإيمان نفسه، وطريقه التأسيس العملي للوحدة الشعورية بين المؤمنين أنفسهم؛ فلا يصح أن يبقى المؤمنون مشتتين في أهدافهم وجهودهم، ولهذا المسعى أثر عظيم في استئصال مرض خطير معبّر عنه بقولهم: ''مالي وما عليّ فليفكر غيري''، يشهد لهذه المعاني قوله رحمه الله:

''إنّ قصدنا وهدفنا هو اتحاد الجماعات الدينية في الهدف. إذ كما لا يمكن الاتحاد في المسالك والمشارب فلا يجوز أيضاً، لأن التقليد يشق طريقه ويؤدي إلى القول: ''مالي وما عليّ فليفكر غيري''.[44]

- دفع الأمراض الاجتماعية بالإيمان:

يدفع الإيمان كثيرا من الأمراض الاجتماعية الفتّاكة، منها على سبيل المثال لا الحصر، مرض الحرص الذي يعدّ من رؤوس البلايا الأخلاقية والاجتماعية، ذلك أنّه كان وسيبقى سببا في تضييع كنز العيش الهنيء الرغيد ومبعث الراحة في الحياة المنبعث من القناعة، ومن هنا كان الحرص علّة الخيبة ومعدن الخسران والسفالة كما يتبين ذلك من الحكمة ''القناعة كنز لا يفنى'' المستفادة من السنة المطهّرة من نحو ما أخرجه البخاري قال النبي عليه الصلاة والسلام: ''لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ''، ذلك أنّ الحرص يتلف الإخلاص ويفسد العمل الأخروي؛ لأنّه لو وُجد حرص في مؤمن تقي لرغب في توجه الناس وإقبالهم عليه، ومن يرقب توجه الناس وينتظره لا يبلغ الإخلاص التام قطعاً ولا يمكنه الحصول عليه. فهذه النتيجة ذات أهمية عظمى جديرة بالدقة والملاحظة.[45]

تصون الدفعة الإيمانية من الحسد والمنافسة غير الشريفة، ذلك أنّ من مقتضيات الإيمان أن يتحرر المؤمن من تلك الأمراض، إذ ليس في أمور ديننا أمثال هذه

الأمراض، ويرجع منشأ تلك الأسقام إلى تجاوز أو غفلة عن الأبعاد الوظيفية للإيمان، وما يترتّب عنها من تهالك على الشهوات وما ينجرّ عنها من مناقشات وتسابق ثم تزاحم ينتهي بأصحابه إلى الحسد. ولما كانت الدنيا ضيقة ومؤقتة ولا تشبع رغبات الإنسان ومطالبه الكثيرة، وحيث إنّ المتهالكين على الدنيا كثر يتزاحمون على شيء واحد، فالنتيجة إذن السقوط في هاوية الحسد والمنافسة.

ويدفع خطر تلك الأسقام بالتعلّق بالإيمان ومقتضياته وخاصة التفكير العملي في الآخرة وما أعدّ الله فيها للمؤمنين، إنّها فسيحة، بحيث يكون لكلّ مؤمن جنة عرضها السماوات والأرض تمتدّ إلى مسافة خمسمائة سنة، ولكل منهم سبعون ألفاً من الحور والقصور، فلا موجب هناك إذن إلى الحسد والمنافسة قط، فيدلّنا هذا على أنّه لا حسد ولا مشاحنة في أعمال صالحة تفضي إلى الآخرة، أي لا مجال للمنافسة والتحاسد فيها، فمَن تحاسد فهو لاشك مراء أي أنّه يتحرى مغانم دنيوية.[46]

٣- ضياع الإخلاص التام:

يذكر الأستاذ أنّ لهذا العصر مرضاً داهماً. هو الأنانية وحب النفس، واشتهاء قضاء حياة جميلة في ظل مباهج وزخارف المدنية الجذابة وأمثالها من الأمراض المزمنة.

يرى الأستاذ أنّ أوّل درس من دروس رسائل النور الذي تلقاه من القرآن الكريم، هو التخلي عن الأنانية وحب النفس. حتى يتم إنقاذ الإيمان بتقلّد الإخلاص الحقيقي. ولله الحمد والمنّة، فقد برز في الميدان كثيرون ممن بلغوا ذلك الإخلاص الأعظم الحقيقي. فهناك الكثيرون ممن يضحون بأنانيتهم وبمنصبهم وجاههم في سبيل أصغر مسألة إيمانية.

ويرى الأستاذ أنّ الذي يختار الإخلاص التام مسلكا لا بدّ أن يتهيّأ للتضحية والفداء، ولا يحقق ذلك مالم يتجاوز الأنانية.

منح بديع الزمان تجاوز هذا المرض الخطير الأولوية المطلقة، تأسيسا للإخلاص التام الذي من مقتضياته خدمة المسائل الإيمانية، ظهر هذا المسلك في أحلك الظروف وأصعبها.

ويعبّر النورسي عن الالتزام بخط الإخلاص التام بتفضيله مسألة إيمانية عن الدنيا وما فيها، ذكر أنّه لو منحت له سلطنة الدنيا لفضّل عنها مسألة إيمانية واحدة باقية. لذا

فقد فضّل نكتة دقيقة قرآنية في آية واحدة أو في حرف منها في الحرب، وفي الخط الأمامي بين قنابل مدافع الأعداء فأمر طالبه المسمى حبيب: أخرج الدفتر، فأملى عليه تلك النكتة وهو يمتطي صهوة جواده. أي أنّه لم يترك حرفاً واحداً ونكتةً واحدة من القرآن الكريم مقابل قنابل الأعداء بل يفضلها على إنقاذ حياته.[47]

٤- شيوع التخريبات الداخلية:

من المهام التي طلب الأستاذ النورسي مجابهتها التخريبات الداخلية التي تسرّبت إلى صفوف الأمّة، وقد أكّد ذلك بعبارات واضحة، قال الأستاذ: ''في الداخل ينبغي الوقوف أمام التخريبات المعنوية بشكل إيجابي بناّء هدفه الحد من الكفر المطلق لدعوته إلى جهنّم المعنوي''.

سعى الأستاذ رحمه الله إلى تحقيق هذا الهدف النبيل بوصفه سدا أمام خطر داهم متعدد الوجوه والأشكال:

- الكفر المطلق مولّد لجهنّم معنوي.
- الكفر المطلق أب الفوضى.
- الكفر المطلق أصل الإرهاب.
- وسيلة المنافقين والزنادقة للحد من أثر الإيمان في الحياة.[48]

وبيّن النورسي أنّ رسائل النور سد أمام الكفر المطلق والإرهاب في هذا القرن، فقد كان الدرس القرآني واقيا من التيار الجارف للإلحاد الذي استولى على دول كثيرة وأقام سداً أمام هذا الهجوم. وهكذا وُجد حل سليم أمام هذا الخطر الداهم.

ومن أثار تلك التخريبات أنّ المسلّم المتحوّل عن دينه يتحوّل إلى إرهابي، لأنّ المسلم الصميم لا يمكن أن يخرج عن الإسلام ويتنصّر أو يتهود أو يكون بلشفيا... لأن النصراني إذا أسلم فإنّ حبه لعيسى عليه السلام يزداد أكثر. واليهودي كذلك يزداد حبه لموسى عليه السلام بعد دخوله الإسلام''، ثم يزيد المسألة وضوحا فيؤكّد بما لا يدع مجالا للشكل على أنّ تحوّل المسلم عن دينه ليس فيه خير لا لنفسه ولا لمجتمعه ولا لبلده ولا للإنسانية، لأنّ المسلم إذا ارتد وحلّ ربقته من سلسلة الرسول محمد ﷺ وتخلى عن الدين الحنيف فلا يمكن له أن يدخل أي دين آخر بل يكون إرهابياً. ولا يبقى في روحه أي نوع من الكمالات. بل يتفسخ وجدانه، ويكون بمثابة سمّ قاتل للحياة الاجتماعية. [49]

ساهم انتشار رسائل النور بقسط وافر في قطع دابر تلك التخريبات، فكان لها الفضل بعد الله في إنقاذ كثير من أفراد المجتمع -على تنّوع أعراقه- من الكفر والفوضى وساعدتهم على التآخي والوحدة بالرغم من اختلاف الأعراق المكوّنة للأمة، ومساهمتها مازالت حيّة بيننا، إذ تقدّم للإنسانية في العصر الحاضر تعريفا شاملا مجملا بالحقيقة الإسلامية وبذلك تسعف الإنسانية بقارب ينقذها من الإرهاب ويدفعه عنها.[50]

مؤهلات الإسلام في التأسيس للتواصل[51] بين الموالفين في الملة ظاهر، بل يتعداه للتأسيس على العمل الإيجابي طريقا للتواصل مع المخالفين في الملة المشاركين لنا في الانتماء إلى الأسرة الإنسانية، فنحن مسؤولون عنهم أمام الله إن لم نسعفهم بالعمل الإيجابي على استعادتهم فطرهم التي خلقهم الله مزوّدين بها فأجلتهم الشياطين عنها، العمل الإيجابي نأي بأنفسنا عن القيام بوظيفة صرف الناس عن استعادتهم فطرهم في كلّ جوانبها التوحيدية والعقلية والقيم الإنسانية المشتركة، الإسلام الذي هو الحل لمعضلات العالم بحاجة إلى مسلم هو احل وليس مسلما هو المشكلة، والمسلم الذي على يديه يكون الحل هو المسلم المقتنع عقلا والمتحقق قلبا بأهمية العمل الإيجابي في تفعيل دور الناس، جميع الناس، في التأسيس لصناعة حضارة إنسانية راشدة، يتفيّأ في ظلالها الوارفة الموالف والمخالف على السواء.

الخاتمة

يظهر مما سلف بيانه أنّ للعمل الإيجابي أهمية كبيرة في حياة الفرد والجماعة والدولة والأمة، فهو مصدر مهمّ باعث على الاهتمام بالقيمة المضافة المقدّمة للأمة في عالم المعنويات والأفكار والتدبير والتصرفات العامة، يؤسس الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي لتجاوز مرض تغليب العمل السلبي على العمل الإيجابي بحل بسيط واضح وعميق منطلقه بعث العمل الإيجابي والابتعاد عن العمل السلبي، مقتضاه كن إيجابيا بالتصرّف الإيجابي ستدفع العمل السلبي، ومقتضى هذا السعي؛ العمل على إنقاذ الإيمان، وعلى رأس مظاهر هذا المسعى القيام بوظيفة الخدمة الإيمانية، إذ ليس الإيمان مجرّد كلمة تلاك، بل يمثّل برنامجا مكثّفا يسع الأنفاس والحياة في شمولها المادي والمعنوي، الفردي والاجتماعي، العقلي والقلبي...و لا يمكن التحقّق بذلك بغير الإخلاص التام الذي يدفع المتحلّي به إلى تطليق الأنانية ويرشّدها خدمة للصالح

العام للأمّة، وبهذا يكون مستعدا لمقاومة التخريبات المعنوية الذاتية التي تمثّلها الأنانية وداء الفرعونية كمجابه التخريبات الداخلية والخارجية التي يمثّلها الكفر المطلق، وطريق ذلك الاستعداد للتضحية من أجل الآخرة من أجل نيل مرضاة الله سبحانه وتعالى.

رأس بعث ثقافة العمل الإيجابي التساؤل عن قصورك وتقصيرك، قبل الفزع إلى مراقبة قصور وتقصير الآخرين، والذي لا يمكن الخلوص إليه إلا بالتجسس على الآخرين ومراقبة أقوالهم وأحوالهم.

من أراد أن يتغيّر ما حوله، يقال له تغيّر يتغيّر ما حولك من ماديات ومعنويات، تريد أن تعامل بتسامح تسامح، تريد أن تأخذ حقّك قم بواجبك، ولو قام كلّ منّا بواجبه على أكمل وجه ما احتاج أحدنا للمطالبة بحقه، ومجتمع يطالب بالحقوق مع غفلة عن القيام بالواجب يصل به الأمر حدّ الجمود على الأنا، وهو مرض قاتل باعث على مرض ''أنا مالي''، من أراد أن يكون موصولا بالحق والخلق، فليصل الحق بالطاعة والخلق بالخدمة، فسترى نتائج عجيبة، العمل الإيجابي يؤسس على الإقرار بما للآخرين من فضل وفضائل، ومن أقررت له بالفضل والفضائل يقر لك بما لك من فضل وفضائل، وما عندكم من فضل وفضائل بحاجة إلى تفعيل لاكتشاف ما لا تملكون من فضل وفضائل مستودعة عند الآخرين، والتفكير في قومة أمّة يحتاج تدبيرا رأسه الإقرار بحقيقة موضوعية مفادها أنّ القومة الكلية المؤسسة للحضارة بحاجة إلى الكلّ، ولا يمكن إسهام كلّ بحسب طاقاتهم وقدراتهم واستعداداتهم بغير ثقافة العمل الإيجابي المؤسس لتنمية ما نملك من إيجابيات والباعث على استئصال السلبيات، وهذا ليس معرفة عقلية باردة، بل معارف تحققت بها القلوب فترجمتها السواعد خدمة وشفقة وبذلا وابتعادا عن مواطن الشبهة.

* * *

مصادر البحث ومراجعه

- القرآن الكريم
- السنة المطهّرة
- صحيح البخاري
- صحيح مسلم
- رسائل النور، الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي:
- الكلمات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلرللنشر-إسطنبول، الطبعة الثالثة، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م
- المكتوبات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر-إسطنبول، الطبعة الثالثة، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م
- اللمعات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر-إسطنبول، الطبعة الثالثة، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م
- الشعاعات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر-إسطنبول، الطبعة الثالثة، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م
- إشارات الإعجاز، تحقيق وتعليق إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر-إسطنبول، الطبعة الثالثة، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م
- المثنوي العربي النوري، تحقيق وتعليق إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر-إسطنبول، الطبعة الثالثة، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م
- الملاحق، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر-إسطنبول، الطبعة الثالثة، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م
- صيقل الإسلام، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر-إسطنبول، الطبعة الثالثة، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م
- السيرة الذاتية، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر-إسطنبول، الطبعة الثالثة، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م
- جيدل (عمار)
- بديع الزمان النورسي وإثبات الحقائق الإيمانية -المنهج والتطبيق-، دار سوزلر، إسطنبول تركيا. ٢٠٠١م.
- حقيقة مقاصد رسائل النور- استمدادها وامتدادتها- الطبعة الثانية ٢٠٠٩م، دار النيل القاهرة.
- ماهية الإنسان وصلتها بحريته ووظيفته الاجتماعية، دار سوزلر، إسطنبول تركيا، ٢٠٠١
- حوار الحضارات ومؤهلات الإسلام في التأسيس للتواصل الإنساني، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م، دار الحامد، عمان الأردن.
- ملوثات البيئة الفكرية –رؤية إسلامية- مجلة المسلم المعاصر عدد سنة ٢٠٠٤م.

* * *

الهوامش:

[1] كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر١ بن يوسف بن خده.

[2] أشار إلى هذا الداء العضال العلامة زاهد الكوثري رحمه الله.

[3] تتكوّن رسائل النور من تسع مجلدات عناوينها على النحو الآتي: الكلمات، المكتوبات، اللمعات، الشعاعات، إشارت الإعجاز في مظان الإيجاز، المثنوي العربي، الملاحق، صيقل الإسلام، السيرة الذاتية-ترجمة وافية من كلام الأستاذ وتلاميذه- راجع كتابنا بديع الزمان النورسي وإثبات الحقائق الإيمانية –المنهج والتطبيق-

[4] بديع الزمان سعيد النورسي (١٢٩٤هـ-١٣٧٩هـ)(١٨٧٩م -١٩٦٠/٠٣/٢٠م) ألّف رسائل النور لمواجهة الخطر الذي كان يتهدد الإيمان في العصر الحديث، فشغل نفسه بمهمة رئيسة عرفت بـ''***إثبات الحقائق الإيمانية''***.

[5] راجع كتابنا: حقيقة مقاصد رسائل النور-استمدادها وامتدادتها- الطبعة الثانية ٢٠٠٩م، دار النيل القاهرة.

[6] مقاصد الدين في رسائل النور تتلخص فيما يأتي: التوحيد والنبوة والحشر والعدالة ثم العبادة.

[7] وهذا لا يخدش في الإسلام كما هو من حيث كونه دين الله الخاتم.

[8] جزء من حديث أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه: ''عَنْ عَبْدِ اللهِ بْن عَمْرو بْن الْعَاصِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَلَا قَوْلَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِى إِبْرَاهِيمَ (رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِى فَإِنَّهُ مِنِّى) الْآيَةَ وَقَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَام: (إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)، فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ اللَّهُمَّ أُمَّتِى أُمَّتِى وَبَكَى فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَا قَالَ وَهُوَ أَعْلَمُ فَقَالَ اللهُ يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسُوءُكَ. رواه مسلم (٤٦٥/١)

[9] الدرس الأخير حول العمل الإيجابي البنّاء، سيرة ذاتية ص٥٣٢.

[10] تشبه جامعة حرة غير منظمة، والذين يداومون في هذه الجامعة بقراءة رسائل النور لا يبتغون أي هدف دنيوي بل يبتغون خدمة الإيمان والقرآن فقط لا غير.

[11] تعيش عزلة اختيارية

[12] راجع مقالنا: ملوثات البيئة الفكرية –رؤية إسلامية- مجلة المسلم المعاصر عدد سنة ٢٠٠٤م.

[13] انظر سيرة ذاتية، بديع الزمان النورسي، إعداد وترجمة إحسان قاسم الصالحي، ٤٦٩

[14] المصدر نفسه.

[15] المصدر نفسه.

[16] انظر المصدر نفسه

[17] أبيَنُ شاهد على ذلك مقابلته لكثير من الإساءات بإحسان منقطع المثيل، ولعلّ من أبينِ الشواهد على ذلك أنّه لم يدع بسوء على من أذاقه الأمرّين في المحاكمة أو في النفي أو ..

[18] يرجع أساسا إلى سوء عرضهم لبضاعتهم الفكرية والدينية.

[19] انظر السيرة الذاتية ص ٤٧٢

[20] الشعاعات ٣٣٤- بتصرف -

[21] انظر الشعاعات ٣٤٧

[22] سيرة ذاتية ١٨٢

[23] انظر عددا أكبر من الأمثلة، السيرة الذاتية ٤٧١ ..

[24] انظر كتابنا، ماهية الإنسان وصلتها بحريته ووظيفته الاجتماعية.

[25] انظر سيرة ذاتية ٣٦٤

[26] سيرة ذاتية ٥٠٦

[27] انظر المكتوبات ٣٠٨

[28] اللمعات ٥٥٩

[29] انظر الشعاعات ٤٠٦
[30] انظر الشعاعات ٥١٩
[31] انظر الكلمات ٦٩
[32] إشارات الإعجاز ٢٩
[33] انظر صيقل الإسلام ٣٦٧
[34] انظر سيرة الذاتية ٣٨٣
[35] انظر سيرة ذاتية ٤٧٠
[36] انظر الكلمات١٩٧
[37] انظر الشعاعات ٥٩٣
[38] انظر المثنوي العربي ٤٠٦
[39] انظر الشعاعات ٤٢٩، ٦٠١
[40] انظر الشعاعات ٦٠٦
[41] انظر الشعاعات ٦٢٢
[42] انظر الملاحق ٩٤
[43] انظر صيقل الإسلام ٤٤٧، سيرة ذاتية ١٠٧
[44] صيقل الإسلام/الخطبة الشامية ٥٣٦ سيرة ذاتية ٩٩
[45] انظر اللمعات ٢٢٠-٢٢٢
[46] انظر اللمعات ٢٣٧-
[47] انظر السيرة الذاتية، الدرس الأخير.
[48] انظر السيرة الذاتية ٤٧٢-٤٧٣
[49] نفسه.
[50] انظر السيرة الذاتية ٤٧١ - ٤٧٤
[51] راجع كتابنا: حوار الحضارات ومؤهلات الإسلام في التأسيس للتواصل الإنساني، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م، دار الحامد عمان، الأردن.

مسألة الشر والسيئات وعلاقتها بالعدالة الإلهية في الخلق من خلال رسائل النور

طالب الدكتوراه: بن شيه عبد الله[1]

المقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين:

وبعد:

إن مسألة التجديد الديني تشكل لب الشريعة الإسلامية وكمالها، فبواسطته يتحقق معنى صلاحيتها لكل زمان ومكان وبه يكون الاقتدار على الاجتهاد في النوازل والأحكام والعمل على تطوير أسباب الوجود الاجتماعي والاقتصادي والسياسي للمسلمين. والتجديد في الدين لذلك ليس مطلوبا شرعاً فحسب، بل إن الله تعالى ضامنه والمبشر به على لسان نبيه محمد عليه صلوات الله وسلامه وذلك بموجب الحديث النبوي الصحيح الذي يقضي بأن الله يبعث للأمة الإسلامية على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها والله تعالى رفع العلماء إلى أعلى المراتب البشرية التي يكون المرء بها في حال التقوى والخشية إذ قال تعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾فاطر:٢٨ ونبينا، عليه أفضل الصلوات والتسليم، أخبرنا أن مداد العلماء يفضل دماء الشهداء حين تعرض الأعمال على خالق النفوس ومدبر الأكوان.

وقد حفل القرن الرابع عشر الهجري بثلة من العلماء الكبار الذين ارتقى بهم علمهم وعملهم إلى الدرجة التي استحقوا أن ينعتوا فيها بنعت المجددين في الدين، وكذلك كان الشأن عند الصفوة المختارة والمعلومة من علماء الإسلام في الهند وأفغانستان وباكستان وإيران وتركيا، وفي مصر والشام وتونس والمغرب وغيرها من بلدان العالم العربي أمثال جمال الدين الأفغاني، ومحمد إقبال ومحمد عبده، والآلوسي، والثعالبي،

وابن باديس والعلوي ابن العربي، والعلوي ابن احمد وعلال الفاسي وأمثال هؤلاء، والحق هم كثيرون.

ومن بين هؤلاء الأعلام الكبار الإمام سعيد النورسي ابن زمنه البار، استوعب الأفكار، واستخلص.

العبر، وتعمق في فهم المأساة، وعرف طرق الإفساد، واطّلع على أسباب التمزق والفرقة، وراقب مسرحية الانتقال الخبيث من المنظومة الإسلامية إلى المنظومة الغربية اليهودية الصليبية الإلحادية، مع تفهم حقيقة المرحلة، وطبيعة المؤامرة، وتطور الأحداث في تركيا والعالم الإسلامي برمته.

فكان ذلك المجدّد الذي عبّر عن عصره، تعبيرا شموليا متوازنا ابتداء بنمط شخصيته، وانتهاء بالمخطط المتكامل الذكي في الوسيلة والغاية التي اتبعها، من خلال مادته المعرفية العلمية الغزيرة، لإحداث هزة عنيفة عميقة في كينونة الإنسان مسلما أو غير مسلم، في عقله وقلبه وروحه ونفسه.

ولهذا سأحاول أن أتحدث عن"مسألة الشر والسيئات وعلاقته بالعدل الإلاهي من خلال رسائل النور".

فقسمت البحث إلى مقدمة وخاتمة وأربعة مباحث مهمة وهي مشكلة الشر، منبع الشرور، الحكمة من خلق الشر وختاما مشكلة الشر والسيئات وعلاقته بالعدل الإلهي في خلق الكون.

المبحث الأول: مشكلة الشر

منذ العصور القديمة مثل وجود الشرّ في العالم مشكلة نظريّة محيّرة، وقامت محاولات عدّة لتفسيره والبحث عن مبرّر معقول لوجوده، والمشكلة هي ما نسعى إلى حلّه، وليس يحلّ بجواب عن سؤال واحد بسيط بل بالجواب عن أسئلة مرتبة، كلما أجبنا عن سؤال اعترضنا آخر حتى نبلغ الغاية التي هي حل العقدة.

المشكلة هي: كيف يصدر الشر عما هو خير مطلق؟ سؤال مركب فالجواب عنه لابد من أن يسبقه الجواب مثلا عمَّ هو الشر؟ لا يمكن حل المشكلة دون الانطلاق من مسلّمة، والمسلّمة هنا هي أن للكون موجداً أوجده وهو متصف بالخيرية المطلقة. ماذا لو كانت المسلّمة غير هذه وهي أن للكون موجدين اثنين لا موجداً واحداً أو أن الكون لا موجد له أو أن موجده متصف بالشر المطلق أو غير هذا من المسلّمات التي يمكن التسليم بها.

لاشك أن الشر سيتبع ما توجه به المسلم أول الأمر، وفي مسلمة الفلسفة الإسلامية ما ينبئ أن الشر المنتشر في الكون لن يعد شراً في الحقيقة.

الشر ليس شرا، وحتى إن كان شراً فبالعرض وهو في كل الأحوال غير مقصود إليه من الخير بالذات وسنرى كيف ذلك.

ويختلف الإسلام بوضوح عن كل الديانات الوضعية، بل ويختلف عن اليهودية والمسيحية التاريخيتين في تفسير وجود الشر في العالم، وفي النظر إلى الشيطان من حيث طبيعته ودوره، وكيفية التغلب عليه، فضلا عن وجود عناصر أخرى في الإسلام غير الشيطان لتفسير الشر في العالم. وقد استطاع هذا الدين أن يتخلص من أساطير القدماء ومن أوهام البشر ومن مغالطات بعض الفلاسفة المتأثرين بالديانات الوضعية أو المحرفة.

فالشر موجود من أجل إمكان الحرية الإنسانية؛ لأنه يمتنع القول إن الإنسان حر إذا كان مجبولاً على الخير فقط. ولا يكتسب فعل الخير ميزته إلا إذا كان فعل الشر ممكن الحدوث. ومن هنا يمكن القول بأن الإسلام لا يقول بطبيعة شريرة في الإنسان، وإنما إمكانية للشر وللخير، موجودة في الإنسان كأساس ضروري للحرية، فإمكانية الشر والخير هي التي تجعل الحرية ممكنة، والشر ليس محركه الشيطان فقط، بل النفس أيضًا عندها القابلية؛ يقول تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا. قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾.الشمس:٧-١٠ فلا يتصور المرء إرادة حرة دون أن يكون لديها إمكانية فعل الخير وإمكانية فعل الشر.

ولهذا يرى النورسي أن منشأ جميع أشكال الخلط والالتباس في مسألة الشرور، تظهر بسبب عدم إدراك الذين يقعون في هذا الالتباس لطبيعة العلاقة بين الشر والخير.

فهؤلاء يتوهمون أن وجود الشرور والمصائب والشيطان وغيرها من البلايا التي تصيب الموجود، يقدح في عدالة واجب الوجود. وهذا وهم يتجافى عن الحقيقة؛ فإن الشرور نسبية إضافية، وليست حقيقية، وتنطوي على خير كثير. ''إن خلق الشرور والأضرار والبلايا والشياطين، ليس شرا ولا قبيحا؛ لأن هذه الأمور خلقت للحصول على نتائج مهمة كثيرة جدا''.[2]

وقوله أيضا: ''إن شرا قليلا يقبل به للحصول على خير كثير؛ إذ لو ترك شر ينتج خيرا كثيرا للحيلولة دون حصول ذلك الشر القليل، لحصل عندئذ شر كثير''.[3] ويوضح النورسي هذا بمثال وهو: أن قطع الأصبع التي أصابها الغرغرينا فيه خير وهو حسن،

بينما يبدو ذلك القطع في الظاهر شرا، ولكن لو لم تقطع تلك الأصبع لقطعت اليد، فيحصل آنذاك شر أكبر.

ولم يكن العلامة النورسي متفردا فيما ذهب إليه؛ فإن كلمات الثقات، والعلماء الأثبات تعضد هذا المعنى وتؤيده. وحسبنا من ذلك ما صرح به حجة الإسلام الغزالي في كتابه ''المقصد الأسنى'' حيث أورد كلاما جيدا وهو: ''والرحيم يريد الخير للمرحوم لا محالة، وليس في وجود شر إلا وفي ضمنه خير، لو رفع ذلك الشر لبطل الخير الذي في ضمنه، وحصل ببطلانه شر أعظم من الشر الذي يتضمنه؛ فاليد المتآكلة قطعها شر في الظاهر، وفي ضمنها خير جزيل، وهو سلامة البدن، ولو ترك قطع اليد لحصل هلاك البدن، ولكان الشر أعظم. وقطع اليد لأجل سلامة البدن شر في ضمنه خير، ولكن المراد الأول السابق إلى نظر القاطع: السلامة التي هي خير محض.

ثم لما كان السبيل قطع اليد لأجله، وكانت السلامة مطلوبة لذاتها أولا، والقطع مطلوب لغيره ثانيا لا لذاته، فهما داخلان تحت الإرادة، ولكن أحدهما مراد لذاته والآخر مراد لغيره، والمراد لذاته قبل المراد لغيره، ولأجله قال النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه: ''رحمتي سبقت غضبي'' فغضبه إرادته للشر، والشر بإرادته، ورحمته إرادته للخير، والخير بإرادته، ولكن أراد الخير للخير نفسه، وأراد الشر لا لذاته ولكن لما في ضمنه من الخير، والخير مقتضى بالذات، والشر مقتضى لغيره، وكل مقدر، وليس في ذلك ما ينافي الرحمة أصلا''.[4]

وإذن؛ فقد رجع حاصل النظر إلى أن الشرور ليست شرا محضا، بل شرا مخلوطا بالخير، ولأن الخير فيها أكثر من الشر، لذلك فإن الحصيلة النهائية لوجودها خير لا شر.

المبحث الثاني: منبع الشرور

إذا عدنا إلى القرآن نجد بأن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق كل شيء وذلك في قوله تعالى ﴿اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾الزمر:٦٢ كما أنه سبحانه هو من خلق الشر وذلك في قوله تعالى ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾الفَلَق:٢

وفي المقابل الرسول ﷺ ويقول: ''والشر ليس إليك'' فلا ينسب الشر إليه سبحانه وتعالى انطلاقا من هذا الحديث.

وهاهنا سؤال يدور، وهو فمن خلق الشر إذن؟ وهل ينسب إلى الله عز وجل؟

والجواب هو أن الله هو الذي قدر كل شيء يقع في الأرض وفي العالم، وتقديره كله خير بالنسبة له، لكنه بالنسبة لغيره هو شر في بعض الأحيان، فلذلك لا ينسب له خلق الشر تأدباً معه تعالى.

وانظر إلى الجن كيف تأدبوا مع الله وقالوا: ﴿وَأَنَّا لاَ نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾،الجن:١٠ فنسبوا الخير والرشد لله، ونسبوا الشر إلى الفعل المبني للمجهول تأدباً مع الله في قولهم: ''أُرِيدَ''.

إذاً: خالق الشر هو الله، لكننا لا ننسبه إلى الله تأدباً؛ لأن القضاء والقدر نسبة إليه تعالى ليس بشر، كقوله تعالى ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾.الروم:٤١

أما أن ننفي خلق الشر لله تعالى بالكلية فهو الضلال بعينه، ولهذا بين النورسي في مواضع مختلفة من كلياته أن أئمة المعتزلة لما اعتبروا أن إيجاد الشر شر، لم يردوا إلى الله سبحانه خلق الكفر والضلالة فكأنهم بهذا ينزهونه سبحانه ويقدسونه، فقالوا ''إن البشر هو خالق لأفعاله'' ضلوا بذلك والصواب أن خلق الشر ليس شرا، وإنما كسب الشر شر، لأن الخلق والايجاد ينظر إليه من حيث النتائج العامة فوجود شر واحد، إن كان مقدمة لنتائج خير كثيرة، فإن إيجاده يصبح خيرا باعتبار نتائجه، أي يدخل في حكم الخير.

فمثلا: النار لها فوائد ومنافع كثيرة جدا، فلا يحق لأحد أن يقول: أن إيجاد النار شر إذا ما أساء استعمالها باختياره وجعلها شرا ووبالا على نفسه.[5]

وقال رحمه الله في موضع آخر''وإذا تفطنت لهذه المسائل فاعلم! أن الواجب تعالى لا يقاس على الممكنات، إذ الفرق من الثرى إلى الثريا. ألا ترى أهل الطبيعة والاعتزال والمجوس -بناء على تسلط القوة الواهمة بهذا القياس على عقولهم- كيف التجأوا إلى إسناد التأثير الحقيقي إلى الأسباب، وخلق الأفعال للحيوان، وخلق الشر لغيره تعالى؟ يظنون ويتوهمون أن الله تعالى بعظمته وكبريائه وتنزّهه كيف يتنزل لهذه الأمور الخسيسة والأشياء القبيحة؟ فسحقاً لهم! كيف صيروا العقل أسيراً لهذا الوهم الواهي هذا؟ يا هذا! هذا الوهم قد يتسلط على المؤمن أيضا من جهة الوسوسة فتجنَّب!''[6]

وهذا ولعدم إدراك المعتزلة هذا السر ضلوا، إذ قالوا: إن خلق الشر شر وإيجاد القبح قبح. فلم يردوا الشر إلى الله تقديسا وتنزيها له، وتأولوا الركن الإيماني: ''وبالقدر خيره وشره من الله تعالى.''[7]

وبجانب هذه الشرور القديمة قدم الإنسان والتي يرى القرآن منبعها في الإنسان أيضا

إذ يقول تعالى:﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾الروم:٤١ بجانب هذه الشرور الطبيعية، هناك شرور أخرى يطلق عليها إن كان صوابًا أو خطأً كالمصائب والأمراض والأوبئة والزلازل والفيضانات والموت، وكأي مفكر واقعي كان سعيد النورسي يرى كل هذا ويشاهده، حيث يقول: ''أما إن أتينا الى الشرور الأخلاقية فالإنسان منبعها''، وبديع الزمان يشرح وضع الإنسان ومهمته الأصلية كما يأتي:

أ- الإيمان بكل طاعة بالسلطة الربانية المتجلية في الكون والنظر إلى الكمالات والمحاسن فيه نظرة الاعجاب والتقدير.

ب- وزن جوهر الأسماء الربانية بميزان الإدراك وتوجه القلب بالتقدير والإعجاب لهذه الاسماء.

ج- التفكر والتأمل بدهشة وذهول وإعجاب في صفحات كتاب الموجودات في الأرض وفي السماء.

د- مشاهدة النقوش والزينات في الموجودات والفن اللطيف الدقيق فيها بتقدير واستحسان''.[8]

المبحث الثالث: الحكمة من وجود الشر

بيّن ابن القيم في كتابه عن القدر أن خلق الشيطان، وهو أعظم الشرور في الأرض لا يخلو من خير، وهذا الخير يكون في أشياء:

منها: أن يتصارع الخير والشر في الأرض، ويتصارع الحق والباطل، فينصر الله أهل الحق، ويخذل عدوهم من أتباع الشيطان وأعوانه.

ومنها: أن تظهر معاني أسماء الله: الجبار، المنتقم، القوي، العزيز... وغيرها من أسماء القوة والجبروت والانتقام من أعدائه؛ الذين سيتبعون هذا الشيطان.

ومنها: بالمقابل: أن تظهر معاني أسماء الرحمة والمغفرة والعفو لله عز وجل عن أوليائه؛ الذين حاربوا الشيطان، واجتنبوه، وابتعدوا عن خطواته.

ومنها: أن توجد الجنة للطائعين والنار للعاصين.

ومنها: أن يظهر شرف وكمال بعض الموجودات من الخير؛ لوجود أضدادها من الشرور.

ومنها ومنها... أشياء كثيرة ذكرها ابن القيم عن الحكمة من خلق الشيطان وهو أعظم الشرور، فما ظنك بما هو أقل منه شراً؟[9]

ويوافق الإمام النورسي رأي الإمام ابن القيم في مسألة خلق الشياطين''وكذلك خلق الشياطين وإيجادهم فيه نتائج كثيرة ذات حكمة للإنسان، كسموّه في سلم الكمال والرقي. فلا يسيغ لمن استسلم للشيطان –باختياره وكسبه الخاطئ–أن يقول إن خلق الشيطان شر إذ قد عمل الشر لنفسه بكسبه الذاتي''.[10]

وفي هذه المسألة يدقق الإمام النورسي الحكمة من وجود الشر حيث قال: ''فإذا قال قائل: إننا نرى مثلاً بعض الشرور تحصل، وذلك كالأمراض، وكذلك نرى المعاصي والفجور وغير ذلك، فيقال أولاً: إن أفعال الله سبحانه وتعالى كلها خير وحكمة وليس فيها شر بإطلاق، وإن كانت شراً على بعض الخلق بسبب كسبهم واختيارهم .ثانياً: الشر هذا الذي نراه إنما هو في مقدوراته ومفعولاته، ويوضح هذا أننا نجد في بعض المخلوقات المقدورات شراً كالحيات والعقارب، ونجد الأمراض والفقر والجدب وما أشبه ذلك، فكل هذه بالنسبة للإنسان شرا لأنها لا تلائمه، لكن باعتبار نسبتها إلى الله هي خير لأن الله لم يقدرها إلا لحكمة عرفها من عرفها وجهلها من جهلها''[11] فلا يوجد في خلق الله شر محض من جميع الوجوه، حيث أن الحق سبحانه لم يخلق شراً محضاً من جميع الوجوه والاعتبارات وهذا هو وجه تنزيه الله عن كون الشر ليس إليه، فإن حكمته تأبى ذلك أي أن الله تَعَالَى حكيم، وحكمته تأبى أن يخلق شراً محضاً لا خير فيه بوجه من الوجوه، وإنما يخلق شراً وفيه جوانب من الخير، ويحقق به حكماً ومصالح، لا يمكن في جناب الحق تَعَالَى أن يريد شيئاً يكون فساداً من كل وجه لا مصلحة في خلقه بوجه ما، هذا من أبين المحال أي محال عن ذي العزة والجلال المتصف بصفات الكمال، أن يكون هذا من شأنه فإنه سبحانه الخير كله بيديه، والشر ليس إليه.

ويوضح النورسي أكثر حيث يقول: ''إن الكمال والخير والحسن في الكائنات هي المقصودة بالذات وهي الكليات؛ وإن الشر والقبح والنقصان جزئيات بالنسبة إليها قليلة تبعية مغمورة في الخلقة، خلقها خالقها منتشرة بين الحسن والكمال، لا لذاتها، بل لتكون مقدمة، وواحداً قياسياً، لظهور –بل لوجود– الحقائق النسبية للخير والكمال.''[12]

ثم يبين الإمام النورسي الحقائق النسبية التي لأجلها أُستُحسن الشرّ الجزئي فيقول: ''إن الحقائق النسبية هي الروابط بين الكائنات.. وهي الخطوط المنسوج منها نظامها.. وهي الأشعة المنعكس منها وجود واحد لأنواعها. وان الحقائق النسبية أزيدُ بألوفٍ من الحقائق الحقيقية؛ إذ الصفات الحقيقية لذاتٍ لو كانت سبعة كانت الحقائق النسبية

سبعمائة. فالشر القليل يُغْتَفَر بل يُسْتَحْسَن لأجل الخير الكثير؛ لان في ترك الخير الكثير -لأن فيه شراً قليلاً- شراً كثيراً. وفي نظر الحكمة إذا قابل الشر القليل شراً كثيراً صار الشر القليل حسناً بالغير، كما تقرر في الأصول في الزكاة والجهاد.

وما اشتهر من: ''إن الأشياء إنما تُعْرَف بأضدادها'' معناه: إن وجود الضد سبب لظهور ووجود الحقائق النسبية للشيء. مثلا: لو لم يوجد القبح ولم يتخلل بين الحسن لما تظاهر وجود الحسن بمراتبه الغير المتناهية.''[13]

المبحث الرابع: مشكلة الشر والسيئات والعدالة الإلهية في خلق الكون

إن القرآن الكريم قد تناول بشيء من الإسهاب الحديث عن الخير والشر، من ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾.الزلزلة:٧-٨ وقوله أيضا ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾،الأنبياء:٣٥ فالأمر كله يتوقف على الإرادة الإنسانية في امتحان الشر والخير، فالشر امتحان، والخير امتحان، أمام الإرادة الإنسانية، والإنسان بإمكانه دومًا أن يتجنب هذا الشر إذا ما أحسن الاختيار ولم يسئ استخدام حريته.

وفي هذا المقام يقول النورسي: ''إن الله تعالى لما خلق الخير المحض أعني الملائكة، والشر المحض أعني الشياطين، وما لاخير عليه ولا شر أعني البهائم، اقتضت حكمة الفيّاض المطلق وجود القسم الرابع الجامع بين الخير والشر. إن انقادت القوة الشهوية والغضبية للقوة العقلية فاق البشر على الملائكة بسبب المجاهدة، وإن انعكست القضية صار انزلَ من البهائم لعدم العذر.''[14]

والطريق الوحيد للتخلص من هذه السيئات والشرور وارتكاب المعصية والسفاهة والبدع والضلالة هو طريق السير في نور التوحيد بكل ايمان وبكل محبة .ويقول بديع الزمان النورسي ''المحبة التي هي أجلى شعور لدى الإنسان وألذه وأثمنه ..هذه المحبة إن أخذ سر التوحيد بيدها وعاونها فإنها ستسمو بالإنسان وتجعله بسعة الكون وجعله أهلا لكي يكون سلطان الخلق.''[15]

وإذا كان الهدف الأساسي من خلق الإنسان هو وصوله إلى كماله الذي يظهر بدخوله الجنة ونجاته من النار... فمعنى ذلك أن كل ما يساهم في تحقيق هذا الهدف سيكون خيراً له ولمصلحته، حتى لو شاهدناه في الظاهر شراً، والشر هو ما يمنع هذا الإنسان من الوصول إلى هذا الهدف ولا غير. هذا هو الشر، وهذه هي حقيقته.

ما هو الشيء الذي يمنع الإنسان من الوصول إلى الهدف؟

ومن المعلوم أن الكفر والعصيان أمران اختياران، فلا أحد يجبر الإنسان على الكفر والعصيان، ولو فرضنا أن إنساناً أجبر على النطق بالكفر فهذا لا يعد كفراً لأن الإيمان في القلب، كما حدث مع عمار بن ياسر رضوان الله عليه، ولو فرضنا أن إنساناً أجبر على ارتكاب معصية ما كشرب الخمر تحت قوه السلاح، فهذا الفعل لا يعد معصية.

معنى ذلك أن الشر لا يصدر إلا من الإنسان تجاه نفسه، ونحن نطلق على الاعتداءات التي يقوم بها المجرمون عنوان الشرور، لأنهم بفعلهم هذا يظلمون أنفسهم بمنعها من وصولها إلى كمالها (بسبب المعصية) ولأن أفعالهم هذه يجب أن يعاقبوا عليها في الدنيا من خلال الجهاد أو إقامة الحدود، ولكننا لا نقول أبدا بأن الذين قُتلوا وهم أبرياء قد مُنعوا من تحقيق هدفهم بل سيكتشف المظلمون يوم القيامة أن هذا الأمر كان لمصلحتهم، وكما جاء في بعض الروايات يتمنى الذين قتلوا في سبيل الله لو أنهم يرجعون إلى الأرض، فيقتلون ويحرقون، يُفعل بهم ذلك سبعين مره! وذلك لما أعد الله لهم من ثواب.

وهكذا نفسر جميع الحوادث الأخرى، فليست هي شراً بالمعنى الحقيقي للشر وإن أطلقنا عليها هذا العنوان

بعض الناس يغوصون إلى مستوى تفسير أسرار هذه الحوادث بطريقه تكشف لنا عن الجمال والخير المسيطر على هذا العالم، وإذ بكل المصائب والكوارث تتحول أي عين المصلحة، ويظهر النظام العام في الوجود بصوره لوحه بديعة تحير الألباب، فوراء كل حادثه مؤلمه من الحوادث يوجد خير لا حد له، ومفتاح لباب الرحمة الواسعة، ولو نظر الإنسان إليها بعين الإيمان لشاهد هذه اللوحة الرائعة ولأدرك أن لا ظلم في خلق الرحمن.

وهنا يجرنا إلى الحديث عن مسألة مهمة وهي مسألة الجزاء الأخروي على الأعمال؛ لأن المعاد والحساب على صالحات الأعمال وسيئاتها، وإثابة المحسنين، ومعاقبة المسيئين، وهي بحد ذاتها من مظاهر العدل الإلهي. وعادة ما يستدل لإثبات المعاد بعدالة الله سبحانه وحكمته؛ لأن من مقتضياتهما أن لا يترك أعمال البشر دون حساب وثواب وعقاب.

ولهذا نجد العلامة النورسي يولي هذه المسألة عناية فائقة في ''رسائل النور''. حيث ذكر في ''إشارات الإعجاز''؛ ما نصه: ''فاعلم أن كثيرا ما نرى الظالم الفاجر الغدار في

غاية التنعم، ويمر عمره في غاية الطيب والراحة. ثم نرى المظلوم الفقير المتدين الحسن الخلق ينقضي عمره في غاية الزحمة والذلة والمظلومية، ثم يجيء الموت فيساوي بينهما. وهذه المساواة بلا نهاية ترى ظلما. والعدالة والحكمة الإلهيتان اللتان شهدت عليهما الكائنات منزهتان عن الظلم؛ فلابد من مجمع آخر ليرى الأول جزاءه، والثاني ثوابه، فيتجلى العدالة الإلهية''.[16]

ولم يكن العلامة النورسي في هذه الأمر بدعا من العلماء الماضين قبله، فها هو الإمام الرازي، يصرح بأن الله تعالى لو لم يخلق المعاد حتى يجد المحسن ثمرة إحسانه، ويجد المسيء عاقبة إساءته لم يكن لائقا بحكمته.[17]

والاعتراض المثار تجاه العدل الإلهي، فيما يرتبط بكيفية أنواع الجزاء والعقوبات الأخروية؛ إذ يقال: إن هذه العقوبات تناقض العدل الإلهي بسب عدم تناسبها مع طبيعة الجرائم، ولذلك لا تكون عادلة.

والأساس الذي يستند إليه هذا الاعتراض هو القول بلزوم رعاية التناسب بين الجريمة والعقاب، وإلا كانت هذه العقوبات نوعا من الظلم. ومن بين المعترضين؛ نجد الفيلسوف الرياضي برتراند رسل، الذي ظن أن علاقة الدنيا بالآخرة هي من نسخ العلاقات العقدية الاعتبارية المألوفة في المجتمعات البشرية، ولذلك نجده يقول: كيف يمكن أن يكون الإله إلها وهو يفرض علينا عقوبات شديدة بسبب جنايات صغيرة جدا؟

وواضح من هذه القول أن رسلا وأمثاله بعيدون عن أبسط المعارف الإلهية الحقة، وذلك بسبب عدم تعرفهم على المعارف الإسلامية، فقد انحصرت معرفتهم في إطار العالم المسيحي، ولم يشموا رائحة الحكمة والفلسفة والعرفان وعموم المعارف الإسلامية السامية.

أما بديع الزمان النورسي؛ فقد شم رائحة الحكمة والفقاهة، وأخذ بمجامع المسألة وأصولها. فللّه أبوه ما أرفع كلماته عن مقام المتحدي والمعارض، وما أمنع حججه عن نظر الناقد والمستدرك.

قال رحمه الله يدحض ذلك الاعتراض في المكتوب الثاني عشر: ''إن الكافر وإن عمل ذنبا في عمر قصير، إلا أن ذلك الذنب ينطوي على جناية لا نهاية لها؛ ذلك لأن الكفر تحقير للكائنات جميعا وتهوين من شأنها.. وتكذيب لشهادة المصنوعات كلها للوحدانية.. وتزييف للأسماء الحسنى المشهودة جلواتها في مرايا الموجودات.. ولهذا

يلقي القهار الجليل، سلطان الموجودات الكفار في جهنم ليخلدوا فيها، أخذا لحقوق الموجودات كلها منهم.''[18]

ومن هذا القبيل أيضا؛ ما أورده في إشارات الإعجاز؛ حيث قال ما لفظه: ''إن قلت: إن معصية الكفر كانت في زمان قليل أبدي غير متناه، فكيف ينطبق هذا الجزاء على العدالة الإلهية؟

قيل لك: مع تسليم عدم تناهي الجزاء، إن الكفر في زمان متناه جناية غير متناهية بست جهات:

منها: أن من مات على الكفر لو بقي أبدا لكان كافرا أبدا لفساد جوهر روحه، فهذا القلب الفاسد استعد لجناية غير متناهية.

ومنها: أن الكفر وإن كان في زمان متناه لكنه جناية على غير المتناهي، وتكذيب لغير المتناهي؛ أعني: عموم الكائنات التي تشهد على الوحدانية.

ومنها: أن الكفر كفران لنعم غير متناهية.

ومنها: أن الكفر جناية في مقابلة الغير المتناهي وهو الذات والصفات الإلهية.

ومنها: أن وجدان البشر... وإن كان في الظاهر والملك محصورا ومتناهيا؛ لكن ملكوتيته بالحقيقة نشرت ومدت عروقها إلى الأبد. فهو من هذه الجهة كغير المتناهي وبالكفر تلوث واضمحل.

ومنها:

أن الضد وإن كان معاندا لضده؛ لكنه مماثل له في أكثر الأحكام. فكما أن الإيمان يثمر اللذائذ الأبدية، كذلك من شأن الكفر أن يتولد منه الآلام الأبدية.

فمن مزج هذه الجهات الست يستنتج أن الجزاء الغير المتناهي إنما هو في مقابلة الجناية الغير المتناهية، وما هو إلا عين العدالة.''[19]

وبهذا البيان؛ يتضح أن تلك الشبهة المثارة في هذا المجال، صدرت من قوم لم يدركوا الحكمة وراء ذلك الجزاء، ولم يقفوا على ما فيه من السر البديع.

وحيث يصل الكلام إلى هذه المرحلة؛ يثار سؤال آخر مضمونه هو: أي حسن في خلق جهنم؟

إن أصحاب هذا الإشكال؛ يتكلمون وكأن ما قالوه هو الحق، ولا يرون أن من وراء ما بلغوا مبلغا لغيرهم.

إنهم ينظرون إلى جهنم باعتبارها ظاهرة سلبية في الوجود، ويغفلون عن التفكر في حال الوجود لو خلا من جهنم.

وهذا الكلام؛ وإن كان يملأ القلب قيحا، ويشحن الصدر غيظا، لكن ما أورده بديع الزمان في دفعه يشفي صدور قوم مؤمنين.

الخاتمة:

يعتبر الأستاذ النورسي من خير من أنجبتهم أمتنا الإسلامية، خدم دينه وشعبه في ظل فكر راق وعمل دؤوب، وعانى الألم والمرارة والمرض والاستبداد في سبيل ذلك، وترك وراءه إرثا يرقى بالبشرية إلى مراتب التوافق والانسجام والسعادة وكل ذلك في ظل القران الكريم.

ولهذا فقدر تميز النورسي برؤية عرفانية للكون، جعلته يستبدل الكثرة الفلسفية بالوحدة العرفانية، والعلية الفلسفية بمفهوم التجلي، والعقل والوجوب الفلسفي بالحب والحسن، ولذلك فهو يرى العالم برمته مظهرا وتجليا للجميل الأحد المطلق. إنه يعتبر أن خيرات العالم وشروره؛ ليستا منفصلتين عن بعضهما. إن واقع الحال هو أن الخيرات والشرور متمازجة بصورة لا يمكن الفصل بينهما. وحيثما وجد الشر في عالم الطبيعة وجد الخير معه، وحيثما وجد الخير وجد الشر معه، فلقد امتزجا واختلطا في عالم الطبيعة.

ومن شأن هذه النظرة العرفانية القرآنية الوقادة؛ أن لا تكون إلا باعثة للنشاط؛ لأنها ترى الخير ومظاهر العدل واللطف والرحمة الإلهية متجلية في كل أجزاء الكون والحياة، وتجعل الإنسان يتعامل مع كل ما حوله، وما ينزل به من طوارق السراء والضراء كجنود إلهية لخدمة مسيرة الوصول إلى الغاية العليا التي قدرها الله عز وجل لأكرم مخلوقاته عليه وخليفته في أرضه، فلا تسمح للمصائب والبلاء والصعاب، وكل ما تبدو في ظواهرها شرورا؛ أن توقع الإنسان في مستنقعات اليأس وحياة العبث، بل تجعله يرحب بها ويتخذها وسيلة للرقي والتكامل.

ومن شأن الوقوف على حقيقة العدل الإلهي في"رسائل النور"؛ أن يفضي إلى إدراك حقيقة أن الإنسان لم يخلق عبثا، وأنه لم يخلق لهذه الدنيا ليموت فيها، بل إن ثمة غاية عظمى لخلقه يكمن له فيها الخير كل الخير، فهو مخلوق للخلود وعليه أن يعمل لكي تكون حياته الخالدة كريمة مفعمة بالسعادة، ويتجنب الأعمال التي تتجسم له في عالم الخلود بأنواع البؤس والشقاء المقيم.

ومن شأن هذه الرؤية العرفانية للعدل الإلهي أيضا؛ أن تسهم في الحصول على معرفة عميقة لسابقية الرحمة الإلهية وشمولها لأجزاء الكون وشؤون الحياة؛ مقرونة بحاكمية قوانين العدل واللطف؛ وهذه المعرفة تحصن الإنسان من مختلف أشكال الأفكار التشاؤمية المدمرة لكوامن الخير في وجوده.

ومن شأنها كذلك؛ تعميق المعرفة بسنة الله في إجراء الأمور بأسبابها، هذه المعرفة التي تحصن الإنسان من الغرور ومن الأماني، والأفكار المستهينة بقيمة العمل، والباعثة للتقاعس عن صالحات الأعمال، والموقعة في مهاوي الغفلة عن استثمار عمره، وهو رأس مال وصوله إلى معارج الخير ومقامات النور.

* * *

المصادر والمراجع:

١- إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي، مطبعة المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٢.

٢- إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز (كليات رسائل النور)، لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي الناشر شركة سوزلر للنشر، القاهرة، الطبعة الرابعة،٢٠٠٤م.

٣- الشعاعات (كليات رسائل النور)، لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي الناشر شركة سوزلر للنشر، القاهرة، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٤م.

٤- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لابن قيم الجوزية، دار التراث

٥- عجائب القرآن، لفخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة أولى، ١٤٠٤- ١٩٨٤.

٦- الكلمات (كليات رسائل النور)، لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي الناشر شركة سوزلر للنشر، القاهرة، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٤م.

٧- اللمعات (كليات رسائل النور)، لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي الناشر شركة سوزلر للنشر، القاهرة، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٤م.

٨- المثنوي العربي النوري (كليات رسائل النور)، لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي الناشر شركة سوزلر للنشر، القاهرة، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٤م.

٩- المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، لأبي حامد الغزالي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

١٠- المكتوبات (كليات رسائل النور)، لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي الناشر شركة سوزلر للنشر، القاهرة، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٤م.

* * *

الهوامش:

[1] جامعة الجزائر، كلية العلوم الإسلامية، قسم العقائد والأديان
[2] المكتوبات، المجلد الثاني من رسائل النور: ٥٢
[3] نفسه: ٥٢
[4] المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى: ٤٣-٤٤، والحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة.
[5] اللمعات ج١١٧:٣
[6] إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز: ١٣٢
[7] اللمعات ج٣: ١١٨
[8] الكلمات ٣٧٢
[9] شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ابن قيم ٥٣
[10] المكتوبات ٢٣٠
[11] نفسه ٢٣٥
[12] إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز: ٤٨
[13] نفسه ٤٩
[14] إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز: ٣٨٦
[15] الشعاعات ١٩
[16] إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز: ٦٦، وينظر أيضا الكلمات، المجلد الأول من رسائل النور: ٦٥
[17] عجائب القرآن، لفخر الدين الرازي: ١٤
[18] المكتوبات: ٥١
[19] إشارات الإعجاز: ٨٦- ٨٧، وينظر أيضا الكلمات: ٦٤

الثنائي البلبل والوردة
تعبيرا عن الحب القائم بين الخالق والمخلوقات
في كتابات النورسي

أ.د. جورج غريغوري[1]

انطلاقا من رمزية الثنائي البلبل/الوردة -وهما المظهران الماديان لمفهومين مجردين: الحب والجمال- يؤكد النورسي على أن الحب مرتبط بالجمال ارتباط المعلول بالعلة. وهذه الفكرة موجودة عند كبار علماء المسلمين كالإمام أبي حامد الغزالي الذي يشرح أسباب الحب في ''كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا'' (وهو الكتاب السادس من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين) ويجد أن الجمال يمثل أحد المصادر الرئيسية واللانهائية للحب:

''أن يحب الشيء لذاته لا لحظ ينال منه وراء ذاته بل تكون ذاته عين حظه وهذا هو الحب الحقيقي البالغ الذي يوثق بدوامه وذلك كحب الجمال والحسن فإن كل جمال محبوب عند مدرك الجمال وذلك لعين الجمال لأن إدراك الجمال فيه عين اللذة واللذة محبوبة لذاتها لا لغيرها ولا تظنن أن حب الصور الجميلة لا يتصور إلا لأجل قضاء الشهوة فإن قضاء الشهوة لذة أخرى قد تحب الصور الجميلة لأجلها وإدراك نفس الجمال أيضا لذيذ فيجوز أن يكون محبوبا لذاته.''[2]

وتبلورت هذه الفكرة انطلاقا من هذا الحديث النبوي الذي أخرجه مسلم في صحيحه[3] عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ قَالَ رَجُلٌ إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً قَالَ إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ.''[4]

فالخالق -الحب والجمال يعدّان من صفاته الخالدة حسب الحديث المذكور أعلاه- وضع في كل كائناته شيئا من الجمال كما غرس في ذات كل كائن بذرة الحب إلى الجمال مثال ذلك البلبل ومحبوبته الوردة كما يصفهما سعيد النورسي:

''أفلا تعقل أن من نوّر ما تحبه بنور الحسن هو الذي نوّر كل أزاهير بستان الكائنات وشوّق عليها قلوب البلابل العاشقين.''[5]

ومن الضروري أن نشير من البداية إلى أن أسلوب سعيد النورسي أسلوب سهل الفهم وجذاب وفي نفس الوقت يتميز بقدرة إقناع عجيبة، قدرة فوق الاعتياد. وينبغي أن نذكر هنا أنه استخدم هذا الأسلوب البسيط المقنِع كوسيلة لمعالجة مسائل زمانه الحادة الناتجة -في أغلبيتها- عن الضغط الغربي على المجتمع الإسلامي، من تسرب الفلسفة المادية إلى تراكيب الحياة الإسلامية ودفعتها إلى نسيان خصوصياتها الثقافية والحضارية. إن الخطر كان كبيرا جدا. ففي هذه الظروف، النورسي ما كتب شعرا -إلا في ''المثنوي العربي النوري''- وما كان ينوي ذلك ولكنه وجه كلامه إلى العقل والى القلب في نفس الوقت.

والراجح عندي في هذا المقام أنّ النورسي خاطب في كتاباته الذات الإنسانية، والذات الإنسانية تكمن في اللب كما ورد في الآية المئة والتسعين المذكورة أدناه من سورة آل عمران: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾. آل عمران:١٩٠

ونتوقف على كلمة ''ألباب'' الواردة فيها، مفردها ''لب'' ومعناها -حسب التفاسير- القلب والعقل في آن واحد أو بكلمة أخرى الذات الإنسانية. فبالتالي هو يخاطب العقل بالسرد المنطقي والقلب بالكلمات الجميلة الوارثة قيما شعرية هائلة كما يقول:

''اللفظ يزيّن ولكن إذا اقتضته طبيعة المعنى وحاجته.. وصورة المعنى تعظّم وتعطي لها مهابة ولكن إذا أذِن بها المعنى.. والأسلوب ينوّر ويلمع ولكن إذا ساعده استعداد المقصود.. والتشبيه يلطّف ويجمّل ولكن إذا تأسست على علاقة المقصود وارتضى به المطلوب.. والخيال يُنشط ويسيّح ولكن إذا لم يؤلم الحقيقة ولم يثقل عليها وأن يكون مثالا للحقيقة متسنبلا عليها.''[6]

هذا ويستخدم النورسي في أعماله مصطلحات صوفية وشعرية من تراث الحضارة الإسلامية، خصوصا من الآداب الفارسية والتركية والاوردية. إن هذه العبارات المجازية المشهورة المستخدمة في الأعمال الصوفية هي سهلة الفهم والإدراك وبها شفافية تامة ناتجة عن معناها العميق، وهي منتشرة بشكل أو بآخر في كل الربوع

الإسلامية. وجزء لا بأس به من هذه العبارات والمفاهيم تجاوز أحيانا حدود الأدب الصوفي ودخل الأدب البلاطي العثماني الذي أعطاها مكانة رفيعة ضمن نظام قيمه الجمالية. ومن هذه المصطلحات المتداولة نذكر على سبيل المثال الأضداد:

kûl-sultân/pâdişah عبد/سلطان، gül-bülbül (وردة-بلبل)، pervâne-şem (فراشة-شمعة).

الاستعارة وردة/بلبل -الموحاة من عالم الشعر الفارسي المصقول بدقة- تشير إلى النفس البشرية التي تطمح، بلا انقطاع، إلى عودتها إلى موطنها الإلهي الذي فارقته منذ زمن بعيد وتمجّد كماله وجلاله كما ورد في مثنوي مولانا جلال الدين رومي – في قصيدة تروي رغبة قصبة الناي في العودة إلى مكانها الأصلي.

يتمتع البلبل أو العندليب بشهرة عظيمة في كل أنحاء العالم لتغريده الذي وصفه كل من أصغى إليه بأنه على غاية الكمال. هذا العصفور الذي جعله الشعراء من العالم كله مغني الحب، يوقظ بغنائه، المحزن والمفرح سواء بسواء، في نفوس المستمعين الشعور بأن علاقة حميمة تربط الحب بالموت.

هذا ما تثبته أيضا الأسطورة الفارسية التي تحكي عن الحب القوي الذي شدّ البلبل إلى الوردة. وجوهر هذه الأسطورة، بالاختصار الشديد، هو الآتي: البلبل -وهو أخرس وقتذاك- وقع في حب الوردة -وهي زرقاء اللون وقتذاك- لجمالها الفاتن واقترب منها. وطالما هو أخرس، ما استطاع أن يرد على تحية الوردة له وهذا أغضبها كثيرا وما كلمته أبدا بعد ذلك. في قمة الحزن والألم رفع البلبل دعاء بعد دعاء إلى الخالق طالبا منه منحه صوتا. شفقةً، وهبه الخالق أجمل صوت في الكون كله. وعاد البلبل إلى الوردة وغنّى لها عن حبه ولكنها لا تريد الاستماع إليه أبدا مضى أخيرا، كسير القلب، انسحب البلبل. وفي الليل، شعرت الوردة بالندم على معاملتها للبلبل وبكت. في الصباح، رأى البلبل الدموع على أوراقها فهرول إلى معانقتها ولكن أشواك الوردة طعنته فمات. دمه لوّن الوردة بالحمرة..

هذه هي الأسطورة التي أترعت خيال الكثير من الشعراء الفرس والأتراك والعرب والهنود الذين خلفوا أبياتا خالدة مكرسة للحب والجمال والموت المجسمة في الثنائي البلبل والوردة. وبمجرد ذكر أي واحد من هذا الثنائي -البلبل أو الوردة- والإثنين مع البعض، أي كلام يكتسب شيئا من الشحنة الشعرية الرقيقة التي تحملها هاتان الكلمتان.

هذا ما يحدث -كظاهرة- عند النورسي كذلك، ولكنه يُغْني هذه الرموز القديمة بمعان جديدة كما سنرى فيما بعد..

وينطلق النورسي في استخدام هذه الرموز من كونها مفهومة في المجتمع الذي يخاطبه والمثال على ذلك: لغة البلبل هي لغة يفهمها كل إنسان لأنها تعبّر عن الكليات البشرية: الحب والحزن والفرح والموت:

''فهذه المعاني وهذه الغايات هي الغاية من عمل البلبل الذي يقوم به لأجل الحق سبحانه وتعالى. فالبلبل يغرّد بلغته ونحن نفهم هذه المعاني من نغماته الحزينة، مثلما يفهمها ايضاً الملائكة والروحانيات. وان عدم فهم البلبل لمعنى نغماته معرفة كاملة ليس حائلاً امام فهمنا نحن لذلك، ولا يقدح فيه، والمثل: ''رُب مستمع أوعى من متكلم'' مشهور.

ثم ان عدم معرفة البلبل لهذه الغايات بالتفصيل لا يدل على عدم وجودها، فهو في الأقل كالساعة التي تعرّفك أوقاتك وهي لا تعلم شيئاً مما تعمل. فجهلُها لا يضر بمعرفتك.

اما مرتّب ذلك البلبل ومكافأته الجزئية فهي الذوق الذي يحصل عليه من مشاهدة تبسّم الأزهار الجميلة، والتلذذ الذي يحصل عليه من محاورتها.''[7]

ويفسر النورسي الحب الذي يشد البلبل إلى الوردة كرمز للمحبة التي تربط كل كائنات الله التي تفرح بالهدايا التي وهبها الله لغيرها مثلما يفرح البلبل بالجمال الذي وهبه الله للوردة:

''إن العندليب المشهور بالعشق للورد يستخدمه فاطره الحكيم لإعلان المناسبة الشديدة بين طوائف النبات وقبائل الحيوان. فالعندليب خطيب رباني من طرف الحيوانات -التي هي ضيوف الرحمن- وموظف لإعلان السرور بهدايا رازقها.''[8]

البلبل بحبه الشديد يصبح عند النورسي الرمز المطلق للحب وخصوصا للحب لله، ذلك الحب الذي يعبر عنه كل الموجودات بمجرد وجودها:

''بل كل نوع له عندليب يمثل ألطف حسيات ذلك النوع بألطف تسبيح في ألطف تسجيع. لا سيما في أنواع الهوام والحشرات.''[9]

"وقس على البلبل؛ بلابل النحل والعنكبوت والنمل والهوام والحيوانات الصغيرة، فلكل منها غايات كثيرة في أعماله، أدرج فيها ذوق خاص، ولذة مخصوصة، كمرتّب وكمكافئة جزئية، فهي تخدم غايات جليلة لصنعة ربانية بذلك الذوق. فكما ان لعامل بسيط في سفينة السلطان مرتّبهُ الجزئي، كذلك لهذه الحيوانات التي تخدم الخدمات السبحانية مرتّبها الجزئي."[10]

أما الإنسان الذي خلقه الله خليفة له في الأرض فهو أفضل ما يكون في التعبير عن حبه الشديد لله:

"وأفضل جميع الأنواع وأشرف عندليبها وأنورها وأبهرها وأعظمها وأكرمها وأعلاها صوتا وأجلاها نعتا وأتمّها ذكرا وأعمّها شكرا، عندليب نوع البشر في بستان الكائنات حتى صار بلطيفات سجعاته بلبلَ جميع الموجودات في الأرض والسماوات."[11]

البلبل-في منظور النورسي- ليس إلا أحد ظواهر تمجيد الله وكل المخلوقات لها البلبل الخاص بها والذي يذكر نوعه العلاقة الحميمة بين الخالق والمخلوق. أما بما يخص البشرية، فالمختار بلبلا لها هو النبي محمد الذي يكشف من جديد للبشرية، عن طريق القرآن الكريم، مصدرها الأولي ومقصدها النهائي وهما الله.

"أفضل هذه البلابل طراً وأشرفها وأنورها وأبهرها وأعظمها وأكرمها وأعلاها صوتا وأجلاها نعتا وأتمّها ذكراً وأعمّها شكراً وأكملها ماهية وأحسنها صورة، هو الذي يثير الوجد والجذب والشوق في الأرض والسماوات العلى، في بستان هذا الكون العظيم، بسجعاته اللطيفة وتضرعاته اللذيذة وتسبيحاته العلوية.. هو عندليب العظيم لنوع البشر، في بستان الكائنات، بلبل القرآن لبنى آدم، محمد الأمين، عليه وعلى آله وأمثاله، أفضل الصلوات وأجمل التسليمات."[12]

في الأعمال الصوفية، الوردة رمز الجمال، رمز الحب الظامئ إلى الله، تتحول إلى الوردة الصوفية التي تلهم الشوق الأبدي في قلب الصوفي نحو خالقه. وهذا الحب يقوده عبر كل التجارب والمحن الأرضية إلى أصله السماوي حسب النموذج: البلبل (الاشتياق الصوفي الكامن في القلب الإنساني) وحبه الشديد نحو الوردة "جمال مغنطيسي تشد إلى محبته وهذا الجمال يكون بمثابة مركز كامل القوة الجاذبية في القلب الإلهي".

ومن إيمانه العميق الذي لا يتزعزع أبدا –كما نعرف من سيرة حياته– يعطي النورسي، ناظرا إلى هذا حب البلبل والصوفي، النصيحة التالية: مهما تكن المتاعب والمصائب، يجب على الإنسان أن يمجد خالقه ويشكره بدون قيد وشرط مثل ما يفعله البلبل تجاه محبوبته الوردة:

''دع الشكوى، اغنم الشكر كالبلابل، فالأزهار تبتسم من بهجة عاشقها البلبل.''[13]

ومن الضروري أن نذكر هنا أن الوردة المشهورة في الأدب الصوفي الإسلامي تتميز دائما بلونها الأحمر بما يدل على مقارنتها مع النار الملتهبة وهي من الرموز المهمة في الأدب الصوفي.

اللون الأحمر يوحي إلى الهوى، كما يوحي في آن واحد إلى الألم الناتج عنه. في الأدبين الفارسي والتركي الوردة تستخدم كرمز شفاف لقلب المؤمن أو الكأس المملوءة بالمعرفة. بناء على هذا المعنى الأخير، يعطي النورسي للوردة معنى جمال القرآن الكريم كما رأيناه أعلاه.

كما تبرز (Irène Mélikoff)، ومعها الحق، أن الوردة ما اكتسبت مكانة عالية جدا إلا في الأدب، بل هي تحتل نفس المكانة في غيره من الفنون كذلك وفي صدارتها الرسم والخط. ''وردة محمد'' (Verd-i Muhammedî) مرسومة أحيانا في مساجد، أو يمكن إيجادها كذلك في لوحات الرسم أو الخط الفني بمواضيع دينية، على جدران (Tekye). فعند النورسي كما رأينا أعلاه، الوردة ترمز إلى جمال القرآن الكريم وهذا يمكن فهمه كذلك من قوله:

''تأمل هذه الزهرة وهي كلمة من كلمات الله!''[14] أي كلمة من كلمات قدرة الله.

كملاحظة جانبية، يمكننا أن نذكر –لأهمية وردة محمد– أنه في التكية الصوفية المنحدرة من الشيعة، وردة محمد تصحبها أوراق خضر تحمل عليها أسماء أصحاب البردة: علي، الحسن، الحسين، فاطمة. الوردة ترمز إلى القلب المبارك فيه المنعم عليه.[15]

علاوة على كل ما ذكرناه أعلاه بخصوص الوردة، فهي مكلّفة بفضائل متعددة المعاني في الحضارة الغربية أيضا وذلك تحت تأثير الأيقنة المسيحية التي تنسبها إلى

الكأس التي -حسب تقاليد الكنيسة- جُمعت فيها قطرات دم المسيح بعد صلبه (يعني Graal). فبالتالي تعتبر إما مجلى دم القربان، إما جروح المسيح.

رمزية الوردة المرتبطة كل الارتباط بشكلها المدهش تستغلها بشدة حضارات أخرى ومع أنها متباعدة مكانيا وزمنيا فهي تعيرها معاني متشابهة في دقتها ولطفها: ''هي تتناظر في جملتها اللوتس في آسيا، وهما -الوردة واللوتس- قريبان من رمزية العجلة. أقوى ظاهرة لهذه الرمزية الزهرية تتعلق بخروجها من المياه الأولية التي تنمو وتذبل على سطحها. هي تمثل إتمام الكمال أو بالأحرى الكمال الخالي من العيوب. هي ترمز إلى كأس الحياة، الفؤاد والقلب والحب. فيمكن تأمّلها واعتبارها كمركز روحي.[16] ناظرا إلى داخل الوردة المتشابه بمتاهة حلزونية، الوردة تنطوي على سر المعرفة والمحبة سواء بسواء، هذه المحبة التي تلهم وتغذي تغريد البلبل الشادي:

Ben bülbülem dost gülümdür bilün gülüm solmaz benüm!

''أنا البلبل والصديق وردتي، اعلموا أن وردتي لا تذبل أبدًا![17]

تأمل الوردة -مثل تأمل اللهب- هو نموذج السفر نحو المركز، العودة التخيّلية إلى الحق الذي يتجاوز كل الوجود الوهمي ويدعم العالم. الصوفيون يعيرون الوردة بعدا رمزيا آخر وهو اعتبار الوردة المكان الذي يلتقي فيه الروح مع خالقه.[18]

الشعراء الأتراك يمجّدون -بجنب الوردة كما هي في المنظور الصوفي- ''روضة الصديق'' (Dost Bahçesi) كمكان الكمال وإحياء الرجّات الروحية. وعلاوة على ذلك، ''الروضة'' تمثل محاولة العودة إلى الوحدة الأولية.. على نفس المستوى الرمزي، صورة ''روضة الورد أو جنة الورد'' (Gülistân, gülzâr, gülşen) يمكن بكل سهولة تفسيرها كتلميح إلى جلسة طقسية أو إلى مقر صوفي (Tekye) يجمع المختارين.

عند النورسي ''الروضة'' هي عبارة عن الجمال أو الحسن المجرد يلبسه الشعراء والبلغاء صوتًا:

''الحسن المجرد هو الروضة لأزاهير البلاغة التي تسمى لطائف ومزايا.. وتلك الجنة المزهرة هي التي يتجول ويتنزه فيها البلابل المسماة بالبلغاء وعشاق الفطرة. وأولئك البلابل نغماتهم الحلوة اللطيفة إنما تتولد من تقطيع الصدى الروحاني المنتشر من أنابيب نظم المعاني.''[19]

بهذه الرموز القديمة والمعروفة في الحضارة الشرقية، تصبح أعمال النورسي امتدادا لتراث غني. كما قلت في البداية معاني هذه الرموز عديدة وفكها يحتاج إلى معرفة عميقة للآداب التركية والفارسية والعربية بالإضافة إلى مفاهيم النورسي...

* * *

المراجع:

النورسي، بديع الزمان سعيد، ١٩٩٢، المكتوبات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، القاهرة.

النورسي، بديع الزمان سعيد، ١٩٩٣، اللمعات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، إسطنبول.

النورسي، بديع الزمان سعيد،١٩٩٥، المثنوي العربي النوري، تحقيق إحسان قاسم الصالحي، القاهرة.

النورسي، بديع الزمان سعيد، ١٩٩٥، صيقل الإسلام، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، القاهرة.

النورسي، بديع الزمان سعيد، ١٩٩٢، الكلمات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، القاهرة.

النورسي، بديع الزمان سعيد، ١٩٩٩، إشارات الإعجاز، تحقيق إحسان قاسم الصالحي، إسطنبول

الإمام الغزالي. إحياء علوم الدين. الجزء الرابع. مكتبة ومطبعة كرياطة فوترا، سماراغ. ص.:٢٥٠.

مسلم بن حجاج. ٢٠٠٦. صحيح مسلم. دار طيبة.

Chebel, Malek, 2002, *L'imaginaire arabo-musulman*, Paris.

Chevalier, Jean; Gheerbrant, Alain, 1973, *Dictionnaire des symboles*, Paris.

Emre, Yunus, 1989, *Yunus Emre Divânî,* Ankara.

Mélikoff, Irène, 1967, *La fleur de la souffrance*, Journal asiatique, 255, 3-4; pp. 341-360.

Munteanu, Luminita; Grigore, George, 2001, *Calauza dervisului*, Bucuresti.

* * *

الهوامش:

[1] جامعة بوخارست – رومانيا.

[2] الإمام الغزالي. إحياء علوم الدين. الجزء الرابع. مكتبة ومطبعة كرياطة فوترا، سماراغ. ص.:٢٥٠.

[3] الرقم ١٣١.

[4] مسلم بن حجاج. ٢٠٠٦. صحيح مسلم. دار طيبة.

[5] النورسي، بديع الزمان سعيد، ١٩٩٥، المثنوي العربي النوري، تحقيق إحسان قاسم الصالحي، القاهرة. ص.: ٢٩٢.

[6] النورسي، بديع الزمان سعيد، ١٩٩٥، صيقل الإسلام، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، القاهرة.ص.: ٩٩.

[7] النورسي، بديع الزمان سعيد، ١٩٩٢، الكلمات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، القاهرة. ص.: ٤٠٧.

[8] النورسي، بديع الزمان سعيد،١٩٩٥، المثنوي العربي النوري، تحقيق إحسان قاسم الصالحي، القاهرة. ص.: ٤٧٩.

[9] النورسي، بديع الزمان سعيد،١٩٩٥، المثنوي العربي النوري، تحقيق إحسان قاسم الصالحي، القاهرة. ص.: ٤٧٩

[10] النورسي، بديع الزمان سعيد، ١٩٩٢، الكلمات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، القاهرة. ص.: ٤٠٧.

[11] النورسي، بديع الزمان سعيد،١٩٩٥، المثنوي العربي النوري، تحقيق إحسان قاسم الصالحي، القاهرة. ص.: ٤٨٠.

[12] النورسي، بديع الزمان سعيد، ١٩٩٢، الكلمات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، القاهرة. ص.: ٤٠٨.

[13] النورسي، بديع الزمان سعيد، ١٩٩٢، المكتوبات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، القاهرة. ص.: ٣٠.

[14] النورسي، بديع الزمان سعيد، ١٩٩٢، الكلمات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، القاهرة. ص.: ٨٠.

[15] Mélikoff, Irène, 1967, *La fleur de la souffrance*, Journal asiatique, 255, 3-4 ٣٥٥

[16] Chevalier, Jean; Gheerbrant, Alain, 1973, *Dictionnaire des symboles*, Paris. ١١٢

[17] Emre, Yunus, 1989, *Yunus Emre Divânî,* Ankara. ١٢٩

[18] Chebel, Malek, 2002, *L'imaginaire arabo-musulman*, Paris. ٢٠٩

[19] النورسي، بديع الزمان سعيد، ١٩٩٩، إشارات الإعجاز، تحقيق إحسان قاسم الصالحي، إسطنبول.ص.: ١١٨.

بديع الزمان النورسي والتصوف
أو من توحيد الولي، إلى توحيد الصفي

د. جعفر ابن الحاج السُلَمي

إن دراسة الفكر الإسلامي المعاصر، يستلزم ضمن ما يستلزم، العناية بالمفكرين المسلمين الذين لم يكتبوا بالعربية، أو كتبوا بها قليلا، فلم يشتهروا. ويستلزم كذلك، العناية بعناصر هذا الفكر، ومذاهبه ومشاربه، ورصد التحولات الطارئة عليه، وتفسيرها بقدر الإمكان.

في دائرة هذا التوجه، نرغب في أن نسائل الأستاذ بديع الزمان النورسي، رحمه الله، من حيث هو مفكر إسلامي معاصر، عن طبيعة اتجاهه الفكري، وطبيعة موقفه من التصوف الإسلامي، وموقفه من المذاهب الصوفية، ولا سيما مذهب وحدة الوجود، وهو أخطر مذهب صوفي هزّ العلماء والمفكرين المسلمين، وعن موقفه من الطرق الصوفية، وموقفه من خصوم التصوف كذلك.

وبما أن هذا الموضوع لا يسعه هذا المقام، بل يحتاج إلى مؤلّف حافل، فسوف نقتصر على موقفه من وحدة الوجود الصوفية. وعسى أن يكون هذا البحث منطلقا لأبحاث أخرى عن علاقة رسائل النور بالتصوف، ونقط التقائها في خدمة القرآن به، ونقط افتراقها عنه، وأسباب ذلك، مع السعي إلى عدم تحميل كلام الأستاذ بديع الزمان، رحمه الله، مالا يحتمل من وجوه المعاني، ما أمكننا ذلك. ولا سيما اننا لم نرجع إلى رسائل النور في أصلها التركي، بل إلى ترجماتها العربية.

إن السؤال الأول الذي يجب علينا أن نطرحه على أنفسنا هو هذا:

لماذا ناقش الأستاذ بديع الزمان ابن عربي؟

وكيف ناقشه، وماذا كان موقفه من مذهبه؟

لنقرر في البدء إن مناقشة الأستاذ بديع الزمان لابن عربي لم تكن غايتها تسفيه كلام ابن عربي (-٦٣٨هـ) وإثبات كذبه وضلاله، بل مروقه من الدين، كما صنع المتعصبون عليه، ولا ممالئته ومشايعته، كما صنع المتعصبون له، ولكن كانت رد فعل على الضغط الفكري الذي واجهه الأستاذ، لتبيين موقفه من ابن عربي. تجلى هذا الضغط في كثرة الأسئلة المرفوعة إليه من تلاميذه وغيرهم، في خصوص مذهب ابن عربي. ولننتبه إلى أن النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري، الذي كان يكتب فيه الأستاذ، وحتى ما بعده، كان عصر تسلل الفلسفة المادية الغربية إلى دار الإسلام، في تركية ومصر والشام والهند، كما كان عصر الحركات الإسلامية الإصلاحية والمهدوية، وانبعاث السلفية والوهابية في نجد ومصر. وقد كان هذا العصر قد ورث من الماضي طرقا صوفية كثيرة، كانت مسيطرة على العقول والقلوب. فضلا عن أن الطباعة التي كانت قد نشطت وقتئذ قد طرحت على المثقفين والعلماء إشكالات كثيرة، بما ظهر من الكتب التي كانت نادرة. إن تبلبل الأفكار وتصارعها بفعل نشاط الفكر الفلسفي المادي الغربي، والفكر الإصلاحي والسلفي الوهابي، والفكر الصوفي، كان لا بد له من أن ينعكس على الأستاذ بديع الزمان، وأن يجعل مناقشته لهذه التيارات والمذاهب والمشارب، جزءا من مشروعه الكبير لخدمة القرآن والإيمان، لإنقاذ الإسلام من الضياع، في وقت أعرض فيه كثير من الناس عن الإيمان والإسلام، ورأوا أن المخرج من أزمة المسلمين، كامن بالضبط في التملص من الإسلام والإيمان، وهيمنة القرآن على المسلمين.

ولنقرر في البدء أن مبدأ خدمة الإيمان، الذي هو عينه عند الأستاذ خدمة القرآن، هو الذي حفزه على التكلم في ابن عربي، لما تطرحه وحدة الوجود على المفكرين والمؤمنين من إشكالات دقيقة، كثيرا ما تؤدي إلى إنكار الشريعة، وما بنيت عليه من وحي مُنزل وسنة، أو إنكار الموجودات، أو إنكار الخالق.

ولنقرر في البدء أيضا إن مناقشة الأستاذ لابن عربي، وإن خدمة الإيمان والقرآن بمناقشته، ليستا بالأمر السهل إطلاقا، بالنظر إلى دقة الإشكالات الوجودية والإيمانية عند ابن عربي، ولنقرر كذلك أن الأستاذ كان أولى من يناقشه، بالنظر إلى طول باعه في الفلسفة القديمة وعلوم التصوف وعلوم الشريعة، وإلى طول تدبره للقرآن الكريم.

إن أهم ما يسترعي نظر الباحث، وهو يتأمل رسائل النور، هو أن الأستاذ لا يسمي

وحدة الوجود فلسفة، ولا يسميها مذهبا، ولا يسميها نظرية، بل يسميها مشربا ولعله سماها بهذا الاسم وهو يستحضر قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ البقرة:٦٠ ولهذا الأمر دلالته الكبيرة. ذلك أن الفلسفة نسق فكري عقلاني، وأن المذهب نسق فكري أو شرعي، داخل نسق أعم، بينما ''وحدة الوجود'' ليست عنده من الفلسفة في شيء، ولا من المذهب في شيء. بل هي عنده مشرب، أي تجربة ذاتية روحانية، وهذا ما أفاض القول فيه؛[1] لا ترقى إلى مرتبة الفلسفة أو المذهب. إن دلالة التسمية أمارة على الموقف من وحدة الوجود.

يلخص الأستاذ القول بوحدة الوجود، فيما ذهبوا إليه في مبحث الوجود من ترك إثبات وجودين منفصلين متمايزين، أحدهما مطلق وآخر نسبي، وأولهما مؤثر في الثاني، هما الله والعالم، إلى القول بوجود واحد، غير متجزئ ولا منفصل، احترازا من الوقوع في الاثنينية، هو الوجود الإلهي، مع إنكار العالم. يقول:

''لذلك رأوا أنفسهم مضطرين أمام القول: كل شيء هو تعالى، أو لا شيء موجود، أو أن الموجود خيال، أو من التظاهر أو من الجلوات.''[2]

يستعمل الأستاذ في مناقشة أهل وحدة الوجود ثنائية فلسفية قديمة، من الفلسفة الإسلامية، هي ثنائية الوجود الممكن والواجب، أي الله والعالم، كما يستعمل ثنائية النسبي والمطلق أيضا. يقول مفككا لنمط تصور الوجود عند أهل الوحدة:

''يعتبر 'وحدة الوجود' التي تضم 'وحدة الشهود' من المشارب الصوفية المهمة وهي تعني: حصر النظر في وجود 'واجب الوجود'، أي إن الموجود الحق هو: 'واجب الوجود' سبحانه فحسب، وأن سائر الموجودات ظلال باهتة وزيف ووهم لا تستحق إطلاق صفة الوجود عليها حيال ''واجب الوجود'' لذا فإن أهل هذا المشرب يذهبون إلى اعتبار الموجودات خيالا ووهماً، ويتصورونها عدما في مرتبة ترك ما سواه، أي: 'ترك ما سوى الله تعالى'' حتى إنهم يتطرفون ويذهبون إلى حد اعتبار الموجودات مرايا خيالية لتجليات الأسماء الحسنى'.''[3]

ولا يعترض الأستاذ على القول بوجود الله، ولكن على إنكار وجود العالم، من حيث هو ذات أو هوية مستقلة. وهنا مربط الفرس عنده، لأن العالم عند الأستاذ ليس هو الله، ولا هو خيال، ولا تجلّ لله. بل للعالم وجود تام وحقيقي، ولو أنه منفعل وممكن لا واجب. إن القول بوحدة الوجود في نظر الأستاذ محاولة للتملص بالرياضة

الروحانية من تدبر المفارقات الدقيقة المشكلة الكائنة في العلاقة بين وجودي الله والعالم. يقول: ''لذا يجدون ملجأهم في مسألة وحدة الوجود لأجل التخلص من فراقات رهيبة.''[4]

إن مشربية وحدة الوجود، قائمة في نظر الأستاذ على العاطفة والرياضة، لا على العقل ولا على الشرع. وأصحابها لا علماء ولا فلاسفة، بل عشاق مستغرقون: ''ولأنهم يتصورون بسُكر العشق وبمقتضى شوق البقاء واللقاء والوصال، أن في وحدة الوجود مشرباً حالياً في منتهى الذوق، لذا يجدون ملجأهم في مسألة وحدة الوجود لأجل التخلص من فراقات رهيبة''.[5] ويسمي أهلها ''أهل السكر والاستغراق، وأصحاب الشوق والعشق.''

ويمثل تمثيلا جيدا -على عادته دائما- في ضرب المثال لتقريب المفاهيم وتصويرها في كتاباته، للعلاقة بين الله والعالم، بالعلاقة بين ''الكاتب'' وبين ''المكتوب'' . يقول:

''فالذي يظن الرسالة كاتبها أو يتخيل الكاتب في الرسالة نفسها، أو يتوهم الرسالة خيالا لاشك أنه قد ستر عقله بستار العشق ولم يبصر الصورة الحقيقية للحقيقة''. [6] إنه مهما يكن جمال المكتوب، ومهما يكن إتقان الكاتب، فبين الهويتين فرق، وبين الطبيعتين فرق، وبين الوجودين فرق. لكن علاقة المحبة والاستغراق في العشق، أي هذه العلاقة العاطفية التي تربط بين الصوفي وربه، تخيل إليه وهو يسلك الطريق، أن لا شيء إلا الحبيب، وأن العالم كله تجل له. فينكر العالم، وينسى نفسه.

إن العلاقة بين الله وبين العالم علاقة أثر ومؤثر، وقدم وحدوث. إنها علاقة ''منّية''، تأثيرية، لا علاقة هوية، علاقة فصل مع تأثير، لا علاقة وصل مع مماهاة. يقول:

''فالموجودات ليست أوهاماً كما يدعي أصحاب وحدة الوجود، بل هذه الأشياء الظاهرة هي من آثار الله سبحانه وتعالى.

إذن فليس صحيحاً قولهم ''همه اوست'' أي ''لا موجود إلا هو'' وإنما الصحيح ''همه از اوست'' أي ''لا موجود إلا منه'' ذلك لأن الحادثات لا يمكن أن تكون القديم نفسه، أي أزلية''.[7]

ويردّ الأستاذ ظهور القول بالوحدة إلى شيئين اثنين: أحدهما عقلي، والآخر قلبي رياضي. يقول:

''إن منشأ السبب الأول: هو عدم بلوغ العقل قسماً من حقائق الإيمان الواسعة للغاية والسامية جداً، وعدم استطاعته الإحاطة بها، مع عدم انكشاف العقل انكشافا تاماً من حيث الإيمان.

أما منشأ السبب الثاني: فهو انكشاف القلب انكشافاً فوق المعتاد، بتأثير العشق وانبساطه انبساطاً خارقاً للعادة''.[8]

بيد أن هذا السبب القلبي الذي هو الاستغراق في العشق، ليس عشقا خالصا دائما لله، بل هو مشوب بشيء من حظ النفس البشرية، أي مشوب بعشق الدنيا، وإن كان صاحبه لا يفطن إليه. يقول:

''إن أهم جهة من أنواع العشق التي تسبب الانسلاك إلى مشرب وحدة الوجود هي عشق الدنيا، إذ حينما يتحول عشق الدنيا الذي هو عشق مجازي إلى عشق حقيقي ينقلب إلى وحدة الوجود. .. فإن كان ذا إيمان رفيع راسخ يكون له هذا المشرب مرتبة ذات قيمة نورانية مقبولة كما هي لدى ابن عربي وأمثاله، وإلا فلربما يسقط في ورطات وينغمس في الماديات ويغرق في الأسباب .أما وحدة الشهود فلا ضرر فيها، وهي مشرب عال لأهل الصحو''.[9]

ولقد ألح الأستاذ بديع الزمان على ذاتية التجربة الصوفية عند أهل وحدة الوجود، وعدم إمكان تحويل المعرفة الحدسية القلبية، التي تحصل بالاستغراق في العشق إلى معرفة شرعية، يلزم كل الناس الاعتقاد بها، والإيمان بها، والخوض فيها. وهو ما قد يعطل الشريعة، التي تقتضي أركان الإيمان فيها وجود العالم، ممكن الوجود، وحقيقية العالم، لا وهميته.

''فالأركان الإيمانية تستدعي وجود الممكنات أي إن هذه الأركان المحكَمة لا يمكن أن تقوم على أساس خيالي. فعلى صاحب هذا المشرب ألاّ يصحب معه هذا المشرب، وألاّ يعمل بمقتضاه عندما يفيق من عالم الاستغراق والنشوة. ثم إن عليه ألاّ يقلب هذا المشرب القلبي والوجداني والذوقي إلى أسس عقلية وقولية وعلمية، ذلك لأن الدساتير العقلية والقوانين العلمية، وأصول علم الكلام النابعة من الكتاب والسنة

المطهرين لا يمكنها أن تتحمل هذا المشرب، ولا تتسع لإمكانية تطبيقه. لذا فلا يرى هذا المشرب في أهل الصحوة الإيمانية من الخلفاء الراشدين، والأئمة المجتهدين، والعلماء العاملين من أجيال السلف الصالح من هذه الأمة، إذن فليس هذا المشرب في أعلى المراتب واسماها، بل قد يكون ذا علو إلاّ أنه ناقص في علوه، وقد يكون ذا حلاوة مغرية ولكنه لاذع المذاق. ولظاهر حلاوته، ولجمال إيحائه لا يرغب الداخلون فيه في الخروج منه؛ ويتوهمون -باستشرافات نفوسهم-أنه أعلى المراتب وأسماها''.[10]

تقييم وحدة الوجود وترتيب درجة المعرفة:

قرر الأستاذ بديع الزمان، رحمه الله، في غير موضع من رسائل النور، أن المعرفة الصوفية القائمة على القول بوحدة الوجود، ناقصة، لأنها ''حال'' و ''مشرب'' ذلك أن الأولوية دائما هي للمعرفة الشرعية القرآنية يقول:

''أما وحدة الوجود فهي مشرب ونزعة وحال وهي مرتبة ناقصة، ولكن لكونها مشرّبة بلذة وجدانية ونشوة روحية فإن معظم الذين يحملونها أو يدخلون إليها لا يرغبون في مغادرتها فيبقون فيها، ظانين أنها هي المرتبة الأخيرة التي لا تسمو فوقها مرتبة ولا يطالها أفق''.[11]

لذلك يفضّل هو المعرفة القرآنية الإيمانية يقول:

''إن المعرفة الناتجة عن طريق التصوف أيضا ناقصة ومبتورة بالنسبة نفسها أمام المعرفة التي استقاها ورثة الأنبياء من القرآن الكريم مباشرة، ذلك لأن ابن عربي يقول ''لا موجود إلاّ هو'' لأجل الحصول على الحضور القلبي الدائم، أمام الله سبحانه وتعالى، حتى وصل به الأمر إلى إنكار وجود الكائنات.

أما الآخرون فلأجل الحصول على الحضور القلبي أيضا قالوا: ''لا مشهود إلاّ هو'' وألقوا ستار النسيان المطلق على الكائنات واتخذوا طوراً عجيباً''.[12]

ولقد عدّ الأستاذ بديع الزمان كتاباته طريقا إلى المعرفة القرآنية، ومدخلا إليها، بعدما لاحظ الخلل عند المتكلمين والصوفية. يقول جوابا عن سؤال عن أشكال المعرفة الكلامية العقلية، والمعرفة الصوفية الباطنية، مصوَّر في صورةِ كلامٍ دار بين فخرالدين الرازي، المتكلم السنّي، ومحيي الدين بن عربي، شيخ الصوفية:

"إن الذي دعا محي الدين بن عربي إلى أن يقول هذا الكلام لفخر الدين الرازي وهو إمام من أئمة الكلام هو: إن ما بيّنه أئمة أصول الدين وعلماء الكلام فيما يخص العقائد ووجود الله سبحانه وتوحيده غير كاف في نظر ابن عربي.

حقاً! إن معرفة الله المستنبطة بدلائل علم الكلام ليست هي المعرفة الكاملة، ولا تورث الاطمئنان القلبي، في حين أن تلك المعرفة متى ما كانت على نهج القرآن الكريم المعجز، تصبح معرفة تامة وتسكب الاطمئنان الكامل في القلب. نسأل الله العلي القدير أن يجعل كل جزء من أجزاء رسائل النور بمثابة مصباح يضئ السبيل القويم النوراني للقرآن الكريم".[13]

إن المعرفة التي يدعو إليها الأستاذ ليست هي المعرفة الصوفية الباطنية، ولا هي المعرفة الكلامية العقلية. بل هي المعرفة الناتجة عن التدبر الدائم في القرآن الكريم. يقول:

"المعرفة المستقاة من القرآن الكريم تمنح الحضور القلبي الدائم، فضلاً عن أنها لا تقضي على الكائنات بالعدم ولا تسجنها في سجن النسيان المطلق، بل تنقذها من الإهمال والعبثية وتستخدمها في سبيل الله سبحانه، جاعلة من كل شيء مرآة تعكس المعرفة الإلهية وتفتح في كل شيء نافذة إلى المعرفة الإلهية".[14]

المعرفة الصوفية من الرؤية إلى الرؤيا: لمن حقُّ التأويل والتعبير والتشريع؟

لاشك في أن المعرفة الإنسانية أنماط وأشكال؛ فمنها الديني، ومنها الباطني الصوفي، ومنها الفلسفي، ومنها العلمي. ولكلّ منها حدود ودوائر. وقد تتداخل أحيانا، فيقع الائتلاف بينها، وقد يقع التصادم والتناقض بينها. إن هذا التداخل بين الحدود والدوائر، مثلما قد لاحظنا أنه حاصل بين المعرفة الشرعية، القائمة على الكتاب والسنة، واجتهادات العلماء، وبين المعرفة الصوفية الباطنية، القائمة على الاستغراق في العشق والرياضة، قد حصل كذلك بين المعرفة الباطنية والأسطورية، التي يقدمها ابن عربي وبين المعرفة العلمية. يصوّر هذا التداخل السؤال الذي سئل إياه الأستاذ النورسي عن مشاهدات ابن عربي والجيلي الصوفية الأسطورية، ونصه:

"إن أولياء مشهورين أمثال الشيخ محي الدين بن عربي -قدس سره- صاحب

كتاب ''الفتوحات المكية'' والشيخ عبد الكريم الجيلي -قدس سره- صاحب كتاب ''الإنسان الكامل'' يبحثون في طبقات الأرض السبع، وفي الأرض البيضاء خلف جبل قاف، وفي أمور عجيبة كالمشمشية -كما في الفتوحات- ويقولون: لقد رأينا! فهل ما يقولونه صدق وصواب؟ فإن كان هكذا فليس في أرضنا مثل ما يقولون! والجغرافية والعلوم الحاضرة تنكر ما يقولونه! وإن لم تكن أقوالهم صواباً فكيف أصبحوا أولياء صالحين، إذ كيف يكون من ينطق بمثل هذه الأقوال المخالفة للواقع المشاهد والمحسوس والمنافية للحقيقة، من أهل الحق والحقيقة!''.[15]

إن هذا السؤال العلمي الطابع، لم يشأ الأستاذ النورسي أن يذهب هدراً. بل أجاب عنه، محاولاً أن يجعل التوازن قائما أبداً بين المعرفة الصوفية وبين المعرفة العلمية، وألاّ تطغى إحداهما على الأخرى. لقد كان من السهل على الأستاذ أن يسفّه كتابات الجيلي وابن عربي، وأن يضرب بها عرض الحائط، ويقول بتخريفيتها، ليبني دولة العلم على أنقاض دولة الباطن. لقد اعترف لهم الأستاذ بصحة ما رأوا حالة استغراقهم وسُكرهم، أي ذهولهم عن العالم، ولم ينكره، وأثبت لهم الولاية وصححها لهم، ولم يجعل التناقض الظاهر بين كلامهم وبين الحصائل العلمية سبباً في الطعن فيهم، وفي حقيقية المعرفة الصوفية. لكنه أنكر عليهم حق تأويل رؤيتهم وتجربتهم الروحانية. يقول:

''إنهم من أهل الحق والحقيقة، وهم أيضا أهل ولاية وشهود، فما شاهدوه فقد رأوه حقاً، ولكن يقع الخطأ في قسم من أحكامهم، في مشاهداتهم في حالة الشهود التي لا ضوابط لها ولا حدود، وفي تعبير رؤيتهم الشبيهة بالرؤى التي لا حق لهم في التعبير عنها.

إذ كما لا يحق لصاحب الرؤيا التعبير عن رؤياه بنفسه، فذلك القسم من أهل الشهود والكشف ليس لهم الحق أن يعبروا عن مشاهداتهم في تلك الحالة، حالة الشهود. فالذي يحق له التعبير عن تلك المشاهدات إنما هم ورثة الأنبياء من العلماء المحققين المعروفين بالأصفياء. ولا ريب أن أهل الشهود هؤلاء عندما يرقون إلى مقام الأصفياء سيدركون خطأهم بأنفسهم بإرشاد الكتاب والسنة ويصححونها. وقد صححها فعلاً قسم منهم''.[16]

إن التجربة الصوفية عند الأستاذ يصححها القرآن والسنة، وليس للصوفي إلاّ أن

يعبّر عن تجربته. لكن ليس له أن يؤوّلها، ولا أن يحوّلها إلى معرفة شرعية أو علمية. إن المعرفة الصوفية عنده إلى الرؤيا أقرب منها إلى الرؤية. لذلك يجب أن توزن دائما بميزان القرآن والسنة، أو ميزان الشرع. يقول:

''فما يرونه صدق وحقيقة، ولكن لأن عالم المثال شبيه صورةً بالعالم المادي، فهم يرونهما -أي العالمين كليهما- ممزوجين معاً. فيعبّرون عما يشاهدون كما هو. ولكن لأن مشهوداتهم غير موزونة بموازين الكتاب والسنة، ويسجلونها كما هي في كتبهم عندما يعودون إلى عالم الصحو، فإن الناس يتلقونها خلاف الحقيقة''.[17]

إن الميزان عنده هو الكتاب والسنة. وهذان إنما يزن بهما ''الأصفياء'' أي العلماء المحققون الكبار.

إن مرتبة المعرفة الصوفية هي إذن دائما دون المعرفة الشرعية. وإن الأولوية هي دائما للصفيّ على الولي. يقول:

''يُفهم من هذه المسألة: أن درجة الشهود أوطأ بكثير من درجة الإيمان بالغيب. أي أن الكشفيات التي لا ضوابط لها لقسم من الأولياء المستندين إلى شهودهم فقط، لا تبلغ أحكام الأصفياء والمحققين من ورثة الأنبياء الذين لا يستندون إلى الشهود بل إلى القرآن والوحي، فيصدرون أحكامهم حول الحقائق الإيمانية السديدة. فهي حقائق غيبية إلا أنها صافية لا شائبة فيها. وهي محددة بضوابط، وموزونة بموازين.

إذن فميزان جميع الأحوال الروحية والكشفيات والأذواق والمشاهدات إنما هو: دساتير الكتاب والسنة السامية، وقوانين الأصفياء والمحققين الحدسية''.[18]

بل إن الولاية الكبرى هي الولاية التي تصدر عن المعرفة الشرعية، لا عن المعرفة الباطنية. إنها ولاية الأصفياء، أي علماء الصحابة والتابعين وآل البيت والمجتهدين من أهل السنة والجماعة، أي السلف الصالح. يقول:

''إذن فالصراط المستقيم، بل صراط الولاية الكبرى إن هو إلاّ طريق الصحابة والأصفياء والتابعين وأئمة أهل البيت والأئمة المجتهدين وهو الطريق الذي سلكه التلاميذ الأوَل للقرآن الكريم''.[19]

وقد قرر أنهم أفضل من أهل وحدة الوجود المتأخرين. ولقد سمّى عقيدة هؤلاء: الجادة الكبرى: وهي البديل عنده لمشرب الوحدة. يقول عن توحيد السلف:

''نعم! إن الصراط المستقيم لهو طريق الصحابة والتابعين والأصفياء الذين يرون أن 'حقائق الأشياء ثابتة' وهي القاعدة الكلية لديهم، وهم الذين يعلمون أن الأدب اللائق بحق الله سبحانه وتعالى هو قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾الشورى:١١ أي أنه منزّه عن الشبيه والتحيز والتجزؤ. وأن علاقته بالموجودات علاقة الخالق بالمخلوقات.

فالموجودات ليست أوهاماً كما يدّعي أصحاب وحدة الوجود، بل هذه الأشياء الظاهرة هي من آثار الله سبحانه وتعالى.

إذن فليس صحيحاً قولهم ''همه اوست'' اي ''لا موجود إلا هو'' وانما الصحيح ''همه از اوست'' أي ''لا موجود الاّ منه'' ذلك لأن الحادثات لا يمكن أن تكون القديم نفسه، أي أزلية''.[20]

إن توحيد هؤلاء هو ما يسميه بالمرتبة العظمى. يقول:

''أما مرتبة التوحيد العظمى التي يراها بصراحة القرآن، الأولياء العظام، أعني الأصفياء الذين هم أهل الصحو وأهل وراثة النبوة، فإنها مرتبة رفيعة عالية جداً، إذ تفيد المرتبة العظمى للربوبية والخلاّقية الإلهية، وتبين أن جميع الأسماء الحسنى هي أسماء حقيقية، وهي تحافظ على الأسس من دون إخلال بموازنة أحكام الربوبية''.[21]

لقد كان بحثنا هذا مقتصراً على تحليل كلام الأستاذ بديع الزمان في خصوص مذهب ابن عربي الأندلسي ومن لفّ لفّه من أهل وحدة الوجود، مع تجنب ما قاله الناس في ابن عربي، حتى يكون عملنا منهجيا لا إسقاطيا. وحاولنا قدر الإمكان ألاّ نحمّله ما لا يحتمل، وأن نتفهم طبيعة موقف الأستاذ من ''مشرب'' الوحدة. فعسى ألاّ نكون قد أسأنا الفهم والتحليل والاستنتاج، فنكون قد ظلمنا الأستاذ ومشرب وحدة الوجود. والله الموفق.

* * *

الهوامش:

[1] اللمعات : ٦١ مثلا
[2] اللمعات :٦١
[3] المكتوبات:٥٧٩
[4] اللمعات :٦٢
[5] اللمعات: ٦١
[6] اللمعات: ٦٤
[7] المكتوبات:١٠٦
[8] اللمعات: ٦٢
[9] اللمعات :٦٤
[10] المكتوبات: ٥٧٩
[11] المكتوبات: ١٠٥
[12] المكتوبات : ٤٢٤
[13] نفسه
[14] نفسه
[15] المكتوبات:١٠١
[16] المكتوبات: ١٠٢
[17] المكتوبات : ١٠٤
[18] المكتوبات : ١٠٥
[19] المكتوبات: ١٠٨
[20] المكتوبات :١٠٦
[21] اللمعات : ٦٢

بديع الزمان النورسي
من برزخ التصوف إلى معراج القرآن

أ.د. فريد الأنصاري رحمه الله[1]

مقدمة:

ككل علماء عصره انطلق بديع الزمان سعيد النورسي -رحمه الله- في طلبه للعلم الرباني والمعرفة القلبية من مدارج التصوف وقواعده. فقد تتلمذ بدء أمره على يد الشيخ سيد نور محمد النقشبندي[2] وذلك سنة: ١٨٨٨م/١٣٠٦هـ، أي أوائل القرن الرابع عشر الهجري. بل إن الثقافة العامة آنئذ لم تكن تنفصل عن المفاهيم الصوفية، بما في ذلك سائر العلوم الشرعية، التي تلقاها عن عدد من العلماء، من فقه، وأصول، وحديث، ولغة، وكلام ... إلخ. فرغم استقلال هذه العلوم بعضها عن بعض؛ فقد كان التصوف هو اللحمة الجامعة لأدب الطلب، وأخلاق التعلم، كما كان هو القانون المنظم للعلاقة بين الشيخ والتلميذ.

ومن هنا لم يزل رحمه الله يجل التصوف ويقدر مشايخه رغم ما طرأ على حياته العلمية والدعوية من تحولات. وقد سئل عن ذلك بعدما انتشرت رسائل النور وتميز منهجها القرآني، فقال: ''إن غاية' الطريقة'وهدفها هو معرفة الحقائق الإيمانية والقرآنية، ونيلها عبر السير والسلوك الروحاني في ظل المعراج الأحمدي وتحت رايته، بخطوات القلب، وصولا إلى حالة وجدانية وذوقية بما يشبه الشهود. فالطريقة والتصوف سر إنساني رفيع، وكمال بشري سام.''[3] فبديع الزمان لم يسجل قطيعة ''ابستمولوجية'' مع الفكر الصوفي؛ بما يجعله وإياه على طرفي نقيض. وإنما الذي يمكن قوله: هو أنه جدد الفكر الصوفي نفسه؛ بمحاولة إعادة إنتاج الحقائق القلبية الإيمانية، لا بواسطة هياكل الطريقة وقواعدها، من مشيخة، وبيعة، وأوراد قولية وفعلية،

ولكن إنتاجه الإيماني كان ينطلق بصورة مباشرة من نبع القرآن الفياض. حيث إنه لم يستمر انضباطه لنظام المشيخة بمفهومها الصوفي. فبعد حصول التحولات المشهودة في حياته الإيمانية ترك الطرق وأربابها، والمشيخة وأشكالها. فلم ينصبها أمامه بعدُ في سيره إلى الله، ولا هو انتصب لها. ولا أنتج طريقة جديدة كما هو معهود في نظام الطرق الصوفي في العصور المتأخرة. وإنما صار بما سلكه من منهج قرآني شأنا آخر.

ذلك أن أحواله رحمه الله سرعان ما تطورت؛ بما تطور من حوادث في عصره، وبما وجد من قوى باطنة في نفسه، توجهه توجيها وتدفعه بقوة إلى سلوك مسلك جديد؛ فوجد نفسه مطلوبا لهمة أخرى غير التربية الصوفية بمعناها التقليدي.

ومن هنا انطلق فاتحا مسلكا جديدا في مجال تجديد الدين بهذا العصر، دون أن يحدث قطيعة كاملة مع مفاهيم الصوفية ومصطلحاتهم بل حتى قواعدهم في التربية والتوجيه.

الفصل الأول

المنهج النوري بين مقولات التصوف ومفاهيم القرآن

لقد كانت التحولات في حياة بديع الزمان تستجيب لعدة اعتبارات منها ما هو ذاتي، يرجع إلى طبيعة الرجل وخصائصه الذاتية. ومنها ما هو موضوعي يرجع إلى طبيعة التحولات العالمية والمحلية الواقعة يومئذ.

فبديع الزمان له طبيعة متأبية على المقولات والمفاهيم. فليس من النوع الذي يتلقى الحقائق بلا اقتناع. فهو ذو شخصية تفكرية وتحققية يقلب النظر فيما حوله بلا انقطاع. ومعلوم أن التصوف في زمانه وصل إلى حالة مزرية، فيما يتعلق بمنهج التربية وطبيعة السلوك، فأنتج مفارقات كبرى بين القول والعمل، ودعاوى عريضة؛ بما حصل من قطيعة لدى كثير من أهله بين الحقيقة والشريعة، وبما دخله ممن ليس من أهله المتحققين به من بعض الدجاجلة والكذابين، بما أساء إلى التصوف وأهله، وجعل كثيرا ممن لم يتحقق من حقيقته الأصلية يرمي كافة مدارسه عن قوس واحدة.

لم يكن من السهل إذن أن يستقر بديع الزمان على طريقة معينة. وهو الذي استطاع أن يستوعب علوم عصره الدينية، واللغوية، والفلسفية، في مرحلة مبكرة جدا من عمره؛ بما بهر مشايخه وبَزَّ أقرانه![4]

بل ربما يمكن القول: إن شخصيته كانت أقوى من أن تخضع له هو نفسه! لقد كان يجد نفسه يمضي إلى قدره الذي خلق من أجله بقوة لا يستطيع مقاومتها! قال رحمه الله: ''لقد تحقق لديّ يقيناً أن أكثر أحداث حياتي، قد جرت خارجة عن طوق اقتداري وشعوري وتدبيري! إذ أُعطي لها سَيْرٌ مُعَيَّنٌ، ووُجّهت وجهةً غريبةً؛ لتنتج هذه الأنواع من الرسائل التي تخدم القرآن الحكيم. بل كأن حياتي العلمية جميعها بمثابة مقدمات تمهيدية؛ لبيان إعجاز القرآن بـ 'الكلمات'.[5]

وأما ما يتعلق بالجانب الموضوعي وأثره في توجهه الفكري والوجداني؛ فقد كان للتحولات العالمية والمحلية الكبرى الواقعة يومئذ؛ بما صاحبها من حركات سياسية واجتماعية وفكرية أثر كبير في رسم معالم منهجه التجديدي. ذلك أن الانهيارات الكبرى التي عرفتها الدولة العثمانية، وما نخر جسم الخلافة الإسلامية من وهن وضعف، وما أبصره النورسي بنظره الثاقب من كيد الأعداء في الداخل والخارج، وما صاحب ذلك كله من انهيار كثير من القيم وزحف فلسفة الإلحاد على العالم الإسلامي، مع بداية قيام الثورة البلشفية في روسيا ونشوء الاتحاد السوفياتي، ثم قيام الدولة العلمانية وما قامت به من حملات استئصالية رهيبة لكل ما يرمز إلى الدين شكلا ومضمونا، ثم فشل المحاولات التي قادها مشايخ معاصرون لها لإعادة الأمور إلى نصابها بالقوة، أو بالدروشة. كل ذلك جعله يرفع صوته مبادرا إلى استلام زمام المبادرة، وركوب حصان الطليعة؛ لخوض غمار التحدي بالقرآن، قائلا قولته المشهورة: ''إن هذا الزمان ليس زمان الطريقة الصوفية بل زمان إنقاذ الإيمان!''[6] مقررا بكل ثقة أن: ''إنقاذ الإيمان أعظم إحسان في هذا الزمان!''[7]

فالمشروع التجديدي لبديع الزمان النورسي هو على المستوى المنهجي مقارب للتصوف ومفارق له في الآن ذاته. وبيان ذلك يتضح بالمقارنات التالية:

أ- المعرفة القرآنية ضرورية والمعرفة الصوفية فاكهة:

ذلك أن التصوف في تصور النورسي رحمه الله –بالنظر إلى ظروف عصره- إنما هو ضرب من الترف الروحي! ذلك أن حاجة العصر هي التي تحدد قيمة المفاهيم وأولويتها؛ ومن هنا كان نظر بديع الزمان إلى سائر المناهج الإصلاحية مبنيا على مدى نجاعتها بالنسبة لحال الزمان وأهله. وقد نقل الأستاذ النورسي كلاما عن الشيخ شاه نقشبند مؤسس الطريقة النقشبندية ثم علق عليه بمقارنات لطيفة، وبأدب جم رفيع،

فخرج بمعادلات تربوية ذات بعد منهجي متوازن، تدل على قبوله للفكر الصوفي من جهة، وتجاوزه له من جهة ثانية؛ بناء على معطيات العصر الموصوفة قبل، وما تفرضه من أولويات.

قال رحمه الله: ''لقد قال رائد السلسلة النقشبندية وشمسها الإمام الرباني ﷺ في مؤلفه ''مكتوبات'': ''إنني أرجّح وضوح مسألة من الحقائق الإيمانية وانكشافها على آلاف من الأذواق والمواجيد والكرامات.''[8] وقال أيضا: ''إن منتهى الطرق الصوفية كافة هو وضوح الحقائق الإيمانية وانجلاؤها.''[9] وقال كذلك: ''إن الولاية ثلاثة أقسام: الولاية الصغرى: وهي الولاية المشهورة. وقسم ثان: هو الولاية الوسطى. وقسم ثالث: هو الولاية الكبرى. هذه الولاية الكبرى هو فتح الطريق إلى الحقيقة مباشرة، دون الدخول في برزخ التصوف. وذلك بوساطة وراثة النبوة.''[10] وقال أيضاً: ''إن السلوك في الطريقة النقشبندية يسير على جناحين، أي الاعتقاد الصحيح بالحقائق الإيمانية، والعمل التام بالفرائض الدينية. فإذا ما حدث خلل وقصور في أي من هذين الجناحين يتعذر السير في ذلك الطريق''.[11]

بمعنى أن الطريقة النقشبندية [يقول بديع الزمان] لها ثلاثة مشاهد:

''أولها وأسبقها وأعظمها: هو خدمة الحقائق الإيمانية خدمة مباشرة، تلك الخدمة التي سلكها الإمام الرباني في أخريات أيامه.

الثاني: خدمة الفرائض الدينية والسنة النبوية، تحت ستار الطريقة.

الثالث: السعي لإزالة الأمراض القلبية، عن طريق التصوف والسير بخطى القلب.

فالأول من هذه الطرق هو بحكم الفرض، والثاني بحكم الواجب، والثالث بحكم السنة.

فما دامت الحقيقة هكذا: فإني إخال أن لو كان الشيخ عبد القادر الكيلاني، والشاه النقشبند[12] والإمام الرباني[13] وأمثالهم من أقطاب الإيمان -رضوان الله عليهم أجمعين- في عصرنا هذا؛ لبذلوا كل ما في وسعهم لتقوية الحقائق الإيمانية والعقائد الإسلامية؛ ذلك لأنهما منشأ السعادة الأبدية، ولأن أي تقصير فيهما يعني الشقاء الأبدي!

نعم؛ لا يمكن دخول الجنة من دون إيمان، بينما يدخلها الكثيرون جداً دون

تصوف. فالإنسان لا يمكن أن يعيش دون خبز، بينما يمكنه العيش دون فاكهة. فالتصوف فاكهة، والحقائق الإسلامية خبز."[14]

هكذا إذن يصبح التصوف بالنسبة للنورسي -في زمن الانهيارات الكبرى- مجرد فاكهة. والعمل الضروري عنده إنما هو قائم على التشمير عن ساعد الكدح؛ لاستخراج حقائق الإيمان مباشرة من القرآن العظيم، والسير بها في الآفاق مربيا ومعلما. فكانت رسائل النور هي تلك النتيجة النورية التي سلطها النورسي على ظلمات العصر فانفجرت بشعاعات لا تنتهي من الأجيال القرآنية التي تتحدى فلسفات العصر، وكل ضروب العلمانية الزاحفة!

لقد أشبهت حالة بديع الزمان النورسي -إلى حد ما- حالة متصوفة الصدر الأول، من أمثال الإمام الجنيد والحارث بن أسد المحاسبي وأضرابهما، ممن لم يشتغلوا بالألقاب والأقطاب، ولا حتى التزموا شيخا معينا على التحديد دون سواه؛ في سيرهم إلى الله، وإنما التزموا سنة الرسول ﷺ في مجمل عبادته. فتحققوا بالمعاني الكبار من حقائق القرآن، عند ولوج معارجه بين سبحات الليل والنهار.

ومن هنا فقد ألغى -رحمه الله- وسائط المشايخ، وتتلمذ على النبي ﷺ في سيره إلى الله. وهي مرتبة أعلى في سلم مراتب الولاية، كما بينه في النص المذكور، نقلا عن الإمام السرهندي. أعني قوله: "والولاية الكبرى: هو فتح الطريق إلى الحقيقة مباشرة، دون الدخول في برزخ التصوف، وذلك بوساطة وراثة النبوة."

ومن هنا كان العنصر الثاني في هذه المقارنة النورية هو:

ب- المعرفة القرآنية مباشِرَةٌ والمعرفة الصوفية برزخية:

والبرزخ المعرفي إنما هو فاصل نفساني، أو ممر روحاني خاص، تَعْبُرُهُ الحقائق؛ فلا بد إذن أن تتأثر المعارف بطبيعته، ولا يمكنها أن تحافظ على أصالتها، وفطرتها الأولى، كما كانت في الأصل. فالمفاهيم عندما تُتَلَقَّى من معراج القرآن لحظةَ المشاهدة القلبية لحقائقه الإيمانية؛ تكون أوضح وأصفى، لكنها على غير تلك الصورة من الوضوح؛ إذا ما تُلقيت عبر البرزخ الصوفي؛ لما يخالطها من الارتجاجات الإنسانية، ولما يحجبها من حُجُبِ المسافة النفسانية على حسب مقام الشخص المتلقي وحاله. ولقد درسنا مفهوم التوحيد كما تلقاه بديع الزمان النورسي عبر

المعراج القرآني، مقارَناً بما رسمه أهل الأحوال والمقامات من معان؛ فكان الأمر – كما عبر عنه هو نفسه رحمه الله– في غاية التمايز؛ لما بين المسلكين من فروق دقيقة قد لا تُرى بادئ النظر.

وذلك أنه سئل –رحمه الله– كيف ''أن علماء الكلام يثبتون 'التوحيد' بعد ظهورهم ذهنا على العالم كله، الذي جعلوه تحت عنوان الإمكان والحدوث؟ وإن قسما من أهل التصوف لأجل أن يغنموا بحضور القلب واطمئنانه، قالوا: 'لا مشهود إلا هو'، بعد أن ألقوا ستار النسيان على الكائنات، وقسم آخر منهم قالوا: 'لا موجود إلا هو' وجعلوا الكائنات في موضع الخيال، وألقوها في العدم؛ ليظفروا بعد ذلك بالاطمئنان، وسكون القلب. ولكنك تسلك مسلكا مخالفا لهذه المشارب، وتبين منهجا قويما من القرآن الكريم، وقد جعلت شعار هذا المنهج: 'لا مقصود إلا هو'، 'لا معبود إلا هو'! فالرجاء أن توضح لنا باختصار برهانا واحدا يخص 'التوحيد' في هذا المنهج القرآني!

– الجواب: إن جميع ما في 'الكلمات'، و 'المكتوبات'، يبين ذلك المنهج القويم (...) إن كل شيء في العالم يُسنِدُ جميع الأشياء إلى خالقه، وإن كل أثر في الدنيا يدل على أن جميع الآثار هي من مؤثره هو (...) أي أن كل شيء هو برهان وحدانية واضح، ونافذة مطلة على المعرفة الإلهية؛ (...) لأن القانون الساري في الموجودات هو سلسلة تشد جميعها، بعضها ببعض، والأفعال مرتبطة به (...) ذلك لأن الأسماء المتجلية في الكون متداخل بعضها في بعض، كالدوائر المتداخلة، وألوان الضوء السبعة. كل منها يسند الآخر ويمده، كل منها يكمل أثر الآخر ويزينه!''.[15]

إن تجلي الأسماء في الموجودات هو الخاتم، أو السكة، أو الطغراء، التي تدل على المعرفة الإلهية، جوهر''التوحيد الحقيقي''. ولقد بينا ولع النورسي بتتبع هذا المعنى في تحقيق التوحيد.[16] لا يكاد يذكر هذا إلا من خلال ذاك! قال مثلا: ''إن للصانع جل جلاله على كل مصنوع من مصنوعاته 'سكة'، خاصة بمن هو خالق كل شيء! وعلى كل مخلوق من مخلوقاته 'خاتم'، خاص بمن هو صانع كل شيء! وعلى كل منشور من مكتوبات قدرته 'طغراء' غراء لا تقلد، خاص بسلطان الأزل والأبد!''[17] ومثله قوله: ''وأما التوحيد لأهل الحقيقة؛ فإنما يَثْبُتُ بأن يُثْبَتَ كل شيء مما يشاهد من الأشياء ويسنده إليه سبحانه، ويرى فيه سكته، ويقرأ عليه خاتمه جل جلاله. وهذا الإثبات يثبت الحضور، وينافي الغفلة!''[18]

فالمفاهيم الروحية كما يعرضها النورسي إنما يتلقاها في حال اليقظة، لا في حال المحو والسكر، كما يعبر القوم. فاليقظة عنده أكمل من السكر، والحضور أقوى من الغياب، على عكس ما هو موجود عند غيره. ذلك أن ''طريق القرآن'' عنده - رحمه الله – تسلك بالعبد إلى ربه عبر نفسه الواعية، اليَقِظَةِ؛ من خلال مسلك الوجود. وذلك كمال الابتلاء وكمال التوحيد. فالعبد الذي يستوعب الوجود حوله بتعدده وتنوعه، فلا يفقد بوصلة السير إلى الله الواحد؛ هو العبد الأكمل. فإذا بالكائنات جميعها بين يديه مجالس ذكر تسير بسيره إلى الله. فلا ينبغي أن يفتنه شيء في ذلك كله عن ربه، بل يجب أن يجد كل شيء منعكسا عن أنوار الأسماء الحسنى. ومن هنا لم يكن طريق القرآن يضطر إلى محو الوجود كما يفعل أهل الشطحات القائلين بوحدة الوجود. نعم! ذلك هو طريق القرآن.

قال رحمه الله في بيان عجيب، تُشد إلى مثله الرحال: ''إن هذا الطريق أَسْلَمُ من غيره؛ لأن ليس للنفس فيه شطحات، أو ادعاءات فوق طاقتها؛ إذ المرء لا يجد في نفسه غير العجز، والفقر، والتقصير، حتى لا يتجاوز حده. ثم إن هذا الطريق طريق عام وجادة كبرى، لأنه لا يضطر إلى إعدام الكائنات، ولا إلى سجنها، حيث إن أهل 'وحدة الوجود' توهموا الكائنات عدماً، فقالوا: 'لا موجود إلا هو' لأجل الوصول إلى الاطمئنان والحضور القلبي. وكذا أهل 'وحدة الشهود' حيث سجنوا الكائنات في سجن النسيان، فقالوا: 'لا مشهود إلا هو' للوصول إلى الاطمئنان القلبي.

بينما القرآن الكريم يعفي الكائنات بكل وضوح عن الإعدام، ويطلق سراحها من السجن. فهذا الطريق على نهج القرآن ينظر إلى الكائنات أنها مسخرة لفاطرها الجليل، وخادمة في سبيله، وأنها مظاهر لتجليات الأسماء الحسنى، كأنها مرايا تعكس تلك التجليات. أي أنه يستخدمها بالمعنى الحرفي، ويعزلها عن المعنى الاسمي، من أن تكون خادمة ومسخرة بنفسها. وعندها ينجو المرء من الغفلة، ويبلغ الحضور الدائمي على نهج القرآن الكريم. فيجد إلى الحق سبحانه طريقاً من كل شيء''.[19]

ذلك إذن؛ وجه من وجوه الفرق ما بين البرزخية الصوفية والمعراج القرآني المباشر. وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن المعرفة الصوفية عند بديع الزمان - رغم ما كان يكنه لها من احترام- معرفة قائمة على منهج المغامرة، وذلك بما هي معرفة ناقصة غير كاملة، وبما يشوبها من تدخل الذات الإنسانية وأحوالها. فهي لذلك في حاجة إلى تأمين. وإنما تأمينها هو ''المعراج القرآني''. وبيان ذلك هو كما يلي:

ج- المعرفة القرآنية مضمونة مأمونة والمعرفة الصوفية مغامرة:

وقد بين بديع الزمان هذه الحقيقة المنهجية، بما يكفي ويشفي، وذلك في سياق الجواب عن سؤال وجه إليه في موضوع ''منهج المعرفة''، بمعناه ''الابستيمولوجي''، عندما سئل في سياق المقارنة بين المتصوفة وعلماء الكلام: (ماذا يعني محيي الدين بن عربي عندما قال في رسالته الموجهة إلى فخر الدين الرازي: ''إن معرفة الله غير معرفة وجوده.'' وما قصده منه؟

فقال رحمه الله مجيبا: ''إن الذي دعا محيي الدين بن عربي إلى أن يقول هذا الكلام لفخر الدين الرازي -وهو إمام من أئمة الكلام- هو: أن ما بيَّنَهُ أئمة أصول الدين وعلماء الكلام فيما يخص العقائد، ووجود الله سبحانه، وتوحيده، غير كاف في نظر ابن عربي.

حقاً! إن معرفة الله المستنبطة بدلائل علم الكلام ليست هي المعرفة الكاملة، ولا تورث الاطمئنان القلبي، في حين أن تلك المعرفة متى ما كانت على نهج القرآن الكريم المعجز، تصبح معرفة تامة، وتسكب الاطمئنان الكامل في القلب. نسأل الله العلي القدير أن يجعل كل جزء من أجزاء رسائل النور بمثابة مصباح، يضيء السبيل القويم النوراني للقرآن الكريم.

ثم إن معرفة الله التي استقاها الرازي من علم الكلام، كما تبدو ناقصة وقاصرة في نظر ابن عربي؛ فان المعرفة الناتجة عن طريق التصوف أيضاً ناقصة ومبتورة -بالنسبة نفسها- أمام المعرفة التي استقاها ورثة الأنبياء من القرآن الكريم مباشرة.''[20]

وهذا ما يسبب وجود ''المغامرة المعرفية'' في المنهج الصوفي، كما هو الشأن في المناهج الإنسانية الأخرى كعلم الكلام والفلسفة؛ بما يجعلها جميعها ''ليست مصونة من الشبهات والأوهام''. على حد تعبير النورسي، كما سترى بحول الله.

إن السباحة في محيطات الروح أمر صعب جدا! لِمَا في ذلك من إبحار في عالم الغيب. وواضحٌ أن الدخول إلى مثل تلك العوالم بغير صحبة دليلٍ خريت: يعني الهلكة! ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلاً﴾.[الإسراء:٨٥] والدليل الحق عند النورسي إنما هو القرآن. لأن القرآن هو المفتاح المفسر لكتاب العالَم، من البحر المسجور إلى البيت المعمور! ومن دركات النفس

الإنسانية إلى درجات الملائكة العندية! فمن ذا يدعي أنه أهل للدلالة على محجة تلك الطريق؟ إذن لا يكون إلا صاحب دعوى عريضة، أو أسير أهواء مريضة! إن الخرائط التي ترسمها النفس الإنسانية لمدارج الروح -بمجرد تذوقاتها الشخصانية، غير المبينة على علم بكتاب الله، وسنة سيدنا رسول الله ﷺ- ليست سوى خرائط وهمية، قد تشابه الحقيقة؛ ولكنها لا تقاربها! لأنها تسير في طريقها بغير تأمين ولا ضمان!

قال بديع الزمان: ''إن أصول العروج إلى عرش الكمالات -وهو معرفة الله جل جلاله- أربعة:

- أولها: منهاج علماء الصوفية، المؤسس على تزكية النفس، والسلوك الإشراقي.

- ثانيها: طريق علماء الكلام المبني على الحدوث والإمكان (...).

- ثالثها: مسلك الفلاسفة.

هذه الثلاثة ليست مصونة من الشبهات، والأوهام!

- رابعها: المعراج القرآني الذي يعلنه ببلاغته المعجزة، فلا يوازيه طريق في الاستقامة والشمول، فهو أقصر طريق وأوضحه، وأقربه إلى الله، وأشمله لبني الإنسان. ونحن قد اخترنا هذا الطريق!''[21]

- إن الضمان والأمان الذي تفتقد إليه المعرفة الصوفية هو الذي يسبب لبعض أربابها كثيرا من الأوهام، والإلقاءات الشيطانية، التي نبها عليه النورسي تلميحا في النص المذكور أعلاه، والتي عبر عنها بعدُ تصريحا في سياق آخر، وذلك عند نقده لما يحصل من فرقة وتعصب بين مختلف الطرق؛ لما يتطرق إلى خواطر بعض المشايخ والمريدين من التخيلات والشطحات، التي تعصف بالطريقة وأهلها، وتجعل السير كله في غير مأمن من الانزلاق بمهاوي الدركات؛ بدل الارتقاء بمنازل الدرجات!

يقول رحمه الله: ''إن بعض المتطرفين من أهل التصوف يظنون خطأً أن 'الإلهام' بمرتبة 'الوحيع'، كما يعتبرون الإلهام نوعاً من أنواع الوحي، فيسقطون في هذا المزلق الخطير. وقد بَرْهَنَّا (...) كيف أن الوحي سام، وعال، وساطع وضاء، وكلي شامل؛ بينما الإلهام بالنسبة إليه جزئي وخافت''.[22] وهذا التوهم هو الذي يدخل الطرق الصوفية في صراع عدمي، بعضها مع بعض؛ بما يخيل إلى بعض أهلها من خصوص لديها ليس لدى غيرها؛ مما ينتج عنه في نهاية المطاف الوقوع فيما سماه النورسي بـ

''الورطة''، وهي تفضيل الطريقة وأورادها الخاصة على الطريقة الأم، أعني السنة المحمدية. قال -رحمه الله- يصف هذه المشكلة المنهجية: ''وهي ترجيح بعض المتطرفين والمتعصبين جداً للطريقة؛ لأوراد طريقتهم وآدابها؛ على أذكار السنة النبوية الشريفة، فيسقطون بذلك في منزلق مخالفة السنة النبوية وتركها، في الوقت الذي يظلون متشبثين بأوراد طريقتهم، أي أنهم يسلكون سلوكَ غير المبالي بآداب السنة النبوية الشريفة، فيهوون في الورطة. وكما أثبتنا في كلمات كثيرة، وكما أكد كبار محققي الطرق، كالإمام الغزالي، والإمام الرباني: ''أن اتباع سنة واحدة من السنن النبوية يكون مقبولاً عند الله أعظم من مائة من الآداب والنوافل الخاصة. إذ كما أن فرضاً واحداً يرجح على ألف من السنن؛ فان سنة واحدة من السنن النبوية ترجح على ألف من آداب التصوف!''[23]

إن المعراج القرآني هو صمام الأمان الذي يقترحه النورسي مسلكا لهذا العصر؛ نظرا للاعتبارات المذكورة أعلاه، سواء على المستوى المنهجي؛ أو على المستوى الذاتي والموضوعي. ومن هنا كانت رسائل النور درسا متخصصا في بيان خصائص هذا المسلك، الذي يرى بديع الزمان أنه مسلك المستقبل الذي به يتجدد عهد الأمة وميثاقها، وبه تكون وحدتها وانبعاثها من جديد.

الفصل الثاني

في خصائص الفكر النوري التربوي

بما أن الفكر النوري قرآني المشرب؛ فإنه يصعب حصر كل خصائصه المنهجية؛ لأنه استصحب أنوار القرآن الكريم في التربية والتبليغ، واعتمد على قواعده في الخطاب عند مواجهة النفس الإنسانية، وبناء النسيج الاجتماعي. بيد أنا ههنا بحول الله سنبقى في سياق المقارنة المنهجية بينه وبين الفكر الصوفي؛ وبهذا تتحدد لنا الخصائص المنهجية الكبرى، فنصوغها في كليات ترجع إليها كثير من الخصائص الفرعية. وعليه؛ فإنه يمكن أن نحصر خصائص الفكر النوري على المستوى التربوي خاصة؛ في ثلاث كليات كبرى، تميز بها عن الفكر الصوفي المعاصر له. وهي كما يلي:

- الصبغة القرآنية

- الشمولية الاستيعابية

- المنهجية التفكرية الكونية

ونعرض الآن -بحول الله- كلَّ واحدة على حدة، بنوع من التفصيل.

أولا- الصبغة القرآنية:

أهم خاصية تميز بها الفكر النوري جملة - بحيث لا تكاد تجد رسالة من رسائله، ولا حدثا في حياته الدعوية، خاصة بعد مرحلة ''سعيد الجديد'' إلا وهي قرآنية المعنى، في كل تجلياتها، من بدايتها إلى نهايتها. ولم تكن رسائل النور في نهاية أمرها غير فيض من حقائق القرآن، كما عبر النورسي نفسه في غير ما مناسبة. وقد سبق نص قوله الصريح: ''إن أكثر أحداث حياتي، قد جرت خارجة عن طوق اقتداري، وشعوري، وتدبيري؛ إذ أُعْطِيَ لها سيرٌ معينٌ، ووُجِّهت وجهةً غريبةً؛ لتنتج هذه الأنواع من الرسائل التي تخدم القرآن الحكيم. بل كأن حياتي العلمية جميعها بمثابة مقدمات تمهيدية؛ لبيان إعجاز القرآن بالكلمات!''[24]

وكأنما هو بذلك يشير إلى ''الرؤيا'' القرآنية التي رآها في صغره، والتي ذكرها أكثر من مرة في رسائله؛ بما يُظهر مدى ما كان لها من الأثر في بناء وجدانه، وتوجيه حياته كلها!

قال رحمه الله تحت عنوان: ''رؤيا صادقة حول إعجاز القرآن:

قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى، وقبل إبّان نشوبها رأيت في رؤيا صادقة الآتي:

رأيت نفسي تحت جبل 'آرارات'.. وإذا بالجبل ينفلق انفلاقاً هائلاً، فيقذف صخوراً عظيمة كالجبال إلى أنحاء الأرض كافة! وبينما أنا في هذه الرهبة التي غشيتني رأيت والدتي -رحمة الله عليها- بقربي. قلت لها: لا تخافي يا أماه! إنه أمر الله، إنه رحيم، إنه حكيم. وإذْ أنا بتلك الحالة؛ إذا بشخص عظيم يأمرني قائلاً:

- بيّن إعجاز القرآن!

أفقتُ من نومي، وأدركتُ أنه سيحدث انفلاق عظيم! وستتهدم الأسوار التي تحيط بالقرآن الكريم؛ من جراء ذلك الانفلاق والانقلاب العظيم! وسيتولى القرآن بنفسه الدفاع عن نفسه! حيث سيكون هدفاً للهجوم، وسيكون إعجازه هو حصنه الفولاذي،

وسيكون شخص مثلي مرشحاً للقيام ببيان نوعٍ من هذا الإعجاز في هذا الزمان -بما يفوق حدّي وطوقي كثيراً- وأدركتُ أني مرشح للقيام بهذا العمل!''[25]

لقد كانت هذه الرؤيا تسكن وجدانه كلَّ عمره. فكلما ألمت به ملمة من مصائب الدهر، أو حلت بأمته؛ إلا وتذكر ذلك ''الأمر'' القرآني الحتمي، الذي تعين في حقه – كما فهم هو -رحمه الله- من رؤياه. فلم يزل كذلك يتردد بين التصورات والمناهج؛ حتى استقر به المطاف على شواطئ ''سعيد الجديد''،[26] ذلك الرجل القرآني بامتياز؛ فكانت ''رسائل النور''، وكانت حركة القرآن تملأ كل مكان!

ومن تأمل تعريف النورسي للقرآن يدرك مدى العمق الذي تغلغل إليه التعامل مع القرآن وبالقرآن في حياة النورسي.

قال رحمه الله: ''فإن قلت: القرآن ما هو؟ قيل لك:

''هو الترجمة الأزلية لهذه الكائنات، والترجمان الأبدي لألسنتها التاليات للآيات التكوينية، ومفسر كتاب العالم.. وكذا هو كشاف لمخفيات كنوز الأسماء المستترة في صحائف السماوات والأرض. وكذا هو مفتاح الحقائق والشؤون المضمرة في سطور الحادثات. وكذا هو لسان الغيب في عالم الشهادة. وكذا هو خزينة المخاطبات الأزلية السبحانية، والالتفاتات الأبدية الرحمانية. وكذا هو أساس وهندسة وشمس لهذا العالم المعنوي الإسلامي. وكذا هو خريطة للعالم الأخروي. وكذا هو قول شارح، وتفسير واضح، وبرهان قاطع، وترجمان ساطع؛ لذات الله وصفاته وأسمائه وشؤونه.

وكذا هو مرب للعالم الإنساني. وكالماء وكالضياء للإنسانية الكبرى التي هي 'الإسلامية'. وكذا هو الحكمة الحقيقية لنوع البشر، وهو المرشد الهادي إلى ما خلق البشر له. وكذا هو للإنسان: كما أنه كتاب شريعة كذلك كتاب حكمة. وكما أنه كتاب دعاء وعبودية كذلك هو كتاب أمر ودعوة. وكما أنه كتاب ذكر، كذلك هو كتاب فكر.

وكما أنه كتاب واحد، لكن فيه كتب كثيرة، في مقابلة جميع حاجات الإنسان المعنوية. كذلك هو كمنزل مقدس مشحون بالكتب والرسائل؛ حتى إنه أبرز لمشرب كل واحد من أهل المشارب المختلفة، ولمسلك كل واحد من أهل المسالك المتباينة، من الأولياء والصديقين، ومن العرفاء والمحققين؛ رسالةً لائقةً لمذاق ذلك المشرب وتنويره، ولمساق ذلك المسلك وتصويره، حتى كأنه مجموعة من الرسائل''.[27]

وقد سبقت لنا دراسة لهذا التعريف أثبتنا فيها شمولية التلقي لحقائق القرآن لدى بديع الزمان؛[28] مما كان له أكبر الأثر في قرآنية فكره وعمله على الإجمال. ذلك أنه رحمه الله ''لم يكن يقصد في بيان 'مفهوم القرآن'؛ إلى صياغة تعريف رسمي أو حدي -على طريقة المناطقة- غايته حصر العقول في معنى ''القرآن'' من حيث هو ''مصحف مكتوب''، بما لا يدع مجالا للخلط بينه وبين غيره، أو تحريفه بالزيادة والنقصان، فتلك غاية تكفل الله بها سبحانه، إذ قال عز وجل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.الحجر:٩ وعلماء القرآن والمفسرون ثم حفاظ الأمة من ورائهم، هم الذين سخرهم الله جل جلاله؛ لتنفيذ هذه المهمة العظيمة. إلا أن بديع الزمان ما كان يسعى إلى هذا، بقدر ما كان يسعى إلى محاولة تعريف ''القرآن'' من حيث هو ''كلام رب العالمين'' المتوجه برسالته إلى الإنسان حامل الأمانة! فكأنه رحمه الله كان يروم تعريف ''القرآن'' من حيث هو مضمون، ومقاصد، لا أحرف ورسوم. بمعنى أنه كان يحاول تعريف القرآن من حيث هو رسالة ربانية، تحدد غاية الوجود البشري في الكون، وتلخص قصة التكوين، وترسم للإنسان مدار فلكه الذي ينبغي له أن يسلكه إلى ربه''.[29]

فبناء على هذا وذاك؛ جعل النورسي حياته كلها خادمة للقرآن، بل سمى نفسه ''خادم القرآن''، وكذا كل تلاميذه إنما هم ''خدام القرآن''. وانطلقت بذلك حركة ''خدمة القرآن'' في الأرض، تبني أركان الأمة، كما بنى إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- أركان البيت، وكما بنى سيدنا محمد ﷺ جيل الصحابة! فكانت ''رسائل النور'' على المنهج نفسه، حركة قرآنية تجديدية، تحيي الموات، وتستبصر ما هو آت! فَلَكَ إنْ أردتَ الاختصار -في وصف حركة النور من حيث وظيفتها- أن تقول: إنها حركة تذويق القرآن.

فكأن النورسي خَادِمٌ سَقَّاء، لا يفتأ يذرع الأرض طولا وعرضا، يحمل كأسا مترعة بحقائق الإيمان، مقطرة تقطيرا من رياحين القرآن، يسقي العطشى.. ولقد كان أمره عجبا: قطرة واحدة من روح القرآن كافية لإرواء صحراء شاسعة من البشرية التائهة في الجحيم! ومن هنا كان الرجل -رحمه الله- يتنقل بين البلاد والعباد، مستجيبا لإرادة الله وعجيب قدرته، مرة منفيا، ومرة سجينا، وأخرى سائحا في ملكوت الله.. فيهب هذا ''قطرة''، وذاك ''رشحة''، والآخر ''شمة''، أو ''نقطة''، أو ''ذرة''، وهكذا..[30] يوزع الأذواق والمواجيد، ويعلم الجيل كيف يتذوق القرآن. حتى إذا حصل له الذوق

الحقيقي؛ وجد نفسه أسير جمال القرآن، فلم يكن له آنئذ إلا أن يذوب في شعاعه الوهاج! ومن ثَمَّ يكون رافدا جديدا من روافد حركة النور.

ثانيا– الشمولية الاستيعابية:

والمقصود بذلك أن بديع الزمان وهو يصوغ خطابه التجديدي كان يضع نصب عينيه الأمة الإسلامية جمعاء، حاضرها ومستقبلها. فلم يكن له قصد إنشاء طريقة تجمع عددا من المريدين وكفى. إذ لا يتصور في أصحاب الطرق أنهم سيجمعون كل الأمة في هذه الطريقة أو تلك، وإنما غاية أحدهم أن تكون طريقته أوسع شيوعا وأكثر اتباعا. أما النورسي فقد كان القصد عنده هو بناء خطاب تجديدي لكل الأمة. ومن هنا قصد أن يُدخل كل الناس في مراد خطابه. وهو بعض معنى مقولته المشهورة المقررة قبلُ: ''إن هذا الزمان ليس زمان الطريقة الصوفية؛ بل زمان إنقاذ الإيمان!''[31]

ولذلك حرص حرصا شديدا على ألا يقدم نفسه للناس على أنه شيخ طريقة؛ بما للشيخ في الطريقة من مركزية قطبية، وإنما قدم نفسه على أنه ''الأستاذ''، بما لهذا المصطلح من دلالة منهجية ضرورية في العملية التربوية. لكنها لا تصل إلى درجة التصدي للمصدرية المعرفية كما هو الشأن في مفهوم ''الشيخ'' لدى أغلب الطرق الصوفية. ولقد رسم كلمة منهجية بهذا الشأن في سياق تقديم رسائل النور، حقُّها أن تكتب بماء الذهب. فيها من معاني التجرد من الحول والقوة، بل التبرؤ من الذات؛ ما لا تكاد تجده عند غيره، خاصة في هذه الأزمنة المتأخرة. قال رحمه الله في الملاحق : ''يا سعيد! كن صعيداً! في نكران تام للذات، وترك كلي للأنانية، وتواضع مطلق كالتراب؛ لئلا تعكر صفو رسائل النور! وتقلل من تأثيرها في النفوس!'' [32]

هكذا تجرد بديع الزمان من كل شيء، وتبرأ من كل فيء، ولو حتى ما يسمى اليوم بحقوق التأليف، فكأنه لا هو ألف ولا هو أملى، وإنما هي رسائل النور ذاتها تكلمت من خلاله، فلم يكن حضوره إزاءها غير خادم مطيع، يُبَلِّغُ ما تبصره روحه من أنوار القرآن!

وعليه؛ فلم يكن خطابه يخص فئة دون فئة، ولا طبقة دون أخرى، بل كان يتوجه إلى الأمة جمعاء، بل إلى ''الإنسان'' بما هو مركز التلقي في الخطاب القرآني ذاته. لقد كان النورسي على وعي كبير ومبكر جدا؛ بأن الخطاب المعاصر لابد لنجاحه أن يكون لكل الناس. أي لا بد أن يستوعب قضايا الإنسان أنى كان وكيفما كان! ويحمل

راية التحدي الحضاري في سياق التدافع الثقافي والحوار العالمي. وكأنه كان يرى بعين الاستبصار ما تسير به الأضواء العالمية اليوم -على المستوى السياسي والثقافي والاقتصادي- من مفهوم ''العولمة''! فكان بدل أن يسجل القطيعة مع الآخر -كما يفعله بعض الجهلة اليوم- يدخل عليه سوق المنافسة بقوة! ويخاطب الإنسان بمنطق العرض للبضاعة الروحية؛ بما يملكه التاجر القوي من يقين التفرد في الجودة والإتقان!

وأمثلة ذلك في رسائل النور هي كل خطاب الرسائل. وإنما نعرض ههنا بعض الأمثلة الصريحة؛ بما يدل على الوعي التام لدى بديع الزمان بهذه الحقائق العالمية الكبرى. فمن ذلك مثلا تجاوزه للزمان، وخرقه لحجب المستقبل في مخاطبة الأجيال! فلطالما نادى الأجيال المقبلة بعد خمسين سنة! وحدثها بخطاب حميمي جميل، تملؤه المحبة والود، وكأنما هو يعرفهم! قال مثلا: ''يا إخوتي! ويا زملائي!.. الذين يسمعون هذا الكلام بعد خمسين عاماً!''[33]

لقد كان بديع الزمان ينظر بعين القرآن إلى الأمة في كليتها، مستوعبا شمولية الدين في الخطاب والتربية، تماما كما هي طبيعة التجديد الاستغراقية الشاملة، التي لا ترد إلا مع العلماء الأبدال وُرَّاثِ النبوة، الذين لا يظهرون إلا على رأس كل قرن! كما ورد في حديث النبي ﷺ: ''إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها''.[34] وهذا لا يكون إلا إذا تَمَّ بمنهج شمولي جامع. وكذلك كان بديع الزمان.

ثالثا- المنهجية التفكرية الكونية:

والتفكرية الكونية التي اتصف به منهجه التجديدي كانت حاضرة بقوة في كل مجالات رسائل النور، سواء في ذلك التصورات والمنطلقات، أو التوجيهات التربوية والمقاصد الربانية.

فمن حيث التصور جعل بديع الزمان ''الكون'' ركنا مهما من أركان خطابه التجديدي، وركيزة أساسية من ركائز منظومته التربوية. فخاطب الإنسان لا بما هو مخلوق من مخلوقات الله وحسب، ولكنه خاطبه بما هو ''كائن كوني''، يحمل أمانة كونية يسير بها إلى الله، وكل الكائنات خلفه تتبعه مؤتمة به سائرة إلى الله بسيره. فلم يكن إذن؛ لمفهوم الأمانة التي ''حملها الإنسان'' عنده إلا معنى ''الإمامة الكونية''! ذلك أن الإنسان هو خلاصة الكون وثمرته الجامعة[35]. ومن هنا قوله رحمه الله: ''إن

الإنسان ثمرة شجرة الخلقة، فهو كالثمرة أبعد شيء عن البذرة، وأجمع لخصائص الكل"،[36] وقال أيضا: "إن الإنسان هو الثمرة النهائية لشجرة الخلقة، ومن المعلوم أن الثمرة هي أبعد أجزاء الشجرة، وأجمعها وألطفها؛ لذا فإن الإنسان هو ثمرة العالم، وأجمع وأبدع مصنوعات القدرة الربانية، وأكثرها عجزا وضعفا ولطفا!"[37]

وكثيرا ما كان يعبر عن هذا المعنى بمصطلح "الفهرست"؛ للدلالة على العلاقة الجامعة بين الإنسان والمحيط الكوني حوله، سواء في ذلك جانبه الغيبي أو جانبه المادي. حتى يستغل تلك المعطيات جميعها في المجال التربوي؛ لإعادة ربط الصلة بين الإنسان وبين عمقه الكوني، فيخرجه من السَّفَهِ الفكري إلى الْحِلْمِ الوجودي. تماما على وزان منهج القرآن في مخاطبة الإنسان، على نحو ما نجد في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا!﴾.[الأحزاب:٧٢] فهذه التكاملية الكونية التي ينطوي عليها الإنسان، والمتجلية في ضعفه وحاجاته التي لا تكاد تنقطع! مما يجعله ينظر إلى سائر الكون نظرة الراغب في استيعابه لخدمته وتسخيره؛ هي التي جعلت بديع الزمان يجلي الحقيقة الإنسانية في صورة الفهرست الجامع. قال رحمه الله: "إن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان، وجعله نسخة جامعة للكائنات، وفهرستة لكتاب العالم"،[38] ثم قال أيضا: "إن الإنسان مع صغر جرمه وضعفه، وكونه حيوانا من الحيوانات؛ ينطوي على روح غال، ويحتوي على استعداد كامل، ويتبطن ميولات لا حصر لها، ويشتمل على آمال لا نهاية لها، ويحوز أفكارا غير محصورة، ويتضمن قوى غير محدودة. مع أن فطرته عجيبة كأنه فهرستة للأنواع والعوالم".[39]

وأما من حيث التربية والتزكية: فقد كان لحضور المقولات الكونية - لدى النورسي - الأثر البالغ في تكوين شخصية الإنسان القرآني، وإخراج الجيل النوري. وأساس ذلك ما ضَمَّنَهُ منهجَه التربوي من قواعد ترجع جميعها إلى مبدأ "التفكر". فالتفكر عنده وسيلة تربوية، وغاية تعبدية، قائمة على الذوق والتذوق؛ أكثر مما هي قائمة على عمليات العقل المجردة من العواطف والأحاسيس الوجدانية. بل هو فكر الروح وعقل القلب! وذلك أخذاً من قوله تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ!﴾.[آل عمران:١٩١] وهذا المعنى له علاقة بمصطلح آخر، هو "التدبر" المأخوذ من قوله تعالى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفالُهَا؟﴾.[محمد:٢٤] والتدبر: هو منهج قراءة الكتاب المسطور، بينما التفكر: هو

منهج قراءة الكتاب المنظور. فهما مفهومان قرآنيان متداخلان أحدهما يحيل على الآخر. ولذلك استعمل النورسي مصطلح ''التفكر'' باعتباره خطوة من خطواته التربوية المشهورة، التي قدمها بديلا قرآنيا عن الأوراد الصوفية؛ رغبة منه في الاستجابة لتحديات العصر الجديدة. وهي أربع خطوات، بها يتم العروج إلى الله عبر طريق القرآن الكريم. وهي: ''العجز، والفقر، والشفقة، والتفكر''. فهذه المعاني يستشعرها العبد في ممارسة عبادته لله الواحد القهار، هذه العبادة التي لا تختلف أشكالها، ولا أعدادها، ولا شروطها؛ عما هو معروف ومشتهر لدى جمهور المسلمين، أو ما يسمى لدى الفقهاء بـ ''المعلوم من الدين بالضرورة''؛ ولذلك اعتبر النورسي منهجه هذا أقرب إلى الحقيقة الشرعية؛ منه إلى الطريقة الصوفية.

قال رحمه الله في سياق مقارنة طريق القرآن بطريق العشق الصوفي: ''للوصول إلى الله سبحانه وتعالى طرائق كثيرة وعديدة. ومورد جميع الطرق الحقة، ومنهل السبل الصائبة هو القرآن الكريم (...) وقد استفدت من فيض القرآن الكريم -بالرغم من فهمي القاصر- طريقا قصيرا وسبيلا سويا هو: طريق العجز، الفقر، الشفقة، التفكر.

نعم! إن العجز: كالعشق موصل إلى الله، بل أقرب وأسلم، إذ هو يوصل إلى المحبوبية بطريق العبودية. والفقر: مثله يوصل إلى اسم الله 'الرحمن'. وكذلك الشفقة: كالعشق موصل إلى الله، إلا أنه أنفذ منه في السير، وأوسع منه مدى، إذ هو يوصل إلى اسم الله 'الرحيم'. والتفكر: أيضا كالعشق، إلا أنه أغنى منه وأوسع نورا، وأرحب سبيلا، إذ هو يوصل السالك إلى اسم الله 'الحكيم'.

وهذا الطريق يختلف عما سلكه أهل السلوك في طرق الخفاء (...) وهو حقيقة شرعية أكثر مما هو طريقة صوفية (...).

أما أوراد هذا الطريق القصير وأذكاره فتنحصر في اتباع السنة النبوية.. والعمل بالفرائض، ولا سيما إقامة الصلاة باعتدال الأركان والعمل بالأذكار عقبها، وترك الكبائر''.[40]

والحقيقة أن الخطوات الأخرى الثلاث: ''العجز، والفقر، والشفقة'' -رغم ضرورتها التربوية عنده في طريق العروج إلى الله- إلا أنها نتائج للتفكر وثمارٌ له. لأنها ثلاثتَها لا تتصور في الوجود بدونه، بينما هو يكون بدونها. فغير المتفكر لا يمكن أن يستشعر عجزا، ولا فقرا، ولا شفقة، بالمعنى التعبدي لتلك الكلمات، فإذا فعل؛ فمعناه

أنه مَرَّ عبر مسلك التفكر، ولو بصورة لا شعورية. فهي ليست في نهاية المطاف سوى تجليات للتفكر، وآثار وجدانية له. فالتفكر إذن؛ هو الوعاء الجامع لها جميعا.

ومن هنا كان لك أن تقول: إن رسائل النور ليست سوى نتيجة وجدانية لمسلك التفكر. بل إن ''سعيدا الجديد'' نفسه ليس سوى ذلك! وقد استقرينا هذا في مجمل الرسائل، فوجدنا بديع الزمان كثيرا ما يصرح به تصريحا. ولطالما عبر عنه في مطالع المشاهد المعروضة لديه من الرسائل، وكذا في خواتيمها، من مثله قوله في ''المكتوب التاسع عشر'' من ''المكتوبات'': ''لقد أنعم الله سبحانه وتعالى عليّ يوماً بتفكرٍ حقيقي حول مجمل ماهية القرآن الحكيم؛ فأدوّن ذلك التفكر كما ورد على القلب...''[41] وقوله في السياق نفسه: ''أما معنى هذا التفكر فكما يأتي...''[42] ثم يشرع في البيان. وكذا قوله في ''الكلمات'' مستنتجا: ''إن نتيجة هذا التفكر تبيّن أنه لأجل محاكمة الإنسان وفوزه بالسعادة الأبدية، يُدَمَّرُ الكونُ كله إذا لزم الأمر. فالقوة القادرة على التدمير والتبديل موجودة فعلاً، وهي ظاهرة ومشهودة..''[43] ومثل ذلك في الرسائل كثير جدا.

وعليه؛ فإننا لم نجانب الصواب -بحمد الله- بقولنا السابق: إن سعيدا الجديد ذاته إنما هو نتيجة لمسلك التفكر. وهذه شهادته هو نفسه رحمه الله ناطقة. قال في اللمعات: ''حينما سار 'سعيد الجديد' **في** طريق التأمل والتفكر، انقلبت تلك العلوم الأوروبية الفلسفية، وفنونها التي كانت مستقرة إلى حدٍّ ما؛ في أفكار''سعيد القديم'' إلى أمراض قلبية، نشأت منها مصاعب ومعضلاتٌ كثيرة، في تلك السياحة القلبية. فما كان من ''سعيد الجديد'' إلاّ القيام بتمخيض فكره، والعمل على نفضه من أدران الفلسفة المزخرفة، ولوثات الحضارة السفيهة''.[44]

وهذا المنهاج الذي طبقه النورسي على نفسه؛ فأخرج ''سعيدا الجديد'' من ركام ''سعيد القديم'' هو نفسه ما جعله منهاج التحلية والتخلية في العملية التربوية، التي مارسها -بصفته معلما ومربيا- تجاه تلاميذه. حتى إنه -رحمه الله- كان يعقد مجالس لطلاب النور -كما حدثنا بعضهم- يعلمهم بصورة تطبيقية منهج التفكر، ويذيقهم من حلاوته مشاهدَ ذات لذة روحية حية! فكانوا بذلك أهل ذوق قرآني صافي المشرب!

نعم، لقد كانت ''التفكرية الكونية'' -بما هي ورد نوري ضروري- خاصية عميقة جدا، مميزة لمشروع النورسي التجديدي، تسري في شرايين الحقائق النورية، وتطبع

كل رسائل النور. وتلك واحدة من أهم ملامح التجديد للدين الذي مارسه بديع الزمان. فاستطاع بذلك أن يخرج بالتصوف من أوراد اللسان إلى أوراد الجنان، ومن رقصات الأشباح إلى سبحات الأرواح!!

خاتمة

وأخيرا.. فإن غاية ما نخلص إليه من هذا البحث المقارن أن الأستاذ النورسي رحمه الله -مهما بدا منه من نقد للمتصوفة ومقولاتهم- فإنه لم يتجاوز التصوف تجاوز نقض وإضراب؛ وإنما تجاوزه تجاوز احتضان واستيعاب. ولقد كان - رحمه الله - في مشروعه هذا أشبه ما يكون بالشيخ الإمام أحمد زروق المغربي، الملقب بمحتسب الصوفية، صاحب كتاب ''عُدَّة المريد الصادق'' في نقد التصوف، ومؤسس الطريقة الزروقية في الوقت نفسه! ثم الإمام ابن القيم في ''مدارج السالكين''، وكذا الإمام أبي إسحاق الشاطبي بين ''الموافقات'' و ''الاعتصام''. كل أولئك وأضرابهم من أعلام التجديد، الذين انتقدوا التصوف تصحيحا واستيعابا؛ لتجديد السير إلى الله، واستئناف الإشعاع الحضاري للأمة في مجال التربية والتدافع الإنساني، كانوا عبارة عن محطات حضارية مضيئة في تاريخ الأمة، ترسل النور عبر القرون ملهمة ذاكرة الأجيال؛ لتستأنف السير في مجال الإصلاح العلمي والمفهومي والتجديد الأخلاقي. فلم يكن بديع الزمان إذن سوى محطة جديدة من محطات الإرسال النوري لهذا العصر الجديد، خاطب الزمان بما ناسبه من مقامات الخطاب مرشدا ومتحديا.. عسى أن يكون هناك من يتلقى الإشارة للانطلاق من جديد!

ذلك والله الموفق للصواب والمعين عليه.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتبه عبد ربه، راجي عفوه وغفرانه: فريد بن الحسن الأنصاري السجلماسي.

وكان تمام تسويده بمكناسة الزيتون، عشية يوم الاثنين: ١٤ ربيع الثاني: ١٤٢٦هـ، الموافق لـ: ٢٣/٠٥/٢٠٠٥م.

* * *

لائحة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- صحيح البخاري، للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري. شرح وتحقيق الشيخ قاسم الشماعي الرفاعي. دار القلم بيروت. ط. الأولى: ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- صحيح مسلم، للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. دار الحديث بالقاهرة. ط. الأولى: ١٤١٢هـ/١٩٩١م.
- صحيح الجامع الصغير وزياداته للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، نشر المكتب الإسلامي بيروت/ دمشق. ط. الثالثة: ١٤٠٨هـ/١٩٨٨.
- كليات رسائل النور تأليف الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، نشر دار (سوزلر) للنشر، فرع القاهرة ط ٢ بمصر ١٤١٢ هـ/ الموافق ١٩٩٢م. وتتضمن:
- الجزء الأول : الكلمات
- ''الثاني: المكتوبات
- ''الثالث: اللمعات .
- ''الرابع: الشعاعات
- ''الخامس: إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز.
- ''السادس: المثنوي العربي النوري .
- ''السابع: الملاحق .
- ''الثامن: صيقل الإسلام .
- ''التاسع: سيرة ذاتية .
- مفاتح النور: (نحو معجم شامل للمصطلحات المفتاحية لكليات رسائل النور لبديع الزمان سعيد النورسي) تأليف د. فريد الأنصاري. نشر معهد الدراسات المصطلحية بجامعة السلطان محمد بن عبد الله بفاس، ومركز النور للدراسات والبحوث بتركيا. مطبعة نسيل إسطنبول/ تركيا. ط. الأولى: ٢٠٠٤.

* * *

الهوامش:

[1] جامعة مولاي إسماعيل – مكناس المغرب هذا البحث ألقاه المرحوم في الورشة العلمية التي أقامتها مؤسسة الثقافة والعلوم بإسطنبول حول التصوف وسعيد النورسي في ٢٦-٢٧/ ٠٧/ ٢٠٠٥.

[2] قال رحمه الله: ''وأستاذي في الطريقة النقشبندية: سيد نور محمد''*** سيرة ذاتية ص ٢٣٦. والملاحق ص٧١.

[3] المكتوبات ص٥٧١.

[4] سيرة ذاتية ص ٤٦-٤٧.

٤ المكتوبات ص٤٨٤، وسيرة ذاتية ص١٠

[6] سيرة ذاتية ص ٣٦٩

[7] سيرة ذاتية ص ٣٦٨

[8] المكتوبات للإمام الرباني أحمد السرهندي: ١٨٢/١ (المكتوب: ٢١٠) نقلا عن تحقيقات إحسان قاسم الصالحي لرسائل النور. ن: مكتوبات النورسي ص ٢٦

[9] نفسه، نقلا عن تحقيقات إحسان قاسم الصالحي لرسائل النور. ن: مكتوبات النورسي ص ٢٦

[10] مكتوبات السرهندي: ٢٤٠/١ (المكتوب ٢٦٠). نقلا عن تحقيقات إحسان قاسم الصالحي لرسائل النور. مكتوبات النورسي ص ٢٦

[11] مكتوبات السرهندي: ٨٧/١ (المكتوب:٧٥) ، ٩٨/١ (المكتوب: ٩١) ، ٩٩/١ (المكتوب: ٩٤).) نقلا عن تحقيقات إحسان قاسم الصالحي لرسائل النور. ن: مكتوبات النورسي ص ٢٧.

[12] هو محمد بهاء الدين مؤسس الطريقة النقشبندية.

[13] يعني: الإمام أحمد بن عبد الأحد السرهندي الفاروقي.

[14] المكتوبات ص ٢٧

[15] المكتوبات: ٤٢٨/٢- ٤٢٩

[16] ينظر مصطلح (التوحيد) في كتابنا مفاتح النور ص ٤١

[17] المثنوي العربي: ٤١/٦

[18] المثنوي العربي: ٣٤٦/٦

[19] الكلمات ص٥٦١

[20] المكتوبات ص٤٢٤

[21] صيقل الإسلام: ١٢٢/٨-١٢٤.

[22] المكتوبات ص ٥٨٩

[23] المكتوبات ص ٥٨٨.

[24] المكتوبات ص ٤٨٤، وسيرة ذاتية ص١٠.

[25] المكتوبات ص ٤٧٥، وسيرة ذاتية ص١٢٠.

[26] مصطلح (سعيد القديم) لقبٌ يطلقه النورسي على مرحلة الأربعينات الأولى من عمره، أي مرحلة ما قبل الشروع في كتابة رسائل النور، وهي مرحلة الاهتمام السياسي في حياته. وأما لقب (سعيد الجديد) فهو شخصية النورسي الجديدة، التي ودعت العمل السياسي الجزئي واشتغلت بالعمل الروحي الكلي.

[27] إشارت الإعجاز:٢٢/٥ والمكتوبات:٢٦٧/٢

[28] ن. مصطلح (القرآن) في كتابنا: ''مفاتح النور'' ص ٢١٢.

[29] المرجع السابق.

[30] كلها اصطلاحات استعملها النورسي في كتاب المثنوي العربي.

[31] سيرة ذاتية ص ٣٦٩

[32] الملاحق ص ١١٠.

[33] صيقل الإسلام ص ٥١٨.
[34] رواه أبو داود بسند صحيح.
[35] ن. هذا المعنى مفصلا في دراستنا لمصطلح (الإنسان) بكتابنا: مفاتح النور ص ٨٩.
[36] الكلمات:١/٤١٨
[37] الكلمات:١/٢٠٤
[38] إشارات الإعجاز:٥/٢٦
[39] إشارات الإعجاز:٥/١٤٩
[40] المكتوبات:٢/٥٩٤.
[41] المكتوبات ص ٢٤٧
[42] المكتوبات ص ٢٤٨
[43] الكلمات ص ٧٣٤
[44] اللمعات ص ١٧٦

الرؤية الكونية للأخلاق عند سعيد النورسي وأثرها في بناء الإنسان

د. محمد الصمدي[1]

تقديم:

تعيش الإنسانية في بداية الألفية الميلادية الثالثة عصرا حافلا بإنجازات ووعود من جهة وبأنواع من المعاناة والأخطار التي تتهددها من جهة أخرى، ويقف إنسان العصر متأملا في نفسه وفيما حوله، يمعن النظر ويعمل الفكر في كيفية رفع المعاناة عن كاهله، ودفع الأخطار التي تهدده بل وتهدد سائر المخلوقات الحية على وجه كوكب الأرض. ويصل بهذا التأمل إلى ضرورة استشعار الحاجة الماسة إلى الدين، واستلهام قيم الحضارات الإنسانية المثلى، وتعميق الوعي الروحي من أجل سلامة الجنس البشري وكرامته.

وإذا كان عصرنا اليوم -الآخذ بالامتداد إلى الغد- هو عصر العلم والتكنولوجيا، فإن قضية أساسية بدأت تبرز في عالمنا المعاصر تتعلق باستخدام المعرفة العلمية، وتركز النظر على البعد الأخلاقي في هذا الاستخدام. وقد أصبح الحديث عن القيم ملازما للحديث عن التنمية واستخدام التقنية، ومن هنا فالحاجة ماسة الآن لمحاولة السيطرة على التقنية وتحفيزها داخل إطار إنساني بهدف أن تسهم في تحقيق الحياة الحرة المستمرة لجميع الشعوب والأجيال القادمة داخل الفهم العالمي بل الكوني الشامل، وبهدف غرس القيم الاجتماعية والمعنوية والروحية لموازنة التقدم المادي وترشيد استخدامه.

وإذا كانت العلوم البحتة والعلوم الطبيعية بالذات قد سيطرت على كل مجالات الحياة، كما أوشكت القيم المادية فيها أن تتحكم وحدها بمصير الكون والإنسان، فهل

للقيم الروحية ومنها الإسلامية موقف طليعي أصيل يواكب حركة التطوير والتغيير أو يتحداها تارة ويحد من خطرها تارة أخرى؟

إن التقدم التكنولوجي في عصرنا والذي يعد صورة من صور التقدم العلمي، برغم ما وفره للحياة الإنسانية من نعماء وسراء، قد سلب الإنسان في الوقت نفسه المزية الوحيدة الحقيقية التي تتيح له الإفادة مما أعطاه عندما صرفه صرفا شديدا عن قيم الروح، وما دام الإنسان حتى في النظرة العلمية التكنولوجية جزءا لا يتجزأ من هذا الوجود، ولا يمكن تجاهل دوره العظيم في تنمية الحياة والأحياء فإن التعارض المتوهم هو على ما يبدو بين إنسان العصر الحديث وتكنولوجيا العصر الحديث وليس بين العلم والدين، وذلك لأن العلم والتقنية يوجهان اليوم في حالات معينة لخدمة أغراض المذهبيات المادية المصلحية غير الإنسانية... إن العلم والتقنية يسيران في الغرب على أساس الفصام الكامل بين أجزاء تلك الوحدة الوجودية المتناسقة (أي التكامل بين الفرد والمجتمع والروح والعقل والجسد والطبيعة)، والنتيجة الرهيبة التي ترتبت على ذلك أن العلم والتقنية سارا في الحضارة الغربية عكس القيم والأخلاق التي بذر بذورها في تاريخ البشرية الأنبياء والمرسلون والمصلحون والعقلاء.[2]

يقول الأستاذ منير شفيق: ''الطريق الذي سار عليه التطور العلمي والتقني في الحضارة المعاصرة اتجه نحو التضاد مع الطبيعة والبيئة والحاجات الفطرية للإنسان مما هدد موارد طبيعية وحيوانية عديدة، بالنفاذ وأضر بالبيئة فلوثها وأخل بتوازنها ووضع الكائن البشري في ظروف سكنية ومعاشية وصحية تتناقض مع روحه وصحته ونفسيته وفطرته ونموه العام، كل ذلك بسبب الاتجاه في التطوير العلمي والتقني الذي تحكمه أهداف العنف والربح والاستهلاك المادي.[3]

نستطيع في ضوء ما تقدم أن ندرك مدى حاجة الإنسانية إلى وجود معرفة علمية منضبطة قائمة على تصور كوني أخلاقي للعالم، ولاشك أن رؤية الإسلام المؤمنة للكون والحياة والإنسان قادرة على تلبية تلك الحاجة، فإلى أي حد استطاع الشيخ بديع الزمان النورسي أن يجسد تلك الرؤية في حياتنا الجديدة؟ بالدعوة إلى أخلاقيات قرآنية كونية، تنطلق من الحركة في الحياة واستعمار الأرض وبناء الحضارة، وتحقيق الخلافة.

١- أخلاقيات العلوم في المنظور القرآني :

إن رؤية الحضارة العربية الإسلامية للعلم والمعرفة التي أساسها عقيدة الإسلام تؤكد على أن هدف العلم والمعرفة الرئيسي هو تحقيق سعادة الإنسان ونفع البشر أجمعين، ولابد من توظيفه توظيفا محمودا ليكون علما نافعا وليس ضارا يستحضر فيها الإنسان كرامته المتمثلة في تسخيره كل ما في الكون لمصلحته ومصلحة إخوانه البشر على حد التعبير القرآني الذي يقول ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾،الجاثية:١٣ فلم يستثن شيء من هذا الكون الكبير لا في الأرض المهاد وحدها بل حتى السماوات وما فيها من أن تكون جميعا مسخرة لهذا الكائن العجيب الذي كرمه الله كل التكريم ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾.الإسراء:٧٠

وعلى هذا الأساس، انطلقت رؤية الشيخ بديع الزمان النورسي القائمة على الحكمة القرآنية الكونية التي تنطلق من التأكيد على كرامة الإنسان ومن احترام كوكب الأرض، والحياة فيه، ومن ثم كان –رحمه الله– واعيا تمام الوعي بأن أي بناء لمستقبل أفضل للإنسانية يتطلب نهوضا روحيا وأخلاقيا ونظاما عالميا عادلا يحتل فيه العلم دورا أساسيا وفاعلا إذا اقترن بأخلاقيات القرآن واستنار بهديه وأخذ بمقاصده. وهكذا دعا النورسي إلى إعادة إحياء النظرة القرآنية اتجاه العلوم والاستفادة من تجارب البشرية ومد الجسور فيما بينها لأن ذلك يتماشى تماما مع ما يريده الإسلام من الحركة في الحياة واستعمار الأرض وبناء الحضارة وتحقيق الخلافة.

يقول : ''إن البشرية التي أخذت تصحو وتستيقظ بنتائج العلوم والفنون الحديثة أدركت كنه الإنسانية وماهيتها وتيقنت أنه لا يمكنها أن تعيش هملا بغير دين، بل حتى أشد الناس إلحادا وتنكرا للدين مضطر إلى أن يلجأ إلى الدين في آخر المطاف... لقد تيقظ الإنسان في عصرنا هذا، بفضل العلوم والفنون ونُذر الحروب والأحداث وشعر بقيمة جوهر الإنسانية واستعدادها الجامع، وإدراك أن الإنسان باستعداده الجماعي العجيب لم يخلق لقضاء هذه الحياة المتقلبة القصيرة بل خلق للأبد والخلود بدليل آماله الممتدة إلى الأبد''.[4] ويقول في موضع آخر: ''إن البشرية في أواخر أيامها على الأرض ستنساب إلى العلوم وتنصب إلى الفنون وتستمد كل قواها من العلوم والفنون فيتسلم العلم زمام الحكم والقوة''.[5]

إن طبيعة العصر وتطور العلوم والمعرفة فرضا على الشيخ سعيد النورسي أن يواكب ذلك التطور بإدراك السنن الكونية وحقائق الحياة المودعة بين ثنايا الآيات الكريمة، واكتشاف أسرارها حتى تتحقق المصلحة الكاملة للمجتمعات الإسلامية والإنسانية من وجود القرآن الكريم وتختفي الخصومة المفتعلة بين الدين والعلم، وهكذا يتضح أن الرجل يعطي للعلم دورا فاعلا ومتقدما في عملية تجديد المجتمعات الإسلامية، وهو موقف المسلم الذي يجعل الحكمة ضالته، وأحق الناس بها، دعاه القرآن إلى التحرك لاكتشاف قوانين الحياة والاستفادة منها لإقامة الحضارة وبناء التقدم : ''إن من أوائل الآيات القرآنية وخواتمها تحيل الإنسان إلى العقل قائلة : راجع عقلك وفكرك أيها الإنسان وشاورهما، حتى يتبين لك صدق هذه الحقيقة، فانظروا مثلا إلى قوله تعالى (فاعلموا... فاعلم... أفلا يعقلون... أفلم ينظروا... أفلا يتذكرون... أفلا يتدبرون... فاعتبروا يا أولي الأبصار...'' وأمثالها من الآيات التي تخاطب العقل البشري. فهل تسأل: لم تتركون العلم وتختارون طريق الجهل؟ لم تعصبون عيونكم وتتعامون عن رؤية الحق؟ ما الذي حملكم على الجنون وأنتم عقلاء؟ أي شيء منعكم من التفكر والتدبر في أحداث الحياة، فلا تعتبرون ولا تهتدون إلى الطريق المستقيم؟ لماذا لا تتأملون ولا تحكمون عقولكم لئلا تضلوا؟ ... وعلى هذا فإن المستقبل الذي لا حكم فيه إلا للعقل والعلم سوف يسوده حكم القرآن الذي تستند أحكامه إلى العقل والمنطق والبرهان''.[6]

إن الوصول إلى المعارف الكونية واكتشاف أسرارها وأبعادها عمل يتصل بعالم الشهادة، والإسلام حرر العقل الإنساني فيها شريطة ألا يتبع هواه فيخالف الوحي الإلهي القاطع، لأن مخالفته تعني أن هنالك خطأ في الإدراك ونقصا في المعالجة، فلابد من الوقوف عند الوحي الإلهي ومحاولة تصحيح الخطأ وتبديل أسلوب المعالجة واكتشاف الثغرة.[7]

ومن هذا المنطلق، ميز النورسي بين الفلسفة المؤمنة الخادمة والفلسفة الجاحدة التي ترفض مبادئ الدين الحق ''فالفلسفة التي تخدم الحياة الاجتماعية وتعين الأخلاق والمثل الإنسانية وتمهد للرقي الصناعي فهي في وفاق ومصالحة مع القرآن بل هي خادمة لحكمة القرآن فلا تعارضها ولا يمكنها ذلك، وأما الفلسفة التي غدت وسيلة للتردي في الضلالة والإلحاد والسقوط في هاوية المستنقع الآسن للطبيعة فإنها تنتج السفاهة واللهو والغفلة والضلالة وتعارض الحقائق القرآنية''.[8]

٢- بناء العلوم والتكنولوجيا على القواعد الأخلاقية والإنسانية :

إن من يطلع على رسائل النورسي يتضح له جليا مدى إدراكه للوضع القائم اليوم في كوكبنا، والذي يشير إلى وجود أشكال من الصراع، وينذر بتفجر أشكال أخرى، لذا حاول -رحمه الله- أن يقدم للإنسانية حلولا أخلاقية انطلاقا من قراءة جديدة للتاريخ الإنساني قائمة على رؤية كونية مختلفة عن القراءات السائدة في الحضارات الأخرى، فحاول أن يوقف تلك العلوم على أرجلها ويقوم بقراءة فاحصة لمادتها المعرفية وتحريرها من الاتجاهات الإيديولوجية، ثم يعرضها على الوحي الإلهي (القرآن والسنة)، والحق أن موقف النورسي من الجوانب العلمية في الحضارة الغربية موقف منصف وموضوعي غير عدائي. لذلك دعا إلى تبني ''التيكنولوجية'' الحديثة مع المحافظة على القيم الذاتية، وهكذا نراه يقسم ثقافة الغرب إلى قسمين : قسم يجب الأخذ به وقسم يجب الابتعاد عنه يقول : ''ولئلا يساء الفهم لابد أن ننبه أن أوربا اثنتان، أحدها هي أوربا النافعة للبشرية بما استفاضت من النصرانية الحقة، وأدت خدمات لحياة الإنسان الاجتماعية بما توصلت إليه من صناعات وعلوم تخدم العدل والإنصاف، فلا أخاطب -في هذه المحاورة- هذا القسم من أوربا وإنما أخاطب أوربا الثانية تلك التي تعفنت بظلمات الفلسفة الطبيعية وفسدت بالمادية الجاسية وحسبت سيئات الحضارة حسنات لها، وتوهمت مساوئها فضائل، فساقت البشرية إلى الضلالة والتعاسة، ولقد خاطبت في تلك السياحة الروحية الشخصية المعنوية الأوربية بعد أن استثنيت محاسن الحضارة وفوائد العلوم النافعة.[9]

ويذهب الأستاذ إلى أن مجيء الحضارة من الغرب وأهله غير مسلمين لا يكون دليلا على حرمة الأخذ بها ''مثلما أن جميع صفات المسلم وحرفته لا يلزم أن تكون مسلمة، وكذلك لا يلزم أن يكون جميع صفات الكافر وصنعته كافرة أيضا، فعلى هذا الأساس لم لا يجوز اقتباس ما استحسن من الصنعة غير الإسلامية، إنك لاشك ستحب امرأتك إذا كانت من أهل الكتاب فصداقتنا إذن مع النصارى واليهود واقتباس ما استحسن من أمورهم التي تقدموا فيها من وسائل حضارية لا تدخل ضمن النهج القرآني ﴿لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء﴾. المائدة:٥١ [10]

لقد وضع الشيخ سعيد النورسي على عاتقه مسؤولية إنقاذ البشرية من الانحراف والسقوط الحضاري، وأن ذلك لن يتأتى إلا بربط العلوم بنظام أخلاقي منبثق من قيم عليا منسجمة مع جوهر الإنسان المسؤول الخليفة، وبذلك تتم عملية التفاعل مع ما

أنجزته الحضارة الأوربية في مختلف القوانين والتيكنولوجيا شريطة انتشالها من الجانب المادي ووضعها على محور الأخلاق وغرس البعد الروحي فيها المتمثل بالاعتقاد بإن الخالق يشاء ويأمر، وأن التعامل بين الإنسان وربه والإنسان والإنسان يقوم على أنماط القيم السماوية التي جاءت بها الأديان وأسماء الله الحسنى، الواردة في القرآن. فالعلوم محتاجة إلى نظرة تجديدية ومشروع رباني إيماني إنساني أراد النورسي استحضاره للاستفادة من تجارب العلوم وتوجيهها الوجهة الصحيحة خدمة للبشرية وضمان للإنسان ألا يتمزق سلوكه ويرتمي في أحضان الانحراف والضياع والحروب المدمرة للحرث والنسل يقول : ''إن كل ما ناله الإنسان -من حيث جامعية ما أودع الله فيه من استعدادات- من الكمال العلمي والتقدم التقني ووصوله إلى خوارق الصناعات والاكتشافات، تعبر عن الآية الكريمة بتعليم الأسماء ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا﴾البقرة:٣١ وهذا التعبير ينطوي على رمز رفيع ودقيق، وهو: أن لكل كمال، ولكل علم، ولكل تقدم ولكل فن -أيا كان- حقيقة سامية عالية، وتلك الحقيقة تستند إلى الأسماء الحسنى، وباستنادها إلى ذلك الإسم (...) يجد ذلك الفن وذلك الكمال وتلك الصنعة كل منها كماله -ويصبح حقيقة فعلا-، وإلا فهو ظل ناقص مبتور باهت مشوش، فالهندسة -مثلا- علم من العلوم وحقيقتها وغاية منتهاها هي الوصول إلى إسم 'العدل والمقدر' من الأسماء الحسنى... والطب -مثلا- علم ومهارة ومهنة في الوقت نفسه، فمنتهاه وحقيقته يستند أيضا إلى إسم من الأسماء الحسنى وهو 'الشافي' فيصل الطب إلى كماله ويصبح حقيقة فعلا بمشاهدات التجليات الرحيمة لاسم 'الشافي' في الأدوية المبثوثة على سطح الأرض الذي يمثل صيدلية عظمى. والعلوم التي تبحث في حقيقة الموجودات كالفيزياء والكيمياء والنبات والحيوان... هذه العلوم التي هي 'حكمة الأشياء' يمكن أن تكون حكمة حقيقية بمشاهدة التجليات الكبرى لاسم الله 'الحكيم' جل جلاله في الأشياء، وهي تجليات تدبير وتربية ورعاية. وبرؤية هذه التجليات في منافع الأشياء ومصالحها تصبح تلك الحكمة حكمة حقا... وإلا فإما أنها تنقلب إلى خرافات وتصبح عبثا لا طائل من ورائها أو تفتح سبيلا إلى الضلالة كما هو الحال في الفلسفة الطبيعية المادية... وهكذا يضرب القرآن الكريم بهذه الآية الكريمة يد التشويق على ظهر البشرية مشيرا إلى أسمى النقاط وأبعد الحدود وأقصى المراتب التي قصرت كثيرا عن الوصول إليها في تقدمها الحاضر وكأنه يقول لها : هيا تقدمي''.[11]

فواضح أن النورسي أراد أن يضع نتائج الأبحاث العلمية والتقنية داخل نظرة قرآنية

شمولية للحياة والكون منطلقة من قواعد أخلاقية عليا تخدم الإنسان وتوفر له السعادة.

يقول رحمه الله: ''إن الإنسان في هذا الكون أشبه ما يكون بالطفل الضعيف المحبوب يحمل في ضعفه قوة كبيرة وفي عجزه قدرة عظيمة لأنه بقوة ذلك الضعف وقدرة ذلك العجز سُخرت له هذه الموجودات وانقادت، فإذا ما أدرك الإنسان ضعفه ودعا ربه قولا وحالا وطورا وأدرك عجزه فاستنجد واستغاث ربه، وأدى الشكر والثناء على التسخير فسيوفق إلى مطلوبه، وستخضع له مقاصده وتتحقق مآربه... وكما أن الطفل المحبوب الرقيق يحصل بضعفه على شفقة الآخرين، وببكائه على مطالبه، فيخضع له الأقوياء والسلاطين فينال ما لا يمكنه أن ينال واحدا من الألف منه بقوته الضئيلة... فلو أنكر ذلك الطفل تلك الشفقة واتهم تلك الحماية وقال بحماقة وغرور ''أنا الذي سخرت كل هؤلاء بقوتي وإرادتي! فلا شك أنه يستحق أن يقابل باللطمة والصفعة، وكذلك الإنسان إذا أنكر رحمة خالقه واتهم حكمته وقال مثل ما قال قارون جاحدا النعمة ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾القصص:٧٨ فلا شك أنه يعرض نفسه للعذاب، فهذه المنزلة والسلطنة التي يتمتع بها الإنسان إذن وهذه الترقيات البشرية والآفاق الحضارية ليست ناشئة من تفوقه وقوة جداله وهيمنة غلبته ولا هو بجالب لها بل منحت للإنسان لضعفه ومدت له يد المعاونة لعجزه... فيا أيها الإنسان مادامت الحقيقة هكذا فدع عنك الغرور والأنانية وأعلن أمام عتبة الألوهية عجزك وضعفك، أعلنها بلسان الاستمداد وأفصح عن فقرك وحاجتك بلسان التضرع والدعاء وأظهر بأنك عبد لله خالص قائلا ''حسبنا الله ونعم الوكيل''.[12]

٣- العمل من أجل أخلاق كوكبية مشتركة:

نستطيع في ضوء ما تقدم أن ندرك مدى حاجة الإنسانية إلى وجود معرفة علمية قائمة على تصور كوني للعالم صحيح يمكنها من ارتياد آفاق رحبة ودفع مخاطر وتوفير ضوابط، فإنسان عصرنا يواجه لأول مرة في تاريخ الإنسان خطر فناء الجنس البشري بأسلحة الدمار التي صنعها، فكيف السبيل إلى مواجهة هذا الخطر؟ ونعيش اليوم منجزات الثورة العلمية والتكنولوجية لكنه يبرز أمامنا شبح الأسلحة النووية، ويسمع إنسان عصرنا ويرى ما تعانيه البشرية من مجاعة ومرض وجهل، وما تقاسيه من استغلال وتسلط وعنصرية واحتلال وفوارق ضخمة بين الفقراء والأغنياء، فكيف السبيل إلى معالجة هذه المشاكل التي تفتك بالإنسان؟

واضح إذن أن هذه الظواهر وثيقة الصلة ''بالأزمات الروحية والأخلاقية'' التي يعاني منها الإنسان في عالمنا المعاصر الأمر الذي دفع كثيرا من العلماء والمفكرين إلى الحديث عن هذه الأزمة الحضارية الخانقة التي تهدد مستقبل الحياة البشرية[13] وصولا إلى الهدف الأسمى وهو إسعاد الإنسان في ذاته وفي مجتمع وفي عالمه.

من هذا المنطلق، اتجه الشيخ سعيد النورسي إلى تعميق جذور كليات القيم، وإحياء النظرة الإنسانية العالمية الشاملة للأخلاق، فوضع مشروعا إيمانيا أخلاقيا كونيا قائما على أساس التلاقي والتعارف والتعاون تحقيقا للوعود ودفعا للمخاطر، لذا كان دائما يحذر من أن تسلط الأفكار والفلسفات المادية يؤدي إلى القضاء على النظرية الدينية والقيم الروحية والأخلاقية باعتبارها قيما مشتركة يستظل بها مستقبل الإنسانية جمعاء.

لقد صاغ بديع الزمان النورسي نظريته الأخلاقية المستنبطة من القرآن وعرضها بمنهج مقارن عجيب مبينا آفاقها الكونية العالية وسبقها التربوي بالنظر إلى ما آلت إليه النظريات الأخلاقية الفلسفية في الغرب.[14] فلاحظ أن تلك الفلسفات انطلقت من النظرة المادية الصرفة للكون وبنت مجتمعاتها على أساس العبودية لغير الله من المال والعنصر والطبقة والأشخاص فسببت بذلك شقاء كبيرا للمجتمع وحولته إلى آلات تعمل وتستهلك، وبناء على ذلك فإن من أسس المدنية الحاضرة مع ما فيها من محاسن أن لا تحقق السعادة للجزء الأعظم من البشرية المستظلة بظلها بل قادتها إلى الاضطراب وعدم الراحة على الرغم من تحقيق السعادة الصورية للقسم الأقل منها.[15]

في المقابل، طرح النورسي المنظور الشمولي للأخلاق القرآنية من أجل إعادة بناء الحضارة الإنسانية الخيرة كما أكد على أهمية البعد الروحي في الشخصية الإنسانية الميالة إلى التكامل والتعاضد بدل التضاد والتناقض، إن الإنسان الذي يفقد الإيمان يصاب بالحرمان، ويعاني من الغربة مع نفسه ومع الآخرين وتلتبس أمامه القيم وتميل نفسه مع الهوى فيتنكب عن الصراط المستقيم لذا يقترح الأستاذ النورسي وصفة علاجية قرآنية للحضارة للمحافظة عليها كي لا تتحول إلى أداة شقاء وبؤرة مرض انطلاقا مما أودعه الله تعالى في النفس من فضائل وتقوى ودعاه لتزكيتها. يتضح ذلك من خلال عقدة لمقارنة بين نظام مادي ينطلق من معايير الغرب وقيمه على اختلافها وتناقضاتها، ونظام ينطلق من معايير الوحي الإلهي وقيمه الهادية للإنسان المنسجمة

مع النظام الكوني العام، يقول : ''فالمدنية الحاضرة تؤمن بفلسفتها أن ركيزة الحياة الاجتماعية البشرية هي ''القوة'' وهي تستهدف المنفعة في كل شيء، وتتخذ الصراع دستورا للحياة وتلتزم بالعنصرية والقومية السلبية رابطة للجماعات، وغايتها هي لهو عابث لإشباع رغبات الأهواء وميول النفس التي من شأنها تزيد جموح النفس وإثارة الهوى، ومن المعلوم أن شأن ''القوة'' هو ''التجاوز'' وشأن المنفعة هو التزاحم... وشأن الصراع هو التصادم وشأن العنصرية هو التجاوز، فهذه الدساتير والأسس التي تستند إليها هذه المدنية الحاضرة هي التي جعلتها عاجزة –مع محاسنها- عن أن تمنح سوى عشرين بالمئة من البشر سعادة ظاهرية بينما ألقت البقية إلى شقاء وتعاسة وقلق، أما حكمة القرآن فهي تقبل ''الحق'' نقطة استناد في الحياة الاجتماعية بدلا من القوة وتجعل رضى الله ونيل الفضائل هو الغاية والهدف بدلا من المنفعة وتتخذ دستور التعاون أساسا في الحياة بدلا من دستور الصراع وتلتزم رابطة الدين والعنف والوطن لربط فئات الجماعات بدلا من العنصرية والقومية السلبية... وتجعل من غاياتها الحد من تجاوز النفس الأمارة''.[16]

ومع ما رأينا من اطلاع النورسي على تطورات الحضارة الأوربية ومنافعها، إلا أنه لم يقتنع بصور التجديد من منطلق حضاري غربي في إيجابياته وسلبياته لأن في ذلك تجاهل كامل لدور الأديان في إصلاح الخلل ومعالجة أزمة الحضارة الغربية، واعتبر أن أي تقليد للنموذج الغربي في التنمية بالنسبة للمجتمعات الإسلامية سينتج عنه ''لا تنمية حقيقية'' لأن المدنية الحاضرة تتنكر للمبادئ الإنسانية والأخلاقية والتشريعية التي جاء بها الإسلام والذي أراد بها إقامة صرح الاتحاد بين القلوب ومد ظلال الأمن بين الشعوب.

وسط هذه المعاناة من أزمة القيم وأمام تحديات الحضارة الغازية أطلق النورسي صيحاته لإعادة بناء الحضارة على أساس الرؤية القرآنية المؤمنة والحكمة الإلهية الحقة ومشكاة النبوة يقول: ''إن القرآن قد بدل الحياة الاجتماعية تبديلا هائلا نور الآفاق وملأها بالسعادة والحقائق، وأحدث انقلابا عظيما سواء في نفوس البشر وفي قلوبهم أو في أرواحهم وفي عقولهم أو في حياتهم الشخصية والاجتماعية والسياسية''.[17]

وأساس ذلك كله ما أحدثه القرآن الكريم من تغيير في المجتمعات على مستوى العقيدة، التي ساوت بين أبناء البشر وأنهت استغلال الإنسان للإنسان، وأدخلت السلام

والوئام إلى القلوب ودعت إلى تحقيق حرية الإنسان الحقيقية والتمسك بالحق واتباع قانون العدل المطلق ومحاربة الظلم في كل مكان، وبهذا الميزان الإلهي يضع النورسي يده على مكمن الخلل في الحضارة الغربية، التي عمقت من أسباب الشر والنزاعات والتطاحنات وأفسدت تقدم العلوم والمعارف: ''إن المدنية الحاضرة الغربية، لسلوكها طريقا مناقضا لأسس دساتير السماء، وقيامها بمناهضتها، فقد طفح كيل سيئاتها على حسناتها، وثقلت كف أضرارها على فوائدها، فلقد اضطرب أمن الناس واطمئنانهم، وأقلقوا وأسنت سعادتهم الحقيقية فاختل ما هو مطلوب من المدنية ومقصود منها. حيث قد حلت بسببها نوازع الإسراف والسفاهة محل بوادر الاقتصاد والقناعة... لقد ألبست -هذه المدنية- البشرية المضطربة لباس الفقر المدقع وكستها أثواب الكسل والتقاعس الرهيب.[18]

لقد فعلت الأزمة الروحية في الغرب فعلها وما ذلك إلا لأنها حادت عن موازين القرآن : ''يا أروبا الثانية التي تنشر الكفر وتبت الجحود ترى هل يمكن أن يسعد إنسان بمجرد تملكه ثروة طائلة، وترفله في زينة ظاهرة خادعة، وهو المصاب في روحه وفي وجدانه وفي عقله وفي قلبه بمصائب هائلة''.[19]

فلو استطعنا أن نقدم للعالم منظومة أخلاقية كونية لكان هذا دورنا في بناء الحضارة المعاصرة، وهذا هو المنهج الذي سار عليه الأستاذ النورسي للوصول إلى حقيقة الأخلاق من حيث هي نظام القرآن، حيث سماه في غير موضع من رسائله بـ ''طريق القرآن'' أو ''المعراج القرآني'' الذي هو أقصر طريق وأوضحه وأقربه إلى الله وأشمله لبني الإنسان.[20]

وزيادة في توضيح الرؤية يقول: ''إن وجدان الإنسان لا ينسى الله قط، لما غرز فيه من ''نقطتي الاستمداد والاستناد''... إن قلب الإنسان مثلما ينشر الحياة إلى أرجاء الجسد فالعقدة الحياتية -وهي معرفة الله- تنشر الحياة إلى آمال الإنسان وميوله المتشعبة في مواهبه واستعداداته غير المحدودة...فتقطر فيها اللذة والنشوة وتزيدها قيمة وترفعها شأنا بل تبسطها وتصقلها. هذه هي نقطة الاستمداد، ثم إن معرفة الله نقطة استناد وحيدة للإنسان، تجاه تقلبات الحياة ودواماتها وتزاحم المصايب وتوالي النكبات، إذ لو لم يعتقد الإنسان بالخالق الحكيم الذي أمره كله حكمة ونظام، وأسند الأمور والحوادث إلى المصادفات العمياء.. فسينتابه الفزع والرعب وينهار من هول ما يحيط به من بلايا''.[21]

فواضح أن هذه الرؤية المؤمنة هي أشد ما يحتاجه الإنسان في هذا العصر ''فلو أننا أظهرنا بأفعالنا وسلوكنا مكارم أخلاق الإسلام وكمال حقائق الإيمان لدخل أتباع

الأديان الأخرى في الإسلام جماعات وأفواجا، بل لربما رضخت دول العالم وقاراته للإسلام.

إن البشرية التي أخذت تصحو وتستيقظ بنتائج العلوم والفنون الحديثة أدركت كنه الإنسانية وماهيتها وتيقنت أنه لا يمكنها أن تعيش هملا بغير دين، بل حتى أشد الناس إلحادا وتنكرا للدين مضطر إلى أن يلجأ إلى الدين في آخر المطاف.[22]

٤- نحو منظور أخلاقي عالمي لبعض القضايا المعاصرة :

إن ما يعانيه الإنسان بسبب الأزمات الروحية يؤكد أن دور الدين كبير وأن الحاجة إليه أشد منها في أي وقت مضى، فلا سبيل لمواجهة خطر الفناء الذي يهدد البشرية، ومواجهة ما تعانيه المجتمعات من أدواء، إلا بإحياء الإيمان والهدى فهو السبيل لربط الجسور وتزكية النفس الإنسانية بالتسابق إلى فعل الخير والعمل الصالح، وترسيخ قيم إنسانية للعلاقات الدولية.

لقد طرأت تحولات جديدة في عالمنا المعاصر في أمور الاقتصاد والثقافة والفنون والإعلام، وبفعل هذه التحولات برزت قضايا عالمية كبرى أصبحت تفرض نفسها علينا بإلحاح لإيجاد حلول لها وبناء تصور جديد وأخلاقيات دولية للتعامل معها بما يخدم مصالح الإنسانية ومن هذه القضايا ما يتصل بالطبيعة حفاظا على البيئة، وبالحياة حفاظا عليها من استخدامات خاطئة للهندسة الوراثية، وبالتنمية لردم الهوة بين الأغنياء والفقراء، وبالمال لتحكم التعامل الاقتصادي.

إن القيادات الروحية والفكرية في مختلف الأقطار مدعوة اليوم إلى أن تتلاقى وتتعارف وتتعاون لما يعود بالسعادة على الإنسان ويدفع عنه الأخطار. ومن هذا المنطلق، لاحظ الشيخ سعيد النورسي أن الإنسانية تتخبط في مفاهيم عنصرية وقومية ونفعية تزيد في معاناتها، وتنذر بتفجر أشكال جديدة من الصراع لذا حاول -رحمه الله- أن يقدم حلولا أخلاقية تنطلق من احترام الرؤية المؤمنة الموحدة التي يتكامل فيها البعد الإنساني مع البعد الأخلاقي.

- **فالسلام** هو أساس الحياة الصادقة التي تنسجم مع قوانين النفس البشرية والقوانين الكونية، وهو يتحقق مع النفس بالإيمان ومع الآخرين بالمحبة ومع العالمين بالخير، وصولا إلى السلام العالمي، وينطلق هذا المبدأ من السلام الذي هو أحد أسماء الله الحسنى يقول رحمه الله : ''إن الغاية القصوى للإنسانية والوظيفة الأساسية

للبشرية هي التخلق بالأخلاق الإلهية، أي التحلي بالسجايا السامية والخصال الحميدة -التي يأمر بها الله سبحانه- وأن يعلم الإنسان عجزه فيلجئ إلى قدرته تعالى، ويرى ضعفه فيحتمي بقوته تعالى، ويشاهد فقره فيلوذ برحمته تعالى، وينظر إلى حاجته فيستمد من غناه تعالى، ويعرف قصوره فيستغفر ربه تعالى، ويلمس نقصه فيسبح ويقدس كماله تعالى''.[23]

يتضح إذن أن النورسي أراد أن يضع مسألة ''السلام'' داخل إطار إسلامي تنطلق من ضرورة تغيير ما بالنفوس، والتخلي عن الواقع الجهم إلى التحلي بالصفات الإنسانية، وتقويم الطبائع وتصفية الضمائر وإخلاص النيات كما قال محمد رسول الله إلى الناس تمهيدا لدخول الدول في السلم كافة وإقامة علاقاتها على ''قاعدة الخلق''، فذلك هو الطريق إلى حل المشكلات الدولية والإنسانية وهو الذي يستأصل الشر وبواعثه ويحرك نوازع الخير ويدعو إلى الإخاء البشري.

فالشر ليس من طبع الإنسان، لأنه يتألم له، وليس في الشر إلا فسادا في العلاقات بين الناس ''فالخير هو الأصل في العالم أما الشر فهو تبعي، فالخير كلي والشر جزئي... وقد ثبت بشهادة العلوم جميعها... أن الحسن والخير والحق والكمال هو المقصود بالذات والغالب المطلق في خلق العالم... إن البشرية لن تستطيع أن تهضم بسهولة وسلامة الشر والقبح والباطل، ولن تسمح لها الحكمة الإلهية، لأن من يتعدى على حقوق الكائنات العامة لا يعفى عنه، ولا يسمح بعدم إنزال العقاب عليه''.[24]

- **والأمن** في الإسلام قائم على تكريم الإنسان واحترام آدميته بحيث يشعر الإنسان في ظله بالأمن النفسي والاجتماعي، وإقرار لحريته في إطار الضوابط الشرعية من أجل خدمة المجتمع وإنقاذه من عوامل الخوف والقلق، وهذا سيساهم لا محالة في الأمن العالمي.

لقد تنبه النورسي بدقة بالغة إلى كل تطلعات الدول الكبرى للسيطرة على العالم وما ارتكبته من جرائم وحشية بحق البشرية من منطلق المصالح العنصرية والأحقاد التاريخية، فحاول أن يكشف عن شرائعها الظالمة ويزنها بميزان القرآن يقول : ''نعم! لقد أظهر الزمان أن دولة تسمى داعية الحرية، قد كبلت بثلاثمائة من موظفيها المستبدين، ثلاثمائة مليونا من الهنود منذ ثلاثمائة سنة، وسيطرت عليهم بأقسى صورة من صور الظلم آخذة آلاف الأبرياء بجريرة مجرم واحد. وأعطت لقانونها الجائر هذا الإسم العدالة والانضباط، فخدعت العالم ودفعته إلى نار الظلم، هذه الدولة غدت مقتدى ذلك الاستبداد القادم في المستقبل''.[25]

- أما فيما يخص موضوع **حقوق الإنسان** فيرى أن الحضارة الغربية على الرغم مما حققته من مكاسب للبشرية لم تخل من انتهاكات، لأنها خرجت عن مبادئ الوحي الإلهي الذي كرم الإنسان، وضمن حقوق الفرد والجماعة، وأرسى مبدأ التكافل الاجتماعي، وأكد على مبدإ المساواة : ''إن المدنية الغربية الحاضرة لا تلقي السمع كليا إلى الأديان السماوية، لذا أوقعت البشرية في فقر مدقع، وضاعفت من حاجاتها ومتطلباتها، وهي تتمادى في تهييج نار الإسراف والحرص والطمع عندها بعد أن قوضت أساس الاقتصاد والقناعة وفتحت أمامها سبل الظلم وارتكاب المحرمات... فإزاء هذه المصيبة الرهيبة النازلة بساحة البشرية يداوي القرآن الكريم تلك الجروح البليغة''.[26]

وفي موضع آخر، يشير إلى الجوانب السلبية في الحضارة الغربية التي لا تتفق والتعاليم الدينية والأخلاقية الفاضلة والدليل على ذلك أنها أوصلت البشرية إلى أوخم العواقب، وهو ما نراه اليوم في عالمنا من أعمال كبرى تهدد نظام البيئة ونظام الحياة برمته. يقول رحمه الله: ''لم ترفض الشريعة هذه المدنية؟ لأنها تأسست على خمسة أسس سلبية. فنقطة استنادها هي : القوة، وهذه شأنها الاعتداء، وهدفها وقصدها : المنفعة، وهذه شأنها التزاحم، ودستورها في الحياة الجدال والصراع، وهذا شأنه التنازع، والرابطة التي تربط المجموعات البشرية هي العنصرية والقومية السلبية التي تنمو على حساب الآخرين، وهذه شأنها التصادم، وخدمتها للبشرية خدمة فاتنة جذابة هي تشجيع هوى المنفعة وإثارة النفس الأمارة وتطمين رغباتها وتسهيل مطالبها، وهذا الهوى شأنه : إسقاط الإنسان من درجة الملائكية إلى درك الحيوانية الكلبية وبهذا تكون سببا لمسخ الإنسان معنويا... ولأجل هذا فقد دفعت هذه المدنية الحاضرة ثمانين بالمئة من البشرية إلى أحضان الشقاء وأخرجت عشرة بالمئة منها إلى سعادة مموهة زائفة... لأجل كل هذا لا يرضى القرآن الكريم بمدنية لا تضمن سعادة الجميع أو لا تعم الغالبية العظمى''.[27]

- وفيما يخص موضوع **الحفاظ على البيئة** ربطها الأستاذ سعيد النورسي بالرؤية الكونية التي دعا إليها القرآن القائمة على مبدإ الاستخلاف والأمانة، فالله أحسن كل شيء خلقه وخلق الإنسان على أحسن تقويم وجعله خليفة في الأرض بعد أن أنشأه منها واستعمره فيها، وخلق كل شيء بقدر، ونظم دورة الحياة بحسبان وتناغم، ودعا الإنسان إلى تعمير الأرض التي جعلها ذلولا وإلى العناية بنفسه وبما حوله في بيئته استجابة لأمر الله الذي سخر له ما في هذا الكون.

لكن الواقع الحضاري في عالمنا يكشف عن أخطار تهدد بيئتنا ومحيطنا بفعل

طغيان في البشر على البيئة وامتهانهم لها والتعدي عليها، ومن هنا يكشف الشيخ سعيد النورسي عن الأسباب الحقيقية التي تهدد سعادة الإنسان لخروجه عن مقتضى الحكمة الإلهية الأزلية، فهو إما أن يتقدم أو يتأخر، إما أن يتقدم إلى النعيم ويحظى بالفوز في الدنيا والآخرة وإما أن يتأخر إلى الطغيان فيكون سببا في شقاء نفسه وإخوته ومحيطه يقول : ''إن الإنسان خلق ممتازا ومستثنى من جميع الحيوانات بمزاج لطيف عجيب أنتج ذلك المزاج فيه ميل الانتخاب وميل الأحسن وميل الزينة، وميلانا فطريا إلى أن يعيش ويحيى بمعيشة وكمال لائقين بالإنسانية، ثم لأجل تلك الميول احتاج الإنسان في تحصيل حاجاته في مأكله وملبسه ومسكنه إلى تطليفها وإتقانها بصنائع جمة لا يقتدر هو بانفراده كلها، ولهذا احتاج إلى الامتزاج مع أبناء جنسه ليتشاركوا فيتعاونوا، ثم يتبادلوا ثمرات سعيهم... ومنها أن العبادة لتوجيه الأفكار إلى الصانع الحكيم والتوجه لتأسيس الإنقاد والانقياد للإيصال إلى الانتظام الأكمل والارتباط به، واتباع النظام لتحقيق سر الحكمة، والحكمة يشهد عليها إتقان الكائنات''.[28]

وهكذا يصل بنا الأستاذ سعيد النورسي إلى استشعار رؤية أخلاقية قرآنية قائمة على دعوة الإنسان إلى استباق الخيرات والبعد عن نوازع الشر والعبثية ''حتى لا يزلق ولا يطرد ولا يلقى على ظهره هذه الدواليب المتحركة في الطبقات، وما هي إلا العبادة التي هي امتثال الأوامر واجتناب النواهي ... إن الإنسان مع صغر حجمه وضعفه وعجزه وكونه حيوانا من الحيوانات ينطوي على روح غال، ويحتوي على استعداد كامل، ويتبطن ميولا لا حصر لها ويشتمل على آمال لا نهاية لها... مع أن فطرته عجيبة كأنه فهرسته للأنواع والعوالم.[29]

وهكذا، ينتهي -رحمه الله- إلى أن البشرية -في ظل تخبطها وقلقها وحيرتها- ''ستبحث عن القرآن الكريم... والذي يحتفظ بمكانته المقدسة في قلوب ملايين الحفاظ في كل دقيقة... والذي يرشد البشرية بألسنتهم ويبشرها بأسلوبه المعجز بالحياة الباقية والسعادة الدائمة مضمدا بها جراحاتها الغائرة، وأن رسائل النور قد أظهرت خدماتها باستنادها إلى هذه الخزينة القرآنية''.[30]

وخلاصة القول أن النورسي استطاع أن يقدم للإنسانية نظرية عالمية للأخلاق منسجمة مع منطق الوحي الإلهي، متحركة في مجالاته مقدمة حلولا أخلاقية لواقعنا المتأزم يقوم على أساس الإيمان والفضيلة والحياة المتزنة وهذا هو معنى قوله تعالى ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾. المومنون:٧١

قائمة المصادر والمراجع

مصادر أساسية:

١- بديع الزمان سعيد النورسي، الكلمات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، ط ٣، القاهرة، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

٢- بديع الزمان سعيد النورسي، المكتوبات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، القاهرة، ط ٢، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.

٣- بديع الزمان سعيد النورسي، اللمعات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، القاهرة، ط ٢، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

٤- بديع الزمان النورسي، الشعاعات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، القاهرة، ط ٢، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

٥- بديع الزمان النورسي، إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، تحقيق إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، القاهرة، ط ٢، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.

٦- بديع الزمان النورسي، المثنوي العربي النوري، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، القاهرة، ط ١، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

٧- بديع الزمان النورسي، الملاحق في فقه دعوة النور، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، القاهرة، ط ٣، ١٩٩٩.

٨- بديع الزمان النورسي، صقيل الإسلام، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، القاهرة، ط ٣، ١٩٩٩.

٩- بديع الزمان النورسي، سيرة ذاتية، إعداد وترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، القاهرة، ط ٣، ٢٠٠٠.

مراجع إضافية:

١- أبو بكر القادري، المفكر الإسلامي والداعية المجدد بديع الزمان سعيد النورسي، مجلة أكاديمية المملكة المغربية، أحاديث الخميس العدد ٢٣، السنة ٢٠٠٦، الرباط.

٢- بحوث المؤتمر العالمي السابع لبديع الزمان النورسي، إسطنبول ٢٠٠٤.

٣- بحوث المؤتمر العالمي السادس لبديع الزمان النورسي، إسطنبول، ٢٠٠٢.

٤- بديع الزمان النورسي، فكره ودعوته، وقائع الحلقة الدراسية المنعقدة في قاعة المركز الثقافي الإسلامي بعمان، بتاريخ ٧ صفر ١٤١٨/ ١٢ حزيران ١٩٩٧، نشر المعهد العالمي للفكر الإسلامي، مكتب الأردن ومركز بحوث رسائل النور، تركيا، عمان، ١٩٩٧.

٥ الشفيع الماحي أحمد، الأمثال في رسائل النور، ط ١، نشر سوز للطباعة والنشر إسطنبول، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

٦- عبد العزيز برغوث، مقومات التجديد الحضاري عند بديع الزمان النورسي، ط ١٩٩٩، نشر Univision press-Malaysia-Kuala-Lumpur.

٧- محسن عبد الحميد النورسي الرائد الإسلامي الكبير، مجلة دعوة الحق، وزارة الأوقاف المغربية، العدد ٢٤٤، جمادى الأولى ١٤٠٥-يناير ١٩٨٥.

٨- محسن عبد الحميد، تجديد الفكر الإسلامي، دار الصحوة للنشر، مصر، بدون تاريخ.

٩- محسن عبد الحميد، من أئمة التجديد الإسلامي، ط. النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٨٦.

١٠- الجمالية في الفكر الإسلامي المعاصر، النورسي نموذجا، أعمال الندوة الدولية المنعقدة بجامعة ابن زهر، كلية الأداب والعلوم الإنسانية، أكادير، المغرب، أبريل ٢٠٠٥، دارسوز للطباعة والنشر، إسطنبول، ط ١، ١٤٢٨-٢٠٠٦.

الهوامش:

[1] جامعة القرويين، كلية أصول الدين، المملكة المغربية.

[2] محسن عبد الحميد، المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري، ص ٥٦، كتاب مجلة الأمة عدد جمادى الآخرة ١٤٠٤.

[3] الإسلام في معترك الحضارة، ص ٦٦.

[4] بديع الزمان سعيد النورسي، صقيل الإسلام، الخطبة الشامية، ٤٩٤.

[5] بديع الزمان سعيد النورسي، الكلمات ٢٩٢.

[6] سعيد النورسي، صقيل الإسلام، الخطبة الشامية، ٤٩٥.

[7] محسن عبد الحميد، أزمة المثقفين اتجاه الإسلام في العصر الحديث، ص ١٢٢، ط البيضاء، ١٩٨٥.

[8] محسن عبد الحميد، سعيد النورسي، ضمن كتابه من أئمة التجديد الإسلامي، ص ١٥٥، ط البيضاء، ١٩٨٦.

[9] سعيد النورسي، اللمعات، ص ١٧٦-١٧٧، اللمعة السابعة عشرة.

[10] بديع الزمان النورسي، صقيل الإسلام، المناظرات، ص ٤٠٠.

[11] سعيد النورسي، الكلمات، ص ٢٩٠-٢٩١.

[12] الكلمات، ص ٣٦٩-٣٧٠، الكلمة الثالثة والعشرون

[13] انظر على سبيل المثال كتابات شبنغلر في كتابه ''سقوط الحضارة الغربية''*** وتوينبي في كتابه ''دراسات في التاريخ''*** وألكسيس كاريل ''الإنسان ذلك المجهول''*** وكريسي مورسيون في كتابه ''العلم يدعو إلى الإيمان''*** وغارودي في كتابه ''البديل''*** وديورانت ''مباهج الفلسفة''*** وكولن ولسون في كتابه ''اللامنتمي''*** و''***سقوط الحضارة''***''---، حيث يتضح لك سلبيات تلك الحضارة وخطورتها لاسيما تلك التي تتصل بالحروب المدمرة وإنكار أصول الدين وتحطيم الأخلاق.

[14] فريد الأنصاري، الكونية الأخلاقية بين علوم القرآن وعلوم الإنسان، دراسة في نظرية الأخلاق عند الأستاذ بديع الزمان النورسي، ضمن أعمال المؤتمر العالمي السادس لبديع الزمان النورسي، ص ٢٠٣.

[15] النورسي، لمحسن عبد الحميد ضمن كتابه من أئمة التجديد الإسلامي، ص ١٥٦-١٥٧، ط البيضاء، ١٩٨٦.

[16] الكلمات، ص ٤٧٢-٤٧٣، الكلمة الخامسة والعشرون.

[17] الكلمات، ص ٥١٨، الذيل الأول من الكلمة الخامسة والعشرين.

[18] سعيد النورسي، الملاحق، ملحق أميرداغ ٢، ص ٣٧٧-٣٧٨.

[19] سعيد النورسي، اللمعات، اللمعة السابعة عشرة، ص ١٧٧.

[20] النورسي، صقيل الإسلام، محاكمات عقلية، ص ١٢٣.

[21] صقيل الإسلام، ص ١٢٢.

[22] صقيل الإسلام، ص ٤٩٤.

[23] سعيد النورسي، الكلمات، ص ٦٤٢، الكلمة الثلاثون.

[24] صقيل الإسلام، ص ٥٣-٥٤، محاكمات عقلية.

[25] صقيل الإسلام، المناظرات، ص ٣٨٢.

[26] الملاحق، ملحق أميرداغ ٢، ص ٣٨٠.

[27] صقيل الإسلام، السائحات، ص ٣٥٧-٣٥٨.

[28] بديع الزمان النورسي، إشارات الإعجاز، ص ١٤٥-١٤٦.

[29] إشارات الإعجاز، ص ١٤٨-١٤٩.

[30] الكلمات، ص ١٧٢-١٧٣.

ملف العدد

أساسيات منهج الفكر المقاصدي عند النورسي

ذ. عبد العزيز البطيوي[1]

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على إمام المرسلين وخاتم النبيئين على آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

عند اختياري لعنوان هذا الموضوع حسبت الأمر سهلا ميسرا فإذا بي أمام أسرار، إذ الرجل ليس عاديا، وقلت لنفسي لاشك أن هذا الرجل الذي قرأ الأصول وضبطها، ودرس وحفظ ''جمع الجوامع'' في أسبوع واحد وكان لفكره ومشروعه الإصلاحي هذا التأثير العظيم لابد أن تكون له رؤية مقاصدية واضحة، وأنه شيد بناءه المعرفي على أصول وكليات الشريعة، فأصاب الهدف ونال المقصد، وحسبي أن أنبه إلى أن النورسي كان يصدر في جميع أفكاره ومقولاته عن عقل مقاصدي يتخذ من المقاصد منطلقا لفهم الشريعة وتنزيل أحكامها، وأساسا لصياغة أولويات مشروعه الإصلاحي الرامي إلى تجاوز أزمة الإيمان وتحقيق المصالحة مع الدين وذلك بالعودة إلى القرآن الكريم والعيش في رحابه والتفيؤ بظلاله.

وقد تحقق في مشروع النورسي حقيقة أن القرآن الكريم هو ''النور الخالد المطلق'' وآمن هذا الرجل إيمانا جازما أن القضية هي أن نفهم عن الله من خلال كلامه المبين وذكره الحكيم مقاصد هذا النور والغايات التي يريد من البشرية أن تتوجه إليها والحكم التي ينبغي أن تضبط حركتها في الحياة. وعلى هذا الأساس كان سعي النورسي إلى تقليص الهوة والفجوة والمسافة بين الفقه المعهود والواقع المعيش، وتجاوز القراءة النصية التجزيئية لآيات الأحكام والتي تظل قاصرة عن إدراك كليات الشريعة ومقاصد القرآن الكريم. وفي مقابل ذلك كان نظر النورسي نظرا مقاصديا صادرا عن عقلية أصولية مجددة تستكشف المصالح خلف الأحكام، وتعتمد على الكليات التشريعية وتجعل منها حكما في فهم النصوص، فتراه يرد الجزئي إلى الكلي،

والفرع إلى الأصل، ويميز بين المقاصد الأصلية والمقاصد التبعية، لا تستغرقه الجزئيات ولا تستهويه الأشكال، وإنما يغوص غوص العارف المتقن فيتبين الحكم والغايات، والمقاصد والجواهر، ويجعل الآيات تنطق بأسرارها. ولعل عدم انشغال النورسي كثيرا بالأحكام الفقهية الجزئية وعنايته أكثر بإحياء فقه المقاصد فيه دلالة على الرؤية التي يصدر عنها فكر الرجل وإدراكه للمرحلة التاريخية التي تمر منها الأمة الإسلامية والتي تستدعي عدم الانحسار داخل الفقه بمعناه الضيق والذي تضخم عبر قرون التخلف على حساب الفقه السياسي والاجتماعي، والتوجه نحو استبصار القواعد الكلية والحكم العلية والمقاصد السامية لأحكام الشريعة ونصوص القرآن الكريم حتى يتجدد الفقه ويستعيد وظيفته الفاعلة في توجيه حركة الحياة ويضبطها بروح الشريعة ويحررها من العجز والجمود والركون إلى الأرض والانشغال بتوافه الدنيا والإعراض عن أنوار الإيمان وحقائق التوحيد. ولذلك لم يكن انشغال النورسي بالمقاصد ترفا فكريا أو انفلاتا تربويا يخفي وراء دعوى التجديد الانسلاخ من أحكام الشرع أو عملا أكاديميا محضا وإنما كانت دعوته إلى المقاصد دعوة العالم العامل المجاهد المسكون بهاجس الإصلاح واستعادة الأمة لدورها الحضاري المتمثل في الشهادة على العالمين.

لقد كان وعي النورسي متقدما كثيرا على معظم من عاصروه وعلى كثير ممن نعاصرهم نحن اليوم بالأهمية البالغة للمقاصد باعتبارها أكبر الموجهات أو المحددات المنهجية والمعرفية لحركة الفكر وفكر الحركة ''الممارسة العملية'' بدلا من اجترار المعارك الوهمية التي خاضها علم الكلام والفلسفة والتي لم تثمر سوى جدالات ومساجلات أفقرت العقائد مضمونها الإيماني وفعاليتها التغييرية.

أولا: تعريف المنهجية المقاصدية:

١- تعريف المنهجية:

لا يدل هذا المصطلح هنا على العلم الذي يدرس كيفية methodologie بناء المناهج واختبارها وتعديلها

بل المقصود هنا تلك الأدوات والطرائق والإجراءات التي يسلكها العقل لبلوغ المعرفة التي يسعى إليها. وهذه العناصر لا تنفصل بحال عن الإطار المرجعي والنموذج المعرفي والجهاز المفاهيمي الذي يحكمها ويوجهها، ولذلك سيكون حديثنا

جمعا بين الأمرين لهذا السبب ولسبب آخر وهو صعوبة الفصل والتمييز بينهما في كتابات النورسي.

٢- تعريف المقاصد:

إن قارئ الموافقات -السفر التنظيري للمقاصد- لن يعثر على تعريف للمقاصد ولا عند غيره من الأصوليين والفقهاء ممن تعرضوا لذكر المقاصد قديما، كما بين ذلك د.الريسوني ذلك أنهم انصرفوا إلى العمل بها اجتهادا وتطبيقا وتنزيلا وقدموا في ذلك استعمالات دالة على معنى المقاصد كالحكمة المقصودة والمصلحة والعدل ونفي الضرر ودفع المشقة والعلل والغرض والمغزى وعدم تعلق الأحكام بالألفاظ كما هو قول ابن العربي في أحكام القرآن: ''ولا تتعلق الأحكام بالألفاظ إلا أن ترد على موضوعاتها الأصلية في مقاصدها المطلوبة، فإن ظهرت في غير مقصدها لم تعلق عليها مقاصدها...''[2]

وفي مقابل ذلك وجدنا الشيخ الطاهر بن عاشور يعرف المقاصد العامة للشريعة قائلا ''هي المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها، بحيث لا تختص ملاحظتها بالكون في نوع خاص من أحكام الشريعة فيدخل في هذا: أوصاف الشريعة وغاياتها العامة والمعاني التي لا يخلو التشريع عن ملاحظتها، ويدخل في هذا أيضا معان من الحكم ليست ملحوظة في سائر أنواع الأحكام ولكنها ملحوظة في أنواع كثيرة منها''.[3] وعرفها الأستاذ علال الفاسي موضحا موجزا فقال: ''المراد بمقاصد الشريعة الغاية منها والأسرار التي وضعها الشارع عند كل حكم من أحكامها''[4] وفيه إشارة إلى المقاصد العامة والمقاصد الخاصة وبناء على هذين التعريفين ومن خلال ما كتبه العلماء في موضوع المقاصد خلص د. الريسوني إلى هذا التعريف: ''إن مقاصد الشريعة: هي الغايات التي وضعت الشريعة لأجل تحقيقها، لمصلحة العباد''[5] وقد اختار الخادمي تعريفا للمقاصد نحته من التعريفات السابقة فجعل المقاصد هي: ''المعاني الملحوظة في الأحكام الشرعية والمترتبة عليها، سواء كانت تلك المعاني حكما جزئية أم مصالح كلية أم سمات إجمالية وهي تتجمع ضمن هدف واحد هو تقرير عبودية الله ومصلحة الإنسان في الدارين''.[6]

ويبدو أن الريسوني رجح كلمة الغايات مسايرا في ذلك الفاسي في حين رجح الخادمي كلمة المعاني مسايرا في ذلك ابن عاشور للدلالة على لفظ المقاصد وإن

كانت الكلمتين متداخلتين متقاربتين فالأرجح تغليب كلمة الغاية على كلمة المعنى لكونها أعم وأشمل.

ومن خلال ما سبق يبدو أن المقاصد كغايات أو كمعاني صرحت بها الشريعة ووضعتها لاعتبارها عند استنباط الأحكام وتحقيقا لمصلحة العباد، هي فن شرعي معتبر يراعي إنسانية الإنسان وتنزيل نصوص الشريعة على الواقع البشري.

وارتباطا مع موضوع المقاصد عند النورسي، ونظرا لاشتغاله ببيان مقصود القرآن العظيم يمكن القول بعد استقراء أولي لما كتبه النورسي أن المقاصد عنده هي: المعاني والغايات والحكم الملحوظة للشارع الدالة على أسرار أحكامه المرعية لمصالح الخلق المتجلية في كل سورة من سور القرآن بل في كل آية من آياته وكلمة من كلماته وحرف من حروفه.

٣- المنهجية المقاصدية:

يبدو من خلال التعريف السابق الذي استقرأناه من كتابات النورسي أن المنهجية المقاصدية تندرج ضمن المنهجية التكاملية التي حكمت رؤية النورسي للقرآن العظيم، وترتبط بمشروعه الفكري القائم على تحديد الأهداف وترتيب الأولويات وتأصيل المنطلقات وتبصر مواطن الخلل وعدم معارضة سنن الأنفس والآفاق.

إن المنهجية المقاصدية هي في حقيقتها تجسيد لفلسفة الدين وروحه وهي لذلك تستند إلى بنيتين أساسيتين: الأولى وهي البنية التشريعية (شبكة الأحكام)، والثانية البنية المعرفية (شبكة المعاني)، ومحاولة ضبط الكيفيات والإجراءات الكفيلة باستنباط المقاصد وصياغتها وتركيبها وتفعيلها (وهو المقصود بالمنهجية المقاصدية) لا يمكنه أن يتم خارج هذين البنيتين. والمقاصد هي ذاتها تشكل منهجا كما أشار إلى ذلك الدكتور الريسوني بقوله: "فالمقاصد بأسسها ومراميها، وبكلياتها مع جزئياتها، وبأقسامها ومراتبها، وبمسالكها ووسائلها، تشكل منهجا متميزا للفكر والنظر، والتحليل والتقويم، والاستنتاج والتركيب.[7] وأحسب أن عقل النورسي لم تغب عنه فكرة المقاصد وهو يفكر وينظر، ويحلل ويقوم، ويستنتج ويركب، فقد كانت المنهجية المقاصدية تلازم كل كتاباته، وتسكن جميع همومه، وتحضر في جميع دفاعاته عن الإسلام وذلك بسبب ما أفاض الله على قلبه من أنوار القرآن وبصائر الوحي.

ثانيا: لماذا المقاصد؟ ولماذا التشديد على المنهجية المقاصدية؟:

إن الحديث عن فقه المقاصد واجتهاد المقاصد وأصول المقاصد وطرق معرفتها هو حديث عن ذلك ''الفقه الحي الذي يدخل على القلوب بغير استئذان''[8] وهو وصف محكم من ابن القيم رحمه الله إلى أن القراءة النصية لأحكام الشرع تميت هذا الدين وتولد أفهاما جامدة أو تأويلات متسيبة فاسدة جراء القراءة التجزيئية القاصرة عن إدراك روح مقاصد الشريعة ولذلك كان من ''فالنظرة الشمولية المنسجمة للشريعة وأحكامها، لا تتأتى إلا لمن خبروا المقاصد وأحكموا الكليات، ثم نظروا في الأحكام من خلال ذلك، ومن فاته هذا المستوى وأهمل هذا النوع من النظر، وقع في التخبط والاضطراب، وأتى بالأقوال الشاذة المجافية لمقاصد الشرع، وانتهى إلى العجز والانكماش.''[9]

ولعل المتأمل في تاريخ الإبداع الفقهي والأصولي لأعلام أمتنا العظام قبل الإمام الشاطبي -شيخ المقاصد وإمام هذا الفن بلا منازع- أن العقل المسلم هو عقل مقاصدي تعليلي قائم على النظر الكلي الغائي ومبني على منطق أصولي استقرائي استنتاجي جعله مؤهلا لأداء دور الاستخلاف والتعمير واستشراف المستقبل وتحقيق مقصد خلود الشريعة وصلاحها وامتدادها الزماني والمكاني عبر اجتهاد تطبيقي مواكب لحركة الحياة لا يرى شريعة الله إلا شريعة عدل ومصلحة ورحمة.

وقد أشار الدكتور يوسف العالم إلى مجموع الأدلة المتنوعة التي ''تجعلنا نقطع بأن للشارع مقاصد وأهداف تتحقق بواسطة إتباع أحكامه وقد توصل العلماء السابقون بعد البحث في النصوص الجزئية والكلية والعموميات، والمطلقات والمقيدات، في جميع أبواب الفقه، فوجدوها كلها دائرة على حفظ مقاصد الشارع''[10] وهذا تأكيد على شيوع الاجتهاد المقاصدي عند علماء الإسلام بأقدار متفاوتة كل له إضافته المنهجية في تنظير المقاصد والمصالح وإن كان الفقهاء كما صارت إليه قناعة د. الريسوني – أكثر دراية وعناية وتطبيقا للمقاصد من الأصوليين الذين كان لهم فضل إظهار المقاصد والتنظير لها.

وإذا كان هذا حال علمائنا أهل الغوص في مقاصد الشريعة والعارفون بأسرارها وعللّها فإن الكثير ممن اشتغلوا بعلم الدين''شغلتهم الظواهر عن الأسرار والمقاصد وألهتهم الفروع عن الأصول... فظهرت الشريعة على ألسنتهم وأقلامهم كأنها قاصرة

عن تحقيق مصالح الخلق والقصور ليس في الشريعة وإنما هو في أفهامهم التي قطعت الروابط بين الأحكام بعضها وبعض..."[11]

وإذا كانت المقاصد منهجا للفكر والنظر، والتحليل والتقويم، والاستنتاج والتركيب -كما قال د. الريسوني- فإنها هي ذاتها تحتاج إلى منهج لإحكام التعامل معها وتحرير القول فيها فهما واستنباطا وتحديدا وترتيبا وتفريعا وصياغة وتنزيلا، وهنا يكون الحديث عن منهج المنهج، أي عن المنهج من الدرجة الثانية. وإذا كان الأمر كذلك فإنه لا يمكن تجاوز النظام المعرفي والمرجعية الفكرية التي تنتظم داخلها دائرة المقاصد، ويعد كل فصل لمنهج الفكر المقاصدي عن مجاله العلمي الأصولي تبعيضا للنظرية الإسلامية في المقاصد وتجزيئا لها وإخلالا ببنيتها الداخلية.

إن سؤال المنهج في الدرس المقاصدي هو سؤال مركزي وجوهري، ولا تتم مقاربته مقاربة علمية سليمة إلا بأدوات المنهجية الأصولية مع الاعتبار بما عداها من الأدوات المنهجية التي تشترك فيها مع مجموع العلوم الإسلامية الأخرى.

وحينما نتأمل اليوم في هذه الندوة النتاج العلمي والعطاء الفكري المتعلق بفقه المقاصد والحكم عند علم من أعلام أمتنا وعملاق من عمالقة الفكر والدعوة في القرن العشرين بديع الزمان النورسي– فذلك لأننا اليوم في أمس الحاجة إلى ربط الفقه بمقاصد الشريعة وتدريب العقل المسلم المعاصر على التعامل مع الكليات الشرعية وإتقان صنعة الاجتهاد المقاصدي مع الوقوف عند ضوابطه والإمساك بأصول المنهج الأصولي في التعامل مع المقاصد دون استعجال في الفتيا أو استدراك هجين مغرور فيه مناطحة لعالم جليل.

ثالثا: مقاصد القرآن وكلياته عند النورسي:

يؤسس النورسي تعريفه للقرآن الكريم على أساس مقاصدي، وهو لا يسأم من التذكير به والعودة إليه والارتباط بمعانيه ودلالاته في جميع ما كتب وألف، ونختار من بينها قوله الذي جاء مفصلا مبينا في القطرة الثانية من الرشحة الرابعة عشرة المتضمنة لقطرات من بحر المعجزة الكبرى: "هو الترجمة الأزلية لهذه الكائنات والترجمان الأبدي لألسنتها التاليات للآيات التكوينية، ومفسر كتاب العالم. وكذا هو كشاف لمخفيات كنوز الأسماء المستترة في صحائف السموات والأرض. وكذا هومفتاح لحقائق الشؤون المضمرة في سطور الحادثات. وكذا هو لسان الغيب في عالم

الشهادة. وكذا هو خزينة المخاطبات الأزلية السبحانية والالتفاتات الأبدية الرحمانية. وكذا هو أساس وهندسة وشمس لهذا العالم المعنوي الإسلامي. وكذا هو خريطة للعالم الأخروي. وكذا هو قول شارح وتفسير واضح وبرهان قاطع وترجمان ساطع لذات الله وصفاته وأسمائه وشؤونه. وكذا هو مرب للعالم الإنساني. وكالماء والضياء للإنسانية الكبرى التي هي الإسلامية.. وكذا هو الحكمة الحقيقة لنوع البشر، وهوالمرشد المهدي إلى ما خلق البشر له. وكذا: هو للإنسان كما أنه كتاب شريعة، كذلك كتاب حكمة. وكما أنه كتاب دعاء وعبودية، كذلك هو كتاب أمر ودعوة. وكما أنه كتاب ذكر، كذلك هو كتاب فكر. وكما أنه كتاب واحد، لكن فيه كتب كثيرة في مقابلة جميع حاجات الإنسان المعنوية.''[12] ففي هذا التعريف الآسر جملة من المقاصد والمقامات والغايات التي تنزل القرآن من أجلها ودعا القلوب إلى الإيمان بها، والعقول إلى معرفتها وبذلك تحققت الوظيفة الكبرى والغاية القصوى من القرآن العظيم وهي أنه -وبتعبير النورسي- ''قد بدل الحياة الاجتماعية تبديلا هائلا؛ نور الآفاق وملأها بالسعادة والحقائق، وأحدث انقلابا عظيما سواء في نفوس البشر وقلوبهم، أو في أرواحهم وعقولهم، أو في حياتهم الشخصية والاجتماعية والسياسية، وأدام هذا الانقلاب وأداره''.[13]

إن قول النورسي أن القرآن كتاب شريعة وكتاب حكمة، وقوله الآخر في الشعاع السابع أن ''القرآن الكريم قد بين سبيل سعادة الدارين، ووضح غايات خلق الكون، وما فيه من المقاصد الربانية موضحا ما يحمله ذلك المخاطب الكريم من الإيمان السامي الواسع الذي يضم الحقائق الإسلامية كلها عارضا كل ناحية من نواحي هذا الكون الهائل ومقلبا إياه كمن يقلب خارطة أو ساعة أمامه.''[14] فيه بيان واضح عن شمول القرآن الكريم للكليات العامة والمصالح العليا التي تسع الدنيا والآخرة والتي تتفرع عنها مقاصد جزئية ومصالح فرعية، وفيه بيان أيضا لنوعي المقاصد: مقاصد الخلق وتتعلق بالأمر التكويني، ومقاصد الشريعة وتتعلق بالأمر التكليفي، ولم يميز فيما يبدو بينهما النورسي لتعلق أحدهما بالآخر: فالخلافة مثلا بوصفها مقصدا للخلق يقابلها على جانب مقاصد الشريعة أن يكون الإنسان قائما مقام من استخلفه، وقد أورد الدكتور جمال عطية هذا المثال وأمثلة أخرى لبيان العلاقة بين القصدين الخلقي والشرعي،[15] والنورسي رحمه الله عمل بهذا الأمر بحسب رؤيته الموضوعية والكلية لآيات القرآن وأحكامه، ولم يكن يرى في مقاصد القرآن سوى بنية كلية جامعة تترابط

أجزاؤها وتتداخل معانيها ودلالاتها، وهي تخضع في النهاية لناظم ينظمها وهو هذه المفاهيم الكلية الأربعة التي عدها النورسي المقاصد الأساسية فقال: ''اعلم أن مقاصد القرآن الأساسية وعناصره الأصلية أربعة: التوحيد، والرسالة، والحشر، والعدالة مع العبودية. فيصير سائر المسائل وسائل هذه المطالب.''[16] وفي كثير من نصوص النورسي تأكيد على أن مقصد المقاصد ومطلب المطالب هو معرفة الله تعالى وعبادته وهو الذي تنتظم داخله أمهات المقاصد والكليات، فكل سورة وآية وحرف في القرآن الكريم يشهد شهودا تاما أزليا فيوضات لا تنتهي من الأسرار والمعاني المقررة لهذه المقاصد والمبينة لها والضامنة لسعادة الإنسانية، ولذلك اكتسب خطاب القرآن الكريم'' صفة الكلية والسعة المطلقة والرفعة السامية والإحاطة الشاملة؛ لصدوره مباشرة من المقام الواسع المطلق للربوبية العامة الشاملة للمتكلم الأزلي سبحانه...''[17]

لقد كان النورسي كثيرا ما يؤاخذ مناهج المتصوفة والفلاسفة والمتكلمين في معرفة الله، ويصف بعضها بأنها طريق طويلة موحشة غير مأمونة، وذلك من حيث إنهم خاضوا في مسائل وقضايا أعرض القرآن عن الخوض فيها مراعيا في ذلك المصلحة والحكمة من تقديمها عامة من غير تفصيل، ولعل هذا الذي جعل النورسي يربط دوما فهمه لنصوص القرآن بالبعد المقاصدي، وأدرك هذا المعنى الذي أشار إليه الدكتور الروكي بقوله: ''إن مقاصد الشريعة وعاء للأدلة الشرعية منقولها ومعقولها، وهي ميزانها والمسلك السليم للبحث فيها، وهي المنهاج النبوي الذي في ضوئه تفسر النصوص الشرعية تفسيرا سليما، وعلى أساسه يستنبط الفقيه ويجتهد بعيدا عن مزالق القصور وظلمات الجمود.''[18]

إن مدخل النورسي لفهم القرآن هو مدخل البناءات الكلية والمقدمات التأسيسية، وقد استمد النورسي هذا المدخل من خلال وعيه بنوعين من التحديات: أولها التحدي الداخلي؛ أي من داخل التراث الإسلامي الذي غلب عليه في القرون المتأخرة التفسير التجزيئي في فهم نصوص القرآن، وثانيها التحدي الخارجي المتمثل في انتشار الفلسفات والإيديولوجيات ذات الطابع النظري والكلي وفي مقدمتها الفلسفة الماركسية. ومواجهة هذين التحديين تطلب الأمر من النورسي النظر إلى القرآن كوحدة معرفية متكاملة تتجاور فيها وتترابط وحدة الدلالة مع وحدة الموضوع ووحدة المعنى في جمالية باهرة وهندسة متناهية وبلاغة معجزة وكشف لحقائق الكون والحياة والإنسان، ولم يتأت ذلك للنورسي إلا بعد أن عاش مع كلام الله حسا ومعنى، فشهد

ما شهد من الأنوار، حتى صفى قلبه من الأكدار، ورأى بعين الحق نور الحقيقة، وأبصر بعلمه وتجربته الإيمانية مقاصد القرآن وحكمه السامية، حتى رأى أن ما يقدمه هو ''نوع تفسير شهودي لبعض الآيات القرآنية''.[19]

رابعا: معارضة المنهجية المقاصدية النورسية للمنهجية الفلسفية:

إن كل ما كتبه النورسي من رسائل النور هو تجسيد لمنهجية القرآن العظيم في عرض الحقائق وبيان الأحكام، ورد للأفهام السقيمة والتصورات الغامضة التي غاصت فيها الفلسفة، ولذلك اشتد نكيره عليها، وبين عوارها وأظهر عجزها عن أن تكون منهجيتها معراجا إلى معرفة الله: أعلى المقاصد وأسمى الغايات، بل هي ''أي معرفة الله'' عرش الكمالات على حد تعبير النورسي،[20] ويفصل النورسي في هذا فيقول: ''وهناك أصول أربعة للعروج إلى عرش الكمالات وهو 'معرفة الله' جل جلاله:

أولها: منهج الصوفية، المؤسس على تزكية النفس والسلوك الاشراقي.

ثانيها: منهج علماء الكلام المبني على'الحدوث والامكان' في إثبات واجب الوجود.

ومع أن هذين الأصلين قد تشعبا من القرآن الكريم، إلاّ أن البشر قد أفرغهما في صور شتى، لذا أصبحا منهجين طويلين، وذوي مشاكل فلم يبقيا مصانين من الأوهام والشكوك.

ثالثها: مسلك الفلاسفة المشوب بالشكوك والشبهات والاوهام.

رابعها وأولاها: طريق القرآن الكريم الذي يعلنه ببلاغته المعجزة، وبجزالته الساطعة، فلا يوازيه طريق في الاستقامة والشمول، فهوأقصر طريق إلى الله، وأقربه إلى الله، وأشمله لبني الإنسان.

ولبلوغ عرش هذا الأصل هناك أربع وسائل: الإلهام، التعليم، التزكية، التدبر.''[21]

إن منهجية الفلاسفة مبنية أساسا على مراجعة كل شيء وعدم القول بالمطلق، وأنه ليس ثمة حقيقة يمكن أن يثق العقل بها، فلا وجدود لليقين والثابت من وجهة نظر الفلسفة، كما أنه لا يعترف إلا بالعقل كمصدر للمعرفة، وإن ظهرت مراجعات في تاريخ الفلسفة وخصوصا الفلسفة المعاصرة حول مثل هذه القضايا فإن التيار الفلسفي

القائم على التشكيك ورد المطلقات وعدم اعتبار مسائل الإيمان وتصور قضايا الإنسان والطبيعة والعلم من منطلقات مادية متطرفة، ومقاييس تجريبية حسية محضة هو التيار الذي ظل يفرض سيطرته على الساحة الفكرية حتى غدت الفلسفة إنما تعرف بهذا التيار، وهو تيار المادية الذي قادته الفلسفة الماركسية باقتدار، ويقوده اليوم تيار العلمانية والتحللية في العالم الإسلامي والغربي. ومن خلال استقرائه للنظريات الفلسفية ولأحوال الفلاسفة كما يبدو من كلامه خلص النورسي إلى أن إفلاس الفلسفة هو في عدولها عن الحق والحقيقة، وأنها لاتعدو أن تكون مطنطنات كلامية لاتفيد ''كمالا علميا ولا ذوقا روحيا، ولا غاية إنسانية ولا فائدة دينية. بل تفيدك حيرة مدهشة ودهشة موحشة. وتسقطك من سماء التوحيد المضيء في أودية الكثرة المظلمة.''[22] فالمنهجية الفلسفية إذن منهجية شكية ريبية لا تدرك غايات الوجود، وتقصر عن فهم حقائق العالم وذلك بسبب فقرها العلمي وعوزها الروحي في العلم بمعرفة الصانع الجليل. وحيث تعرض الفلسفة عن هذه المعرفة الحقة فإنها تبدلها بالخوض في بعض المسائل الكونية والنظرية، وهنا فصل النورسي القول في نقط الاختلاف بين المنهجيتين وأورد ست نكت في ذلك فقال: ''في بيان لمعة الإعجاز في إهمال القرآن في بعض المسائل الكونية الفلسفية وإبهامه في بعض آخر منها، وإجماله في قسم منها، وفي هذه اللمعة ست نكت:

النكتة الاولى:

فإن قلت: لأي شيء لا يبحث القرآن عن الكائنات كما يبحث عنها فن الحكمة والفلسفة؟''[23] هنا سؤال المقصد يسعى من خلاله النورسي بيان حقيقة القرآن والغايات والحكم الملحوظة للشارع في جميع ما شرع وحكم، وجزء من منهجية النورسي المقاصدية سيبثه أثناء رده على هذا الإشكال، وهاهو البيان: ''قيل لك: لأن الفلسفة عدِلَت عن طريق الحقيقة فاستخدمت الموجودات لأنفسها ''بالمعنى الأسمى''. وأما القرآن فبالحق أُنزل وبالحق نَزَل وإلى الحقيقة يذهب فيستخدم الموجودات بالمعنى الحرفى لا لأنفسها بل لخالقها.''[24] إن مقصد القرآن هو بيان الحقائق وصرف القلوب والعقول إليها، والوجودات كلها دالة عليها وعلى أعظمها وهي: حقيقة الله الخالق، ولذلك يسمي القرآن الأشياء بمسمياتها لتدل على خالقها، لا كما هو حال الفلاسفة الذين يتخذون من الموجودات نصبا إليها يوفضون وكأنها جواهر الحقائق لا صور الحقائق. ثم إن ''القرآن إنما يبحث عن الكائنات استطراداً

للاستدلال على ذات الله وصفاته، ومن شرط الدليل أن يكون ظاهراً وأظْهَر من النتيجة، والنتيجة معرفة ذات الله وصفاته وأسمائه. فلو قال على ما يشتهيه أهل الفن: ''يا أيها الناس فانظروا إلى الشمس في سكونها، وإلى الأرض في حركتها لتعرفوا عظمة قدرة خالقها ''، لصار الدليل أخفى وأغمض من النتيجة وأبعد بمراتب من فهم أكثر البشر في أكثر الأزمان والأعصار، مع أن حق الأكثر المطلق أهم في نظر الإرشاد والهداية. فمراعاة فهمهم لا تنافي استفادة المتفلسفين المتعمقين القليلين. ولكن في مراعاة هذا الأقل محرومية الأكثر في أكثر الأوقات.''[25] وهذا خرم آخر في المنهجية الفلسفية التي لا تفرق بين حكم الدليل وحكم النتيجة، وبين الوسائل والمقاصد، ولذلك كان التفصيل من الفلاسفة في بيان أمر الكائنات إخفاء لحقيقتها وحرمانا للعامة من الاستهداء بإرشادات الوحي، وذلك لأن روح البلاغة الإرشادية وأسلوبها ''مماشاة نظر العموم، ومراعاة حس العامة ومؤانسة فكر الجمهور؛ لئلا يتوحش نظرهم بلا طائل ولا يتشوش فكرهم بلا فائدة، ولا يتشرد حسهم بلا مصلحة فأبلغُ الخطاب معهم والإرشاد: أن يكون ظاهراً بسيطاً سهلا لايعجزهم، وجيزاً لا يملهم، مجملا فيما لايلزم تفصيله لهم.''[26] ولقد أجمل الرجل الأمر إجمالا فأحاط به واستوعبه، فالمنهجية الفلسفية قاصرة عن التبليغ والإرشاد، وذلك لأنها موحشة في مصطلحاتها، مشوشة في أفكارها، غامضة في تقريراتها، يختل فيها ميزان الإجمال والتفصيل بسبب إهمالها لمبدإ المنفعة والمصلحة المتمثلة في مراعاة فهم الجمهور والعامة، ثم لأنها تمعن في مراجعة البدهيات وإنكار الحسيات -استكبارا وتغليطا- حتى تحولت الفلسفة وكأنها حركة سوفسطائية في ثوب جديد.

ثم يورد النورسي النكتة الثانية منطلقا من قوله تعالى-تمثيلا لا حصرا- ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً﴾نوح:١٦ و ﴿والشَمْسُ تَجْري لمُستَقَرٍ لها﴾يس:٣٨ فيذكر كلاما في معنى السراج والجريان، ثم يقول: ''فانظر إلى كلمات القرآن مع كونها سهلةً بسيطةً معروفةً؛ كيف صارت أبواباً ومفاتيح لخزائن لطائف المعاني. ثم انظر إلى مطنطنات كلمات الحكمة الفلسفية كيف أنها مع شعشعتها لا تفيدك كمالا علميا ولا ذوقاً روحيا، ولا غاية إنسانية ولا فائدة دينية. بل إنما تفيدك حيرة مدهشة ودهشة موحشة. وتسقطك من سماء التوحيد المضيء في أودية الكثرة المظلمة... والفلاسفة لو أدرجوا في مسائلهم قبساً من القرآن فقالوا: يفعل الله بهذه الأجرام المدهشة الجامدة وظائف في غاية الانتظام والحكمة، وهي في غاية الإطاعة لأمره لكان لِعِلْمِهِمْ معنىً، وإلاّ بأن أسندوا

إلى أنفسها وإلى الأسباب صاروا كما قال القرآن ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾الحج:٣١ وقس على هذه المسألة سائر المسائل.''[27]

وفي النكتة الثالثة يعرض النورسي -إجمالا- مقاصد القرآن الكريم، وأنه لا سبيل إلى الاشتغال بما لا يخدمها ولا يندرج تحتها، ولذلك كان من جملة ما يعنيه العمل بالقرآن؛ إهمال ما أهمله القرآن وإجمال ما أجمله وعدم العمل على تغميض حقائق واضحة يقبلها العقل بداهة، وهنا أعرض الكثير من الفلاسفة عن استعمال الوسائط التمثيلية لتوهمهم أنها من عمل العوام وأنها متعلقة بالعقل البياني القاصر عن إدراك ناصية البرهان، وليعلموا أنهم بذلك أعرضوا عن أسلوب القرآن في عرض الحقائق لكل عقل وكل جيل. يقول النورسي: ''اعلم! أن مقاصد القرآن الأساسية وعناصره الأصلية أربعة: التوحيد، والرسالة، والحشر، والعدالة مع العبودية. فيصير سائر المسائل وسائل هذه المطالب. ومن القواعد: عدم التعمق في تفصيل الوسائل، لئلا ينتشر البحث بالاشتغال بما لا يعني فيفوت المقصد. فلهذا قد أبهم وقد أهمل وقد أجمل القرآن في بعض المسائل الكونية. وكذا ان الأكثر المطلق من مخاطب القرآن عوام وهم لا يقتدرون على فهم الحقائق الغامضة الإلهية بدون توسيط التمثيل والتقريب بالإجمال، ولا يستعدون في كل وقت لمعرفة مسائل لم يوصل إليها بعدُ القرون الطويلة إلا قليل من الفلاسفة. فلهذا أكثر القرآن من التمثيل، ومن التمثيل بعض المتشابهات فإنها تمثيلات لحقائق غامضة إلهية. وأجمل فيما كشفه الزمانُ بعد عصور وبعد حصول مقدمات مرتبة..''[28]

وفي النكتة الرابعة يرى النورسي أن المنهجية الفلسفية بتدقيقاتها الفلسفية ومباحثها الطبيعية وتفصيلها في ماهيات الأشياء وخواصها، وغفلتها عن مقاصد القرآن تبدو الدنيا وكأنها جامدة، والطبيعة وكأنها متكدرة، و ''الحاصل: أن القرآن يبحث عن معاني كتاب الكائنات ودلالاتها، أما الفلسفة فإنما تبحث عن نقوش الحروف ووضعياتها ومناسباتها. ولا تعرف أن الموجودات كلماتٌ تدل على معانٍ. فإن شئت أن ترى فرق حكمة الفلسفة، وحكمة القرآن فراجع ما في بيان آية ﴿وَمَنْ يُؤتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ اوُتِيَ خَيْراً كَثيراً﴾.''[29] ويورد النورسي في مكان آخر من المثنوي ما يفصل هذا الفرق الجوهري بين المنهجيتين فيقول: ''بعضها بالذهب والفضة وبعضها بالألماس والزمرّد وبعضها بالجواهر والعقيق.. وهكذا. وقرأه شخصان فاستحسَناه فقالا: فلنكتبْ على محاسن هذا الشيء المزيّن كتاباً فكتب كل منهما كتاباً.

أمّا أحدهما: فهو أجنبيّ لا يعرف من العربية حرفاً واحداً حتى لا يعرف أن مشهوده كتاب، لكن له مهارة في الهندسة والتصوير ومعرفة الجواهر وخاصياتها فكتب كتاباً عظيماً يبحث عن نقوش الحروف ومناسباتها وجواهرها وخاصياتها ووضعياتها وتعريفاتها.

وأما الآخر: فحينما رآه عرف أنه كتاب مبين وقرآن حكيم فلم يشتغل بنقوش حروفه المزيّنة بل اشتغل بما هو أعلى وأغلى وألطف وأشرف وأزين وأحسن بملايين المراتب مما اشتغل به رفيقُه، وهو بيان جواهر معانيه وأنوار أسراره فكتب تفسيراً يبحث عن حقائق الآيات.

يامَن له عقل! فبالله عليك لأيّ هذين الكتابين يقال انّه كتاب حكمة هذا القرآن؟ فإذا فهمتَ التمثيلَ فانظرْ إلى وجه الحقيقة: أما القرآن فهو هذا العالمُ وأما الشخصان فكُتب الفلسفة والحكماء، والقرآن وتلامذته.''[30]

إن طبيعة المنهجية القرآنية في عرض الحقائق كما يقرر النورسي مبنية على التساند المتين والتجاوب الفائق بين الآيات ومقاصدها المحققة في دلالاتها لحاجات البشر على تفاوت مراتبهم واختلاف أفهامهم، وأعظم هذه الحاجات باعتراف علماء النفس الغربيين الموضوعيين هي الحاجة إلى الإيمان والرسالة، والتي تتجلى حقيقتها في نور التوحيد الذي هو من أعظم مقاصد الشريعة، ولذلك فإن القرآن ''إنما ينظر من الموجودات إلى وجوهها الناظرة إلى فاطرها. وأما الفلسفة فإنما تنظر من الموجودات إلى وجوهها الناظرة إلى أنفسها وأسبابها، وغايتها الناظرة إلى مصالح جزئية فلسفية أو صنعوية. فما أجهل من اغتر بالفنون الفلسفية، وصيرها محكاً لمباحث القرآن القدسية. ولقد صدق من قال: 'إن الفنون جنون كما أن الجنون فنون'.''[31] وهذه هي خلاصة من يشتغل بالقول الفلسفي بعيدا عن أنوار القرآن الكريم، ويغتر بزخرف هذا القول غرورا.

خامسا: أساسيات المنهجية المقاصدية عند النورسي.

لا يخرج التنظير المنهجي المقاصدي عند النورسي عن المنطلقات المعرفية والرؤية التصورية التي تؤسس نظرته إلى الشريعة، والتي استقرأها من خلال تتبعه للنصوص وفقهه للأحكام وفهمه لحركة الحياة وأسرار النفس وطبائعها، وتأمله لآيات الأنفس والآفاق وغوصه في اجتماعيات قومه وتحولات عصره وعلوم زمانه. ولذلك استقر في ذهن النورسي أولا: منهج التكامل المعرفي الذي لا يجعل من المعارف

جزرا متباعدة متنافرة، وإنما هو يستدعي نتائج علم ليخدم بها علما آخر، وثانيا: منهج التفاعل مع منتجات الحضارة بروح منفتحة واعية بالضوابط العقيدية والأخلاقية والقيمية. وينتظم المنهجين المنهج التعارفي الإنساني الكوني الذي كان يؤثث دوما رؤية النورسي لحركته الإصلاحية واجتهاداته الفكرية وتأملاته الإيمانية، وهذا هو الذي منح رسائل النور هذه القدرة على الانتشار والذيوع والتأثير والفعل داخل تركيا وخارجها. ونعرض الآن لأهم أساسيات المنهجية المقاصدية النورسية

أولا: لا يتقن صنعة الاجتهاد من لم يتقن صنعة المقاصد:

إذا كانت المقاصد غايات عامة، وكليات وأصولا، ومصالح أراد الشرع تحقيقها وسعى إلى إقامتها فلا يصح لمن يتصدر للاجتهاد أن يكون عاريا منها، جاهلا بها، ولذلك نبه النورسي كثيرا عليها وجعل القرآن المصدر الذي منه تستقى المقاصد والكليات الأساسية للشريعة الإسلامية، وفي هذا المعنى يقول الدكتور الريسوني: ''وبما أن المقاصد هي مقاصد الرب سبحانه، فلابد أن يكون تحديدها والتصريح بها صادرا عنه وعن القرآن الكريم، فمثل هذه المسألة لا تحتمل التخمينات ولا التأويلات ولا الاستنتاجات، بل لابد أن تأتي صريحة ساطعة قاطعة''.[32] وفي جوابه عن مسألة فتح باب الاجتهاد قرر النورسي قواعد وضوابط منها: العلم بالضروريات والحاجيات والتحسينيات وفقه مراتبها وعدم تأخير الأولى على من هو دونه مع صرف كل الهمم والعزائم لامتثال الضروريات وأن لا يضيق الاجتهاد المقاصدي بحاجات الزمان، ولا بمصالح العباد.[33]

ثانيا: المصالح حكم مرجحة وليست عللا للأحكام:

يرى النورسي أن ''المصلحة حكمة مرجحة، وليست بعلة للحكم.''[34] فأحكام الشريعة لا تعلل برعاية مصالح العباد، فالله تعالى أثبتها تعبدا، صحيح أن الشريعة جاءت لتحقيق المصالح لكن تفضلا منه تعالى لا وجوبا. ولذلك لا يمكن القول أن النورسي نفى مسألة التعليل أو أنكرها، وكلامه كله ينهض لما ذكرته عنه، وهو الذي مافتئ يظهر لتلامذته وللعالم أن شريعة الله عدل كلها، ورحمة كلها، وحكمة كلها، كيف وعماد نظرية المقاصد وروحها هو التعليل. ومما يعنيه قول النورسي عدم وجود مصالح خالصة، فهي عزيزة الوجود. والذي شدد عليه النورسي هو أن لتعليل الأحكام حدودا وضوابط لا يصح تجاوزها، وأن كل تعليل لا يحفظ الكليات المقاصدية

للشريعة ويخرج عن مقصود الشارع ولايعتبر بمسالك التعليل هو تعليل مردود غير مشروع.

ثالثا: الوسائل خادمة للمقاصد وتابعة لها:

قررت كتب الأصول أن المقاصد متضمنة للمصالح، أما الوسائل فطرق مفضية إلى تحصيل هذه المصالح، وبما أن المصالح ليست على مرتبة واحدة، فكذلك هي الوسائل، قال القرافي في الفروق: ''وموارد الأحكام على قسمين:

مقاصد: وهي المتضمنة للمصالح والمفاسد في أنفسها.

ووسائل: وهي الطرق المفضية إليها، وحكمها حكم ما أفضت إليه من تحريم أو تحليل، غير أنها أخفض رتبة من المقاصد في حكمها. فالوسيلة إلى

أفضل المقاصد: أفضل الوسائل، وإلى أقبح المقاصد: أقبح الوسائل، وإلى ماهو متوسط: متوسطة''[35] وهذا يعني أن الأصل هو المقصد والوسيلة تابعة له، وقد تصير بذلك الوسيلة مقصدا تابعا لمقصد أصلي، والمهم أنه لا عبرة بالوسائل إذا لم تتحقق المقاصد. وقد أشار النورسي إلى تعلق الوسائل بالمقاصد تعلقا حكميا لا يخرجها عن مقصود الشارع فقال: ''اعلم! أن مقاصد القرآن الأساسية وعناصره الأصلية أربعة: التوحيد، والرسالة، والحشر، والعدالة مع العبودية. فيصير سائر المسائل وسائل هذه المطالب. ومن القواعد: عدم التعمق في تفصيل الوسائل، لئلا ينتشر البحث بالاشتغال بما لا يعني فيفوت المقصد.''[36] فقد جعل من قواعد منهجية فقه المقاصد عدم الاستغراق في الوسائل أو التعمق فيها بصورة يضيع معها المقصد، فالذي يضبط عمل الوسائل ويرسم مسالكها وحدودها وموادرها هي المقاصد، فيكون الاشتغال بالوسائل بقدر خدمتها للمقاصد.

رابعا: المقاصد مراتب ودرجات أعلاها معرفة الله وعبادته:

يعبر النورسي من خلال كتاباته عن منهجية كلية تنأى عن الرؤى التي تجزئ أحكام الدين، أو تلك التي تتيه في جزئياته وفروعه غير حافظة لكلياته ومقاصده. والدين أصول وكليات، والفروع تابعة لها، ولا يصح حسب النورسي جعل الفرع أصلا، أو الأصل فرعا إذ المنطق الأصولي والفقهي لا يقر بذلك. وعليه فإن جميع المقاصد والمصالح ترجع في أصلها إلى مقصد كلي هو: معرفة الله وعبادته، ولأجل هذا

المقصد تنزل القرآن، وبعث الله الأنبياء والرسل. وإذا كانت أمهات المقاصد والكليات هي: التوحيد، والنبوة، والعدالة، والحشر، فإنها جميعا تخدم المقصد الكلي الأعظم الذي هو معرفة الله وعبادته، ورسائل النور كلها دندنة حول هذا المقصد الكلي، لأنه الحقيقة الكبرى في هذا العالم، والغاية القصوى من الخلق.

خامسا: الموازنة المصلحية ركن في المنهجية المقاصدية:

إذا كانت المصلحة هي جلب منفعة ولذة ومتعة، والمفسدة دفع ما يقابل ذلك، فإنها توجد على قدر كبير من التداخل والتعارض ليس بمقدور العقل وحده معرفة الحدود بينهما. وإن كان قادرا على إدراك عموم المصالح والمفاسد – وكانت الشريعة بذلك ضرورية لأن ''أحكام الشريعة تشتمل على مصلحة كلية في الجملة، وعلى مصلحة جزئية في كل مسألة على الخصوص. أما الجزئية فما يعرب عنه كل دليل في خاصته. وأما الكلية، فهي أن يكون كل مكلف تحت قانون معين من تكاليف الشرع في جميع حركاته وأقواله واعتقاداته. فلا يكون كالبهيمة المسيبة تعمل بهواها، حتى يرتاض بلجام الشرع''.[37] وقد عرف عن النورسي الكثير من الموازنات الدالة على الترجيح بين المصالح والمفاسد، – وهي فرع عن نظرية التقريب والتغليب في الشريعة الإسلامية كما أوضحت ذلك أطروحة الدكتور الريسوني- وخصوصا في أمرين اثنين: الأول موقفه من العمل السياسي، والثاني موقفه من الطرق الصوفية، يقول النورسي -رحمه الله-: ''إن أعظم خطر على المسلمين في هذا الزمان هو فساد القلوب، وتزعزع الإيمان بضلال قادم من الفلسفة، وإن العلاج الوحيد لإصلاح القلب، وإنقاذ الإيمان؛ إنما هو النور وإراءة النور، فلو عُمل بهراوة السياسة وصولجانها، وأحرز النصر تدنى أولئك الكفار إلى درك المنافقين، والمنافق -كما هو معلوم- أشد خطراً من الكافر وأفسد فيه، فصولجان السياسة إذاً لا يصلح القلب في مثل هذا الوقت، حيث ينزل الكفر إلى أعماق القلب ويتستر هناك وينقلب نفاقاً.

ثم إن شخصاً عاجزاً مثلي لا يمكنه أن يستعمل النور والهراوة معاً في هذا الوقت، لذا فأنا مضطر إلى الاعتصام بالنور بما أملك من قوة، فيلزم عدم الالتفات إلى هراوة السياسة.''[38]

إن الترجيح عملية اجتهادية ظنية تبنى على التقدير المصلحي المؤسس على فقه النصوص ومراعاة الواقع وعدم الاستئسار لفتوى فقيه، وتتدخل خبرة الفقيه وتجربته

اليومية في حركة الحياة، وورعه وتقواه في تسديد فتواه. وقد خبر النورسي واقع بلاده، وأكرمه الله بنور القرآن وفقه الشريعة، ولذلك تراه لا يتعجل في القول حتى يعرضه على المنطق الفقهي والأصولي، ثم يستثير قلبه ويحركه يمنة ويسرة، وتستبد به الهموم والتردد فيقيم مع آيات ربه قراءة وتدبرا استمدادا للرحمة والعون، ثم يقطع مسافات جيئة وذهابا مرات ومرات ينتظر اللمعة الاجتهادية المباركة، فيريها من نفسه خيرا بما أوتي من بلاغة القول وحسن الصياغة، ثم يعرضها على أصحابه وتلامذته راضية بها نفسه. فهكذا تصورت النورسي وقد قال ماقاله من ترجيحات عن السياسة وغيرها، فهو لم يخرج السياسة من دائرة الإسلام، بل هي جزء منه، ولكنها حسب تقديره لا تجدي نفعا في عملية الإصلاح، إذ البداية السليمة إنما تنطلق من تصحيح الإيمان وتجديده في القلوب، وسلاح الإيمان النور، وسلاح السياسة القوة؛ ولذلك يجتمع حول الأول الصادقون، وحول الثاني المنافقون، والانطلاق من السياسة بهدف الإصلاح يترتب عليه أضرار ومفاسد أكبر مما يمكن تحقيقه من منافع. وقوله: ''فصولجان السياسة لا يصلح القلب في مثل هذا الوقت''، وقوله: ''فأنا مضطر إلى الاعتصام بالنور'' دليل على اعتبار تغير الزمان في تغير الفتوى، وأن الفقيه الداعية المجتهد لا يجمد عند فتواه بحكم الاضطرار، وإنما هو يوظف قواعد الأصول كما فعل النورسي هنا حيث عمل بقاعدة: ''دفع المفاسد مقدم على جلب المصالح'' ومن موازناته رحمه الله عدم الدخول مع العلمانيين والظالمين في صراع مادي مكشوف حفاظا على الأمن وضمانا للوحدة.

واستنادا على فقه الموازنات وعملا بقاعدة: ارتكاب أخف الضررين... ساند النورسي عدنان مندريس والحزب الديمقراطي طيلة الخمسينات بسبب سلوكهم المعادي للشيوعية، والمتسامح مع الإسلام، وهذا نوع تفاضل وتكامل، ونسبية واحتياط، وهو منطق رياضي ليس غريبا على الفقه، كما أنه ليس غريبا على رجل بقدر النورسي درس علوم الشرع والعلوم البحتة (رياضيات، فيزياء، كيمياء...) فحيث رفض النورسي الاشتغال بالسياسة واعتبارها منطلقا للإصلاح احتياطا لأمر الدعوة والتربية وتمكينا للمشروع الإيماني النوري، لم يمنعه احتياطه هذا من مرونة في التعامل مع المستجدات السياسية والمواقف المتجددة، وهي مرونة وليست تحللا؛ فالدعوة لها فقهها، وللتربية فقهها، وللسياسة فقهها.

وبخصوص موقفه من الطرق الصوفية فإن النورسي سيعتمد على نفس ميزان

المنافع والمضار، ومنطق الترجيح والموازنة، إذ تجده يقول: ''وإن الشغف بالطرق الصوفية التي نفعها قليل لنا في الوقت الحاضر، واحتمال إلحاقها الضرر بوضعنا الحالي ممكن''[39] وهذا الفهم صادر عن إدراك عميق للواقع وتحليل لمعطياته واستنباط الواجب فعله والقيام به، ونحن نأخذ كلام النورسي دون تردد وهو الخبير بهذا الشأن المطلع على أحوال أهل التصوف في زمانه، العارف بمقامات الإيمان، المتفيئ بظلال القرآن، وهذا أساس من أساسيات المنهجية المقاصدية عند النورسي وركن من أركان الفتوى المعتبرة بروح الشرع وغاياته؛ إذ لا يكفي الفقيه فقهه للأحكام أن يفتي ويرجح ويوازن في قضايا تحتاج منه إلى خبرة إلا أن تكون له معاناة وصولات ضد أهل الباطل.

سادسا: المفاضلة والترتيب أساس في المنهجية المقاصدية:

وهذا أساس متفرع عن الأساس السابق وتابع له، إذ تفترض العقلية المقاصدية منطق التراتبية والمفاضلة بين المصالح، وهو جزء من فقه الموازنات الضامن لقدسية الثوابت، الذي يعرف متى يكون مرنا ومتى يكون صارما؛ وعلى هذا الأساس رتب النورسي دوائر الدين إلى أربع بحسب المصلحة المترتبة عليها، وبقدر تعلق الدوائر بها، يقول النورسي: ''إنه ينبغي لهذا العصر من مجدد له شأنه ليقوم بتجديد الدين والإيمان، وتجديد الحياة الاجتماعية والشريعة، وتجديد الحقوق العامة، والسياسة الإسلامية، ولكن أهم تلك الوظائف، هو التجديد في مجال المحافظة على الحقائق الإيمانية، فهي أجل وأعظم تلك الوظائف الثلاث؛ لذا تبقى دوائر الشريعة والحياة الاجتماعية والسياسية في الدرجة الثانية والثالثة والرابعة بالنسبة لدائرة الإيمان. إن القاعدة الإيمانية إذا تكونت فإن تطبيق الشريعة وأحكامها يأتي خطوة طبيعية تالية، ولكن لا قيام للشريعة من غير قاعدة إيمانية.''[40] هي إذن دوائر أربع تحفظ للدين مكانته وهيمنته الشاملة على حياة الإنسان والمجتمع والدولة والأمة، والتجديد في كل واحدة منها مطلوب وضروري. وحيث أن مدار الأمر كله على العقيدة والإيمان، فإن إحياء حقائقه، وتثبيت أصوله، وتجديد معانيه في القلوب جدير بأن يهيئ النفوس والعقول للاستمساك بالدين وتحكيمه في قضايا التشريع والاجتماع والسياسة، ونظرا لهذه المفاضلة في الدور والوظيفة تأتي هذه الدوائر مرتبة على الشكل الآتي: تجديد الإيمان، وتجديد قضايا التشريع والقانون والحقوق العامة، وتجديد الحياة الاجتماعية، وتجديد الحياة السياسية. وبناء على ذلك لم تشغل النورسي فروع الفقه وجزئياته،

وإنما شغلته أمراض القلوب، شبهات وشهوات، فقام يرد هذه القلوب إلى عافيتها، ويؤسس -بنظرة مستقبلية راشدة- لمجتمع مؤمن صادق، يكون قادرا على حمل الرسالة إلى العالم. فأكثر ما أصيبت الأمة أنها أصيبت في دينها وإيمانها بالله، وتجملها بالقيم والأخلاق، فكانت دعوة النورسي دعوة إيمان وأخلاق أولا، وهذا ليس تبعيضا للدين، وإنما مرحلية في التصور وتدرج في التطبيق.

سابعا: لا صحة لمنهجية مقاصدية إلا ممن خبر أحوال الإيمان وذاق حلاوته فاتقى وتورع.

إن المنهجية المقاصدية حينما تتجه صوب سبر أغوار مقاصد الدين وفهم أحكامه وهي عارية من خبر الإيمان واليقين، وتحريك القلوب والأحاسيس، وخالية من الرقائق المذكرة بمقامات العبودية، وحينما يحلق الفقيه أو المجتهد في فتواه وهو لم يذق بعد حلاوة الإيمان تتحول هذه المنهجية إلى تقريرات يضيق بها القلب لعدم براءتها من الهوى، لذلك لا يصح الاجتهاد المقاصدي، ولا تثبت صنعة المقاصد إلا من عالم فقيه تقي ورع، فملاك أمر المنهجية المقاصدية أولا التقوى والتجرد والبراءة من الأجر الدنيوي.

والذي يبدو لي أن النورسي -رحمه الله- جاء ليعيد النظر ببصيرته النافذة في العديد من مدونات الفقه التي شغلت الأمة بالجزئيات وحالات الناس وغرائبهم وتلاعباتهم، فيشتغل الفقيه بالرد عليها وفهمها وتلمس الإجابة لها والبحث عن تخريجات وتفريعات وحيل من هنا وهناك، كل ذلك بعيدا عن المواعظ والرقائق وأجواء التحليق الإيماني. وهكذا تعكر الفقه "حتى لتكاد تشعر أن الفقه قد انحرف عن مقصده".[41]

إن تعلق الفقيه الداعية المجتهد -وهذا الذي نحسب أن النورسي كان عليه- بمقامات الإيمان، وتدرجه في مدارج السالكين، وجعل حركته في الحياة مبنية على دعوة الناس إلى ذلك وتأليف قلوبهم عليه، حتى إذا جاءته أسئلتهم، رد حيرتهم إلى روح الدين، وألبس كل فتوى من فتاويه لباس التقوى والإيمان، ودلل عليها من آي القرآن ونور النبوة وقصص الصالحين. وهكذا كانت أجيال علماء الأمة في عصورها الأولى، والنورسي ومعه آخرون هم ورثة هذه الأجيال المطمئنة بالفقه وأصوله، غير راغبة في شيء سوى الإذعان لحكم الله والاهتداء إلى الحق، ولذلك و "بدون الاستواء النفسي الإيماني لا يتاح لأحد الاستواء على الصواب في استنباط الفتوى، إذ

''النفس المطمئنة بالفقه'' هي الباب، ومدخل الصدق، والمنطلق، ثم هي المخرج، مخرج الصدق، وبها يكون الجزم واعتدال الخطو وصناعة الحياة إذا امتد المسار.

قول فصل لا مفاوضة فيه، ومن حرم الرقائق: اضطربت سريرته، وتبرم، وضاقت عليه سعة الاستسلام للأمر الرباني، ومن رام التفلت: طال منه التلفت، ويوشك أن ترهقه المتاهة وتتلفه العوائق.''[42]

ثامنا: التحسين والجمال أساس متين في المنهجية المقاصدية.

النورسي إمام في الجمال وخبير في الذوق والوجدان، وكل سطر من سطور كلماته ولمعاته وشعاعاته تنبئ بهذه الحقيقة. وقد انطلق النورسي في فهمه للأساس الجمالي والذوقي من الرؤية القرآنية لمسألة الجمال، ولذلك تجده يقول''فنرى أن القرآن الكريم يبين تلك الحقيقة النورانية بجميع فروعها وأغصانها وبجميع غاياتها وثمراتها بياناً في منتهى التوافق والانسجام بحيث لا تعيق حقيقةٌ حقيقةً أخرى ولا يفسد حكمُ حقيقةٍ حُكْماً لأُخرى، ولا تستوحش حقيقة من غيرها. وعلى هذه الصورة المتجانسة المتناسقة بيّنَ القرآن الكريم حقائق الأسماء الإلهية والصفات الجليلة والشؤون الربانية والأفعال الحكيمة بياناً معجزاً بحيث جعل جميع أهل الكشف والحقيقة وجميع أولي المعرفة والحكمة الذين يجولون في عالم الملكوت، يصّدقونه قائلين أمام جمال بيانه المعجز والإعجاب يغمرهم: ''سبحان الله! ما أصوب هذا! وما أكثر انسجامه وتوافقه وتطابقه مع الحقيقة وما أجمله وأليقه''.[43]

إن الرؤية الجمالية لأحكام الشريعة ونصوصها التي تؤثث المنظور المقاصدي النوري تستند على مسلمة عقدية تتعلق باسم من أسماء الله الحسنى وهو الجميل، ولا يصدر عن الجميل إلا الجميل، وبذلك تكون أحكام الشريعة كلها قائمة على أساس الحسن والجمال، وكل قول أو اجتهاد في تحديد المقاصد أو تقعيدها، أو تجديد النظر والقول فيها لا يعتبر بالأساس الجمالي الذوقي فهو قول مردود واجتهاد باطل. وإذا كانت كليات الشريعة ومقاصدها هي حقائق الدين الباهرة، فإن ''الحقيقة بذاتها جميلة، ومع إدراك جمال الحقيقة فانه يحترم كمال صاحب الحقيقة ويوقّره فيستحق رحمته''.[44]

وعليه يمكن القول من خلال استقراء لرسائل النور أن كل ما خرج بأحكام الشريعة من الحسن إلى القبح، ومن الجمال إلى ضده فليس منها في شيء وإن أدخل إليها

بتأويل. بل ذهب النورسي رحمه الله إلى جعل هذا الأساس قانونا تجري بحسب الحقائق كلها وسماه ''قانون التحسين والجمال''.[45]

خاتمة:

والذي أخلص إليه في نهاية هذا العرض أن المنهجية المقاصدية النورسية منهجية أصولية، وأخلاقية، وذوقية، وجمالية، إذ الناظر في مقاصد الشريعة -بحسب المنظور النورسي لمسألة المقاصد- يحتاج أن يتقن صنعة الأصول ومبادئ الأخلاق والجمال والذوق وإلا غابت عن ذهنه الكثير من أسرار الشريعة ومقاصدها. وبذلك ينهض القول النورسي ضد بعض الأطروحات المعاصرة التي ينادي أصحابها بضرورة فصل المقاصد عن علم الأصول، واستقلالها كعلم منفرد بذاته لا تعلق له بغيره، وسواء صدرت هذه الدعوى ممن ينتمون إلى المرجعية الإسلامية، أو المرجعية العلمانية فإنها تبقى دعوى فاقدة للصلاحية العلمية والمصداقية المنهجية. وقد أدرك النورسي رحمه الله هذا المنزلق المنهجي الخطير مما حدا به -سدا للذريعة- أن يربط المقاصد بعلم الأخلاق، بل جعل علم المقاصد علما أخلاقيا غرضه الأسمى تحقيق الصلاح في الفرد والمجتمع والدولة والأمة، وهو عين ما جنح إليه المفكر المغربي طه عبد الرحمن حينما اعتبر أن ''علم المقاصد هو باختصار علم الصلاح'' وهو ما يعني عدم إفراغ علم الأصول -والمقاصد جزء منه- من قاعدته الإيمانية الأخلاقية، مع ضرورة تخريج الأصوليين الربانيين الذي لا يفصلون بين قواعد الأصول والإيمانيات.

* * *

لائحة المراجع:

- الفكر المقاصدي د. الرسوني.
- كليات رسائل النور، النورسي، بديع الزمان سعيد، الشعاعات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي. سوزلر، إسطنبول ١٩٩٣.
- النظرية التقعيد الفقهي وأثرها في اختلاف الفقهاء، د. الروكي.
- الموافقات، الشاطبي.
- كليات رسائل النور، النورسي، بديع الزمان سعيد، المثنوي العربي النوري، تحقيق إحسان قاسم الصالحي. سوزلر، إسطنبول ١٩٩٤.
- أصول الاجتهاد التطبيقي... محمد أحمد الراشد، دار المحراب.
- المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، العالم، يوسف، الدار العالمية للكتاب الإسلامي / المعهد العالمي للفكر الإسلامي الطبعة الثانية ١٤١٥ -١٩٩٤.
- في فقه الأولويات: دراسة جديدة في ضوء القرآن والسنة، يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى.
- أحكام القرآن، أبو بكر ابن العربي.
- مقاصد الشريعة الإسلامية، محمد الطاهر ابن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع، الطبعة الثالثة ١٩٨٨.
- مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، علال الفاسي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الرابعة ١٤١١ – ١٩٩١.
- الذخيرة، القرافي.
- نحو تفعيل مقاصد الشريعة، د جمال الدين عطية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ودار الفكر، الطبعة.
- أعلام الموقعين، ابن القيم، دار الجيل.
- نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، أحمد الريسوني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، دار الأمان، الرباط، الطبعة الأولى ١٤١١ – ١٩٩١.
- الاجتهاد المقاصدي: حجيته، ضوابطه، مجالاته، نور الدين بن مختار الخادمي، كتاب الأمة رقم ٦٥ /٦٦، ١٤١٩.
- الكليات الأساسية للشريعة الإسلامية، د. الريسوني، إصدارات اللجنة العلمية لحركة التوحيد والإصلاح، ٢٠٠٧.
- كليات رسائل النور، النورسي، بديع الزمان سعيد، الكلمات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، سوزلر، إسطنبول ١٩٩٢.
- سيرة ذاتية، النورسي، بديع الزمان سعيد، إعداد وترجمة إحسان قاسم الصالحي، سوزلر، إسطنبول ١٩٩٥.

* * *

الهوامش:

[1] باحث بكلية الآداب والعلوم الإسلامية، أكادير.
[2] أحكام القرآن، ج ٢ أبو بكر ابن العربي، ص ٨١.
[3] مقاصد الشريعة الإسلامية، محمد الطاهر ابن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع، الطبعة الثالثة ١٩٨٨ ص ٥١.
[4] مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، علال الفاسي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الرابعة ١٤١١ – ١٩٩١ ص ٣.
[5] نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، أحمد الريسوني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، دار الأمان، الرباط، الطبعة الأولى ١٤١١ – ١٩٩١ ص ٧.
[6] الاجتهاد المقاصدي: حجيته، ضوابطه، مجالاته، نور الدين بن مختار الخادمي، كتاب الأمة رقم ٦٥ /٦٦، ١٤١٩ ص٥٢ -٥٣.
[7] الفكر المقاصدي د، الرسوني، ص٩٩.
[8] أعلام الموقعين، ابن القيم، ص٦٣/٣.
[9] نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، محمد الريسوني، ص٣٣٢.
[10] المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، يوسف العالم، الدار العالمية للكتاب الإسلامي / المعهد العالمي للفكر الاسلامي الطبعة الثانية ١٤١٥ -١٩٩٤ ص٩٣.
[11] في فقه الأولويات: دراسة جديدة في ضوء القرآن والسنة، القرضاوي يوسف، مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى ١٤٢٠ – ١٩٩٩ ص ٣٨.
[12] المثنوي العربي النوري، بديع الزمان النورسي، ص ٦٩ و ٧٠.
[13] الشعاعات، النورسي، ص ١٧٤.
[14] الشعاعات، النورسي، ص ١٧٩.
[15] نحو تفعيل مقاصد الشريعة، د جمال الدين عطية، ص ١٠٩ و ١١٠.
[16] المثنوي العربي النوري، النورسي، ص ٧٥.
[17] الشعاعات، النورسي، ص ٣٠٣.
[18] نظرية التقعيد الفقهي وأثرها في اختلاف الفقهاء، د، الروكي، ص ١٤٤.
[19] المثنوي العربي النوري، النورسي، ص ٣٤.
[20] المثنوي العربي النوري، النورسي، ص ٤٢٧.
[21] المثنوي العربي النوري، النورسي ص ٤٢٧-٤٢٨.
[22] المثنوي العربي النوري، ص ٧٤.
[23] المثنوي العربي النوري، النورسي، ص ٧٢.
[24] المثنوي العربي النوري، النورسي، ص ٧٢.
[25] المثنوي العربي النوري، النورسي، ص ٧٢.
[26] المثنوي العربي النوري، النورسي، ص٧٢.
[27] المثنوي العربي النوري، النورسي، ص ٧٤-٧٥.
[28] المثنوي العربي النوري، النورسي، ص ٧٥.
[29] المثنوي العربي النوري، النورسي، ص ٧٦.
[30] المثنوي العربي النوري، ص ٤٥٧.
[31] المثنوي العربي النوري، ص ٧٧.
[32] الكليات الأساسية للشريعة الإسلامية، د الريسوني، ص ٥٧.
[33] انظر كلام النورسي في الصفحة١٨٢و١٨٣ من كتاب المثنوي العربي النوري.
[34] المثنوي العربي النوري، النورسي، ص ١٨٣.

[35] الذخيرة، القرافي، ١/١٤٥.
[36] المثنوي العربي النوري، النورسي، ص٧٥.
[37] الموافقات، الشاطبي، ص
[38] اللمعات ص: ١٥٨
[39] سيرة ذاتية: النورسي: ص٢٩٦
[40] بحث د. علي الصوا "المنهج الفقهي عند النورسي" ، قدمها بالأردن في المؤتمر عنوانه: "بديع الزمان النورسي: فكره ودعوته" في سنة ١٩٩٧م.
[41] أصول الاجتهاد التطبيقي..... محمد أحمد الراشد ٣/١١.
[42] أصول الاجتهاد التطبيقي..... محمد أحمد الراشد ٣/١٥.
[43] الكلمات، النورسي، ص ١٥٤.
[44] الكلمات، النورسي، ص ٣٥.
[45] الكلمات، النورسي، ص ٦٦٢.

المقاصد القرآنية في فكر النورسي

ذ. عبد السلام الأحمر[1]

أولا: مفهوم المقاصد ومراتبها

المقاصد جمع مقصد، وهو ما تقصده وتريد الوصول إليه، فهو مقصود لك ولسعيك. ولذلك يستعمل المقصِد والمقصود بمعنى واحد، ومقاصد الشريعة هي الغايات المستهدفة والنتائج والفوائد المرجوة من وضع الشريعة جملة ومن وضع أحكامها تفصيلا.[2]

وذهب الدكتور طه عبد الرحمن[3] في تحديد معنى مقصد إلى كونه لفظا مشتركا بين معاني ثلاثة وهي:

قصد بمعنى ضد الفعل ''لغا'' باعتبار اللغو هو الخلو عن الفائدة وصرف الدلالة، فيكون المقصد هو عكس ذلك المتمثل في حصول الفائدة أو عقد الدلالة.

قصد بمعنى ضد الفعل ''سها''، باعتبار أن السهو هو فقد التوجه أو الوقوع في النسيان، فيكون المقصد هو عكس ذلك وهو حصول التوجه والخروج من النسيان.

قصد بمعنى ضد الفعل ''لها''، باعتبار أن اللّهو هو الخلو عن الغرض الصحيح وفقد الباعث المشروع.

وأوضح الشيخ بديع الزمان النورسي اختلاف مراتب مقاصد الدين بقوله: ''فكما أن لكل من الألماس والذهب والفضة والرصاص والحديد قيمتها الخاصة، وخاصيتها الخاصة بها، وهذه الخواص تختلف، والقيم تتفاوت .كذلك مقاصد الدين تتفاوت من حيث القيمة والأدلة''.[4] وأهم مراتب المقاصد اثنان المقاصد العامة والمقاصد الخاصة التي تندرج تحتها تقسيمات أخرى.

وقد عرف الشيخ الطاهر بن عاشور مقاصد التشريع العامة فقال بأنها: ''المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها، بحيث لا تختص ملاحظتها بالكون في نوع خاص من أحكام الشريعة. فيدخل في هذا: أوصاف الشريعة وغايتها العامة، والمعاني التي لا يخلو التشريع عن ملاحظتها. ويدخل في هذا أيضا معان من الحكم ليست ملحوظة في سائر أنواع الأحكام، ولكنها ملحوظة في أنواع كثيرة منها''.[5]

وبين الأستاذ علال الفاسي المقصد العام للشريعة على النحو التالي: ''المقصد العام للشريعة الإسلامية هو عمارة الأرض، وحفظ نظام التعايش فيها، واستمرار صلاحها بصلاح المستخلفين فيها، وقيامهم بما كلفوا به من عدل واستقامة، ومن صلاح في العقل وفي العمل، وإصلاح في الأرض، واستنباط لخيراتها، وتدبير لمنافع الجميع''.[6]

وبعيدا عن التعاريف الأصولية يعرف الأستاذ بديع الزمان النورسي ما سماه المقاصد الربانية تعريفا تربويا لطيفا فيقول:

''أهم المقاصد الربانية في خلق الموجودات، هو تعريف وتحبيب نفسه سبحانه إلى ذوي الشعور، ودفعهم إلى تقديم حمدهم وشكرهم وثنائهم له وحده.''[7] ويضيف في موضع آخر: ''من بين الناس، وهم الذين انسجموا مع المقاصد الربانية، وحبّبوا أنفسهم إليه بالإيمان والتسليم، وجعلهم أولياءه المحبوبين المخاطبين له، وأكرمهم بالمعجزات والتوفيق في الأعمال وأدّب أعداءهم بالصفعات السماوية''.[8]

وجمع علال الفاسي مقاصد الشريعة العامة والخاصة في التعريف التالي: ''المراد بمقاصد الشريعة، الغاية منها، والأسرار التي وضعها الشارع عند كل حكم من أحكامها''.[9]

وأما المقاصد الخاصة فهي التي يقصد الشارع إلى تحقيقها في مجال محدد من مجالات الشريعة مثل مقاصد الزواج، مقاصد المعاملات المالية، مقاصد الصلاة، مقاصد الزكاة وهكذا.

وهناك المقاصد الجزئية: وهي ما يقصده الشارع في كل حكم من أحكام الشريعة، مثل إيجاب شيء أو تحريمه أو الندب إليه أو الإتيان به على هيأة وطريقة مخصوصة،

مثل مقاصد وجوب الركوع والسجود في الصلاة، ومقاصد تحريم الغيبة أو شرب الخمر، بحيث لا يتصور تشريع القيام بفعل أو تركه إلا لمقصد عظيم وحكمة بالغة، علمها الناس أو لم يعلموها أو اختلفوا في إدراكها.

وقد يعبر الفقهاء عن المقاصد الجزئية للشرع بالحكمة أو علة الحكم أو السبب أو السر أو المعنى، كما يوجد ذلك عند أبي إسحاق الشاطبي وأبي حامد الغزالي والطبري وغيرهم كثير.

ثانيا: فوائد المقاصد المنهجية والتربوية.

أ- الفوائد المنهجية

١ـ تمييز المقاصد بحسب مراتبها

فبعد تقرير الأستاذ النورسي تفاوت مقاصد الدين من حيث القيمة والأدلة .أشار إلى فائدة التمييز بين مراتبها ضاربا لذلك مثلا كعادته في تقريب المفاهيم الغامضة من الأذهان فقال: ''إن من أعطى جوهرة أو ليرة ذهبية في موضع فلس أو عشر بارات، يحجر عليه لسفهه، ويمنع من التصرف في أمواله. وإذا انعكست القضية فلا يسمع إلا كلمات الاستهزاء والاستخفاف، إذ بدلاً من أن يكون تاجراً صار محتالاً يسخر منه . كذلك الأمر في من لا يميز الحقائق الدينية ولا يعطي لكل منها ما يستحقه من حق واعتبار، ولا يعرف سكة الشريعة وعلامتها في كل حكم. كل حكم شبيه بجزء ترس يدور على محوره لمعمل عظيم .فالذين لا يميزون يعرقلون تلك الحركة. مثلهم في هذا كمثل جاهل شاهد ترساً صغيراً لطيفاً في ماكنة جسيمة، وحاول الإصلاح وتغيير ذلك الوضع المتناسق .ولكن لعدم رؤيته الانسجام الحاصل بين حركة الترس الصغير والماكنة الكبيرة وجهله بعلم المكائن، فضلاً عن غرور النفس الذي يغريه ويخدعه بنظره السطحي؛ تراه يخلّ بنظام المعمل من حيث لا يشعر ويكون وبالاً على نفسه.''[10] فمعظم الانحرافات التي يقع فيها الناس في فهم الدين وممارسته غالبا ما تكون نتيجة جهل بحقائق الشرع ومراتب أحكامه وتكالفه مما يوقع في تقديم ما شأنه التأخير أو تأخير ما شأنه التقديم وكذا الاجتهاد في طلب ما ندب إليه الشرع على حساب التفريط فيما فرضه وأوجبه.

وكلما استوعب المكلف مقاصد الشرع ومراتبها أمكنه تجنب التشدد على النفس

حيث يقبح، واستطاع التيسير عليها حيث يحسن، وتحققت في ذاته ثمرات التدين المقصودة من التشريعات، وهدي إلى الصراط المستقيم.

٢- التمييز بين مقاصد الشرع ووسائله.

إن الجهل بمقاصد الشرع يؤدي بالمكلف إلى عدم التنسيق بين الوسائل والمقاصد، فيسلك مسالك فاسدة لغايات حميدة، أو يعكس الأمر فيركب وسائل مشروعة لعمل مشبوه أو بيِن الحرمة. وقد يجتهد في إتقان الوسائل دون أن يعبأ ببلوغ ما تفضي إليه من مقاصد.

قال الشهاب القرافي: ''وموارد الأحكام على قسمين: مقاصد، وهي المتضمنة للمصالح والمفاسد في أنفسها. ووسائل، وهي الطرق المفضية إليها.''[11]

ويقول ابن قيم الجوزية: ''لما كانت المقاصد لا يتوصل إليها إلا بأسباب وطرق تفضي إليها، كانت طرقها وأسبابها تابعة لها معتبرة بها. فوسائل المحرمات والمعاصي في كراهتها والمنع بها بحسب إفضائها إلى غاياتها وارتباطاتها بها. ووسائل الطاعات والقربات في محبتها والإذن فيها بحسب إفضائها إلى غاياتها. فوسيلة المقصود تابعة للمقصود، وكلاهما مقصود، لكنه مقصود قصد الغايات، وهي مقصودة قصد الوسائل.''[12]

٣- إدراك حقائق الدين والاستنارة بها في معضلات الحياة.

لا تحصل حقائق الدين من البحث العمودي المنحصر في فروع الشريعة وحدها، ما لم تشفع بدراسات أفقية تحاول بناء نظرة شمولية مستوعبة للجزئيات والتفصيلات الفرعية، والتي تكسب الدارس الوعي بالمقاصد العامة للشريعة، بحيث في ضوئها يتعمق إدراكه للمقاصد الخاصة، ويزداد علمه بروح الشريعة، المانعة من اختلال الرؤية وغموضها، إزاء العديد من قضايا الحياة ومعضلاتها. ''فسواء فكرفي قضية سياسية أو اقتصادية أو دستورية قانونية أو اجتماعية أو تربوية أو نقابية أو حقوقية، فلا بد أنه سيكون مستحضرا لتلك المقاصد.. وبذلك يعطي كل ذي حق حقه ويحفظ لكل ذي حظ حظه ويحترم لكل ذي مكانة مكانته.''[13]

ب- الفوائد التربوية

تصحيح العلم بالشرع وتقويم الفهم.

تواجه الناظر في مصادر الشرع كتابة وسنة والمتأمل في الأحكام الشرعية، عقبات ذاتية وموضوعية، تجعله يبتعد بفهمه عن مراد الوحي وكبد حقائقه.

فمن العقبات الذاتية تدخل هوى النفس ونظرتها الخاصة للأمور، والتي تتضافر عدة عوامل نفسية في بلورتها، بحيث لا تخلو من زيادة أو نقصان في الأخذ باعتبار أو آخر، وفي اختلال التقدير لجانب على حساب جانب آخر، لذا قرر أهل النظر أنه لا يسلم عالم من هوى قليل أو كثير، فما من شك أن أول اختبار يواجهه العبد، هو فهمه لخطاب الله فهما سليما يوافق مراده تعالى من كلامه، دون إغراق في التأويل البعيد الذي يتجاوز حدود المقاصد.

نقل السيوطي عن أبي حامد الغزالي أنه قال في كتابه ''حقيقة القولين'': ''مقاصد الشرع قبلة المجتهدين، من توجه إلى جهة منها أصاب الحق''[14] ففقه المقاصد يقي المجتهد سوء الفهم والزلل في الترجيح بين المصالح والأضرار، ويجعله أقرب لروح الشرع فيما يأخذ به أو يذره.

تسديد النية وترشيد السلوك.

فكلما علم المكلف قصد الشارع من الشريعة عموما، تيسر عليه فهم أحكامها في كل مجال من مجالات العمل اعتقادا وعبادة وسلوكا، فمن عرف مقصد الإسلام من الصوم مثلا اجتهد في تحقيق ذلك المقصد في صيامه، وازداد حرصه كي يكون وفيا له مهتديا به في تفاصيل ممارسته لهذه الشعيرة.

وإذا استحضر المقاصد العامة للشريعة، وضم إليها المقاصد الخاصة بكل تكليف من التكاليف، استرشد بهدي تلك المقاصد إلى ما يلزم أن تكون عليه نيته في الأمر أو النهي، وأمكنه أن ترتسم في ذهنه صورة السلوك القويم والنهج السديد، فيتحاشى الانحراف في التنفيذ والتقاعس عن تحقيق الحكم والمقاصد.

ثالثا: مميزات المقاصد في فكر النورسي ''المقاصد القرآنية نموذجا''

اعتمد الشيخ النورسي منهج الاستقراء في تحديد مقاصد القرآن، فلم يكن عسيرا

عليه ذلك، وهوالذي عاش مع القرآن وله واستنار بأنوار هاديته، واعتبر رسائل النور التي اشتملت على زبدة أفكاره نوعا من تفسير القرآن الكريم.

فهو يرى ''أن القرآن الكريم يذكر في أكثر الأحيان قسماً من الخلاصات والفذلكات في خاتمة الآيات. فتلك الخلاصات: إما أنها تتضمن الأسماء الحسنى أو معناها، وإما أنها تحيل قضاياها إلى العقل وتحثه على التفكر والتدبر فيها.. أو تتضمن قاعدة كلية من مقاصد القرآن فتؤيد بها الآية وتؤكدها في تلك الفذلكات بعض إشارات من حكمة القرآن العالية، وبعض رشاشات من ماء الحياة للّهداية الإلهية، وبعض شرارات من بوراق إعجاز القرآن.''[15]

ويواصل تجلية الأمر بقوله: ''إن القرآن الكريم –بيباناته المعجزة– يبسط أفعال الصانع الجليل ويفرش آثاره أمام النظر، ثم يستخرج من تلك الأفعال والآثار، الأسماء الإلهية، أو يثبت مقصداً من مقاصد القرآن الأساسية كالحشر والتوحيد.

فيقدم نماذج توضيحية لهذه الحقيقة منها على سبيل المثال:

قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.﴾البقرة:٢٩

وقوله تعالى ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا. وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا. وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ إلى قوله تعالى ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾.النبأ:٦-١٧

ثم يعلق بقوله: ''ففي الآية الأولى: يعرض القرآن الآثار الإلهية العظيمة التي تدل بغاياتها ونظمها على علم الله وقدرته، يذكرها مقدّمة لنتيجة مهمة وقصد جليل ثم يستخرج اسم الله ''العليم''.

وفي الآية الثانية: يذكر أفعال الله الكبرى وآثاره العظمى، ويستنتج منها الحشر الذي هو يوم الفصل.''[16]

وينتهي تأمله العميق في آي القرآن وتتبعه لما يتردد فيها كثيرا من القضايا والمعاني إلى كون مقاصد القرآن تتلخص في هذه الأمور الأربعة فيقول: ''اعلم !أن مقاصد القرآن الأساسية وعناصره الأصلية أربعة :التوحيد، والرسالة، والحشر، والعدالة مع العبودية .فيصير سائر المسائل وسائل هذه المطالب''[17] ويؤكد كثرة تكرارها عبر المتن

القرآني بقوله: ''إن أغلب السور المطولة والمتوسطة -التي كل منها كأنها قرآن على حدة- لا تكتفي بمقصدين أو ثلاثة من مقاصد القرآن الأربعة (وهي: التوحيد، النبوة، الحشر، العدل مع العبودية)''.[18] ويزيد هذا الأمر إيضاحا فيقول: ''إن مقاصد القرآن الأساسية وعناصره الأصلية المنبثة في كل جهاته أربعة :إثبات الصانع الواحد، والنبوة، والحشر الجسماني، والعدل.''[19]

ونجده يسمي المقاصد بتسميات عدة تميز بينها فإلى جانب المقاصد الأساسية تحدث عن أنواع أخرى منها:

١ــ المقاصد الإلهية:

وهي المجلية لغاية الله تعالى من خلق الكون والكائنات وخاصة منها الإنسان، الذي اعتبره أعظم المقاصد الإلهية، بمعنى أن الله أوجد الكون وسخر ما فيه للإنسان لأجل تكليفه بالرسالة وتحمله تبعاتها دنيا وأخرى. فهو يبين ذلك بالقول الصريح: ''فيا ترى هل يقبل عقل بأن يُترك هذا الإنسان الذي أصبح مكرّماً بالخلافة والأمانة، والذي ارتقى إلى مرتبة القائد والشاهد على المخلوقات، بتدخله في شؤون عبادة أغلب المخلوقات وتسبيحاتها بإعلانه الوحدانية في ميادين المخلوقات الكثيرة، وشهوده شؤون الربوبية الكلية ..فهل يمكن أن يُترك هذا الإنسان، يذهب إلى القبر لينام هادئاً دون أن ينبّه ليُسأل عن كل صغيرة وكبيرة من أعماله، ودون أن يُساق إلى المحشر ليحاكم في المحكمة الكبرى؟ كلاّ ثم كلاّ!''[20]

٢ــ المقصد الحقيقي:

وهو عنده صلب ما تقصد إلى تحقيقه أحكام الشريعة وتكليفاتها في واقع الناس من خير وحسن وكمال، حيث يرى أن القبح والشرور نفسها تبرز أمام العقل خيرية الخير وجمال الحسن وكلية الكمال ''وأمثال هذه الشرور والقبائح الجزئية خُلقت في الكون لتكون وسيلة لإظهار أنواع الخير والجمال الكليين. وهكذا يثبت بالاستقراء التام أن المقصد الحقيقي في الكون والغاية الأساسية في الخلق إنما هو: الخير والحسن والكمال، لذا فالإنسان الذي لوّث وجه الأرض بكفره الظالم وعصيانه الله لا يمكن أن يفلت من العقاب، ويذهب إلى العدم من دون أن يحق عليه المقصود الحقيقي في الكون. بل سيدخل سجن جهنم!''[21]

٣ ـ المقصد الأصلي والمقصد التبعي:

حيث ميز بين المقاصد الأصلية التي حازت الأولوية في خطاب القرآن وشكلت مقصوده الذي نزل بتبليغه وتعليمه للناس، ومقاصد ثانوية سيقت لتوضيح وبيان المقاصد الأصلية، فنبه إلى ذلك وقال: ''اعلم! أن المقصد الأصليّ في القرآن الكريم إرشاد الجمهور إلى أربعة أساسات هي: إثبات الصانع الواحد، والنبوّة، والحشر، والعدالة.. فذكرُ الكائنات في القرآن الكريم إنما هو تبعيّ واستطراديّ للاستدلال؛ إذ ما نزل القرآن لدرس الجغرافيا والقوزموغرافيا،[22] بل إنما ذكرَ الكائنات للاستدلال بالصنعة الإلهية والنظام البديع على النظّام الحقيقي جل جلاله.''[23]

رابعا: استخلاص المقصد العام للإسلام من فكر النورسي.

لاستخلاص المقصد العام للإسلام من فكر النورسي، نحتاج إلى استعراض ما تضمنته رسائل النور من أفكار ونظرات تفصيلية، لما أجمله حين حديثه عن مقاصد القرآن الكريم، سيما ورسائل النور اغترفت من نبع القرآن ودارت معه حيث دار. وفيما يلي بيان ذلك:

١ ـ أهمية صياغة مقصد عام للقرآن والإسلام

ما من شك أن التوصل إلى صياغة مقصد عام واحد للقرآن وللوحي كتابا وسنة وللإسلام في نهاية المطاف، تفرضه اعتبارات منهجية نذكر منها ما يلي:

أ- إن مما تقتضيه وحدانية الله تعالى، هو أن تؤول مقاصد دينه المتعددة إلى مقصد واحد عام ينتظمها جميعا، وتكون كلها بمثابة فروع له ومعاني تفصيلية عنه ومجالات عمله المتكاملة. فهذا النهج هو ما رسمته بعض آيات القرآن الكريم مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾الذرايات:٥٦ ورسمه الحديث النبوي كقوله ﷺ: ''إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق''.[24] ولقد عبر الشارع عن مقاصد الدين بصيغ مختلفة يمكن إرجاعها إلى مقصد واحد عام تتجسد فيه كلها.

ب- إن وحدة الدين لابد أن تكون حاضرة ومعاينة في وحدة توجهه ومقصده، وكل تصور يشوش على هذه الوحدة فهو خلل في النظر، ويؤدي إلى شتات فكري واضطراب في فهم كلية الدين وتماسك تشريعاته. وشأن الدين في هذا الصدد كشأن أي كائن لا يمكن أن يسير على طريق سوي برأسين اثنين أو أكثر.

ج- تحتاج عملية استخلاص مقصد عام لدين الإسلام إلى دراسة استقرائية متفحصة ومتدرجة في نصوص الوحي قرآنا وسنة، تبدأ من جرد المقاصد الجزئية في مختلف مجالات التشريع، ثم تتجه نحو مقاصد أساسية أكثر عمومية، وتستخرج منها مقصدا واحدا عاما يجمع ما تفرق فيما دونه من المقاصد الأخرى، والتي يجب أن ترتبط به بوجه من الوجوه.

وفي هذا المستوى تعددت مواقف العلماء فتقاربت أحيانا وتباعدت أحيانا أخرى.

٢- معطيات الفكر النورسي لصياغة مقصد عام للإسلام.

إن من يتتبع ما ورد في رسائل النور، حول المقاصد والغاية من إنزال الشرائع وبعثة الرسل، ووظيفة الإنسان في الحياة الدنيا، ينتهي به البحث إلى بلورة مقصد عام للقرآن هو نفسه مقصد السنة ومقصد الإسلام، الذي كل المقاصد الأخرى تابعة له ومندرجة تحته وفيما يلي تفصيل ذلك:

أ- إن المقاصد الأساسية التي حددها الأستاذ النورسي للقرآن، وهي التوحيد والنبوة والحشر والعدل مع العبودية، تتيح لنا انطلاقا منها الوصول إلى مقصد عام، مع شيء من التحقيق والتدقيق، حيث نلاحظ تكامل هذه المقاصد وتضافرها لبناء مقصد شامل لها كلها.

وهذه العملية تتطلب منا إدخال الإنسان في الاعتبار، لكونه المعني بكل مقصد من مقاصد الدين، وهو الذي يتعين عليه إدراك مقصد الله من خلقه على شاكلة بعينها، ولغاية محددة يجب عليه أن يستوعبها ولا يضل عنها.

ومن تم لزم صياغة المقصد العام للدين في ارتباطه بالإنسان المكلف بالشريعة، من أمثلة ذلك ما نجده عند الإمام الشاطبي بصيغ متعددة منها قوله: ''المقصد الشرعي من وضع الشريعة إخراج المكلف عن داعية هواه، حتى يكون عبدًا لله اختيارًا، كما هو عبد لله اضطرارًا'' وقوله: ''قصد الشارع من المكلف أن يكون قصده في العمل موافقا لقصده في التشريع. والدليل على ذلك ظاهر من وضع الشريعة، إذ قد مر أنها موضوعة لمصالح العباد على الإطلاق والعموم، والمطلوب من المكلف أن يجري على ذلك في أفعاله، وأن لا يقصد خلاف ما قصد الشارع''[25] والأستاذ علال الفاسي حين محاولته صياغة مقاصد القرآن بعد إطالة التفكير والنظر في ثلة من آياته قال:

''فمجموع هذه الآيات القرآنية يبين بوضوح أن الغاية من إرسال الأنبياء والرسل وإنزال الشرائع، هو إرشاد الخلق لما به صلاحهم وأداؤهم لواجب التكليف المفروض عليهم''.[26]

فهذه المقاصد القرآنية الأساسية عند الأستاذ لا ينقصها إلا ربطها بالإنسان لكي يتشكل منها في الأخير مقصد عام واحد فنستخلصه منها على مثل هذا النحو: ''المقصد العام للقرآن أو للإسلام هو تكليف الله تعالى للإنسان عن طريق الرسول ﷺ بأن يوحده ويلتزم العدل في كل أموره ليكون من الفائزين يوم القيامة''. ويمكن اختزال ذلك كله في كلمات ثلاث: ''القرآن تكليف الله للإنسان'' أو بعبارة أخرى: ''القرآن رسالة الله التكليفية للإنسان'' أو ''مسؤولية الإنسان أمام الله''.

فهذه هي الحقيقة الجامعة التي رسختها وأكدتها جميع المقاصد، فتوحيد الله والتزام العدل هما أصلا التكليف الشرعي، والنبوة هي طريقة تبليغ وتعليم هذا التكليف، والحشر هو يوم حساب الله للإنسان على مدى قيامه بهذا التكليف، لينال الجزاء على الوفاء والعقاب على الجفاء.

ب– يبدو من الصيغة العامة التي انتهت إليها المقاصد الأساسية عند النورسي أن الذي يجمع بينها ويوحدها في نسق واحد هو مسؤولية الإنسان، وهذا ما تناوله أستاذنا الكبير في عدة مواضيع من رسائله حيث نجده يركز على ابتلاء الإنسان الكائن الحر في هذه الدنيا، بما يطويه الغيب من مستورات عن الأنظار، كأركان الإيمان وما جرى مجراها، مما يقصر عنه البصر وتدركه البصيرة، ليؤمن من شاء ويكفر من شاء. فيقول: ''إن هذه الدنيا دار امتحان واختبار، ودار مجاهدة وتكليف، والاختبار والتكليف يقتضيان أن تظل الحقائق مستورة ومخفية، كي تحصل المنافسة والمسابقة، وليسمو الصديقون بالمجاهدة إلى أعلى عليين مع أبي بكر الصديق، وليتردى الكذابون إلى أسفل سافلين مع مسيلمة الكذاب.''[27] فمكونات مجال الابتلاء في هذه الدنيا لها قابليتا التوظيف في اتجاهي الإيمان أو الكفر، التصديق أو التكذيب بحيث يمكن للإنسان أن يتبع الأدلة المثيرة لهذه القابلية أو تلك بحسب رغبته وإرادته، دون التعرض لأي ضغط قد يدفعه في غير الاتجاه الذي يختاره بكامل رضاه وطواعيته، ولو كان الدليل معجزة خارقة، وهذا ما أشار إليه شيخنا عندما قال: ''إن المعجزة تأتي لإثبات دعوى النبوة عن طريق إقناع المنكرين، وليس إرغامهم على الإيمان، لذا يلزم إظهارها للذين سمعوا

دعوى النبوة، بما يوصلهم إلى القناعة والاطمئنان إلى صدق النبوة .أما إظهارها في جميع الأماكن، أو إظهارها إظهارا بديهياً بحيث يضطر الناس إلى القبول والرضوخ فهو منافٍ لحكمة الله الحكيم ذي الجلال، ومخالف أيضا لسر التكليف الإلهي .ذلك لأن سر التكليف الإلهي يقتضي فتح المجال أمام العقل دون سلب الاختيار منه.''[28]

ولقد اعتبر الأمانة التي تحملها الإنسان هي السر في جعله مسؤولا في هذا العالم يسخر طاقاته وإمكاناته ومخلوقاته كلها في مآربه الخاصة فالمسؤولية التي امتازت بها نفسه عن باقي الكائنات هي مفتاح الولوج لخيري الدنيا والآخرة إن هو أحسن القيام بحقها وقدرها حق قدرها، فهو يقول: ''اعلم !أن مفتاح العالم بيد الإنسان، وفي نفسه، فالكائنات مع أنها مفتحة الأبواب ظاهراً إلاّ أنها منغلقة حقيقةً فالحق سبحانه وتعالى أودع من جهة الأمانة في الإنسان مفتاحاً يفتح كل أبواب العالم، وطلسماً يفتح به الكنوز المخفية لخلاّق الكون، والمفتاح هو ما فيك من 'أنا'. إلاّ أن 'أنا' أيضا معمي مغلق''.[29]

ويذكر الإنسان بموقع الاستخلاف في الأرض الذي يشتمل على كل معاني التكليف والمسؤولية المميزة للجنس البشري فيشرح له مقتضياتها: ''أيها الإنسان !إن ما تملكه من نفسٍ ومال ليس ملكاً لك، بل هو أمانةٌ لديك، فمالكُ تلك الأمانة قديرٌ على كل شيء، عليم بكل شيء، رحيمٌ كريم، يشتري منك ملكه الذي عندك ليحفَظَه لك، لئلا يضيع في يدك، وسيكافؤك به ثمناً عظيماً، فأنت لست إلا جندياً مكلفاً بوظيفة، فاعمل لأجله واسعَ باسمه، فهو الذي يرسل إليك رزقَك الذي تحتاجه، ويحفظك مما لا تقدر عليه''.[30]

وهكذا يتضح لنا أن الشيخ النورسي رحمه الله لم يفته أن يجلي المقصد العام للقرآن والإسلام عبر رسائل النور، وإنما يحتاج الأمر من الدارس إلى استعراض مضامينها كلها للوقوف على ما فيها من تفاصيل، ذات بعد تكاملي خادم للوحدة الموضوعية، التي اقتضتها محورتها حول القرآن الكريم، وامتدادها تحت ظلاله وأنواره الهادية.

* * *

الهوامش:

[1] إطار تربوي القنيطرة، المغرب

[2] الفكر المقاصدي قواعده وفوائده – د أحمد الريسوني منشورات الزمن، دجنبر ١٩٩٩.

[3] انظر تجديد المنهج في تقويم التراث، ص٩٨ بيروت، المركز الثقافي العربي، ط٢، د.ت.

[4] النورسي، بديع الزمان سعيد، صيقل الإسلام، محاكمات – ص: ٤٧، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، سوزلر، إسطنبول ١٩٩٥. /

[5] مقاصد الشريعة، ص ٢٥١. ت: محمد الطاهر الميساوي، الأردن، دار النفائس، ط٢. ٢٠٠١م.

[6] مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، مكتبة الوحدة العربية – الدار البيضاء ص ٤١-٤٢.

[7] النورسي، بديع الزمان سعيد، الشعاعات، الشعاع الثاني – ص: ٢٦، ترجمة إحسان قاسم الصالحي. سوزلر، إسطنبول ١٩٩٣.

[8] الشعاع التاسع – ص: ٢٣٧.

[9] نفسه ص٣.

[10] صيقل الإسلام/محاكمات – ص: ٤٧

[11] الفروق ٣٣/٢، عالم الكتب، بيروت – د.ت

[12] أعلام الموقعين ١٣٥/٣. نشر دار الجيل بيروت. د- ت

[13] الفكر المقاصدي مرجع سابق ص ١٠١.

[14] الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض، ص١٨٢ تحقيق فؤاد عبد المنعم النمر- مؤسسة شباب الجامعة ١٤٠٥/١٩٨٥ الإسكندرية- مصر.

[15] النورسي، بديع الزمان سعيد، الكلمة الخامسة والعشرون – ص: ٤٨٣، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، سوزلر، إسطنبول ١٩٩٢.

[16] نفسه ص ٤٨٤.

[17] النورسي، بديع الزمان سعيد، المثنوي العربي النوري- ص: ٧٥، تحقيق إحسان قاسم الصالحي. سوزلر، إسطنبول ١٩٩٤.

[18] الكلمة الخامسة والعشرون – ص: ٥٣٣

[19] صيقل الإسلام/محاكمات – ص: ٢٩

[20] الكلمة العاشرة – ص: ٨٣

[21] صيقل الإسلام ص ٥٠٢.

[22] القوزموغرافيا: علم الفلك.

[23] النورسي، بديع الزمان سعيد، إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز ص١٧٧، تحقيق إحسان قاسم الصالحي. سوزلر، إسطنبول ١٩٩٤شارات الإعجاز

[24] رواه أحمد في المسند وصححه الألباني.

[25] الموافقات ٣٣١/٢. ت: عبد الله دراز- ١٣٩٥/١٩٧٥، ط٢

[26] مقاصد الشريعة ومكارمها مرجع سابق ص ٤٣.

[27] الكلمة الرابعة عشرة – ص: ١٩٦

[28] الكلمة الحادية والثلاثون – ص: ٧٠٣

[29] الكلمة الثلاثون – ص: ٦٣٥

[30] النورسي، بديع الزمان سعيد، اللمعات، اللمعة السابعة عشرة – ص: ١٨٣، ترجمة إحسان قاسم الصالحي. سوزلر، إسطنبول ١٩٩٣.

مقاصد القرآن من خلال رسائل النور

علي قاطي ئوز[1]

مصطلح المقاصد يعرف في غالب الأحيان بـ: "الهدف والمبتغى" ويراد به المقاصد التي يهدف إليها القرآن الكريم والمبتغيات التي يصبو إليها، ولا يوجد هناك تعريف مجمع عليه للمقاصد من قبل كافة العلماء، ويتميز المصطلح بالانتشار في جميع القرآن الكريم سورهِ وآياته.

عندما نسمع كلمة المقاصد يتبادر إلى الذهن مباشرة الأهمية البالغة والعناية الفائقة التي أَوْلاها الأئمة الأجِلة وكذا التقسيمات التي عمد إليها العلماء السابقون مثل الغزالي والشاطبي والرازي رحمهم الله وغيرهم، فقد اهتموا بهذا الموضوع وأَوْلوْه عناية كبيرة؛ حيث تناولوه بالدراسة والتحليل، فمنهم من قسم المقاصد وفصّل ومنهم من اكتفى بالتحديد فقط.

لم يتعارض العلماء في تحديد مقاصد القرآن ولا في الأهداف والمبتغيات، إذ هذه الأمور كلها متفق عليها من طرف الجميع، لكنهم اختلفوا في تحديدها بالضبط وتعدادها وتراتُبها وطريقة الوصول إليها وفهمها وحصرها، فمنهم من فرّع ومنهم من خصص ومنهم من سرَد وفصّل ومنهم من أوجز واختصر ومنهم من توسع ومنهم من حصر، فالقائلون بأنها سبعة والقائلون بكونها أربعة والقائلون بكونها أكثر من ذلك أو أقلّ، وعلى الرغم من هذا فإنهم اتفقوا في كل ما ينجم عنها وعلى أدلتها.

إن اختلاف العلماء في تحديد المقاصد بالضبط وكُنهها هو فقط حسب فهم كل عالم على حدة، ومن أفاض في تحديدها فقد مزج التحديد بالتحليل، فلا تعدو كثرتها من أن تكون تفريعا وتفصيلا فحسب.

والمُستقصِي لما قاله علماء الأمة في هذا الموضوع يجد أنه بناء على مقولة الشاطبي مثلا أن أوامر الشارع ونواهيه لابد أن يكون وراءها قصد معين، لأن انعدام

القصد والهدف عبث في عبث، وبما أن القرآن الكريم أنزل مخاطبا مُكلَّفين فلابد أن يكون قد جاء على نحوٍ تُراعَى فيه أحوالهم، فإنه رحمه الله يحصرها في ثلاثة أصول فقط وهي الوحدانية، والنبوة، والبعث، التي ترجع في أصلها إلى معنى واحد وهو العبودية.

أما الغزالي رحمه الله تعالى فيشير إلى أن المقصد العام هو المعرفة الإلهية، وتتشعب عنها فروع كثيرة منها ذكر الذات والصفات والأفعال والمعاد... إلى غير ذلك.

والنورسي رحمه الله نهج منهجا غير بعيد عما انتهجه من قبله من العلماء، إلا أنه تناول هذا الموضوع وفق رؤية أخرى فيها لمسات حديثة وتتدفق منها الجدّة، ويستخلص منها دقة التعامل مع القرآن الكريم، فنجده يحصرها في أربعة: وهي التوحيد والحشر والنبوة والعدالة ويضيف مصطلح العبودية لا باعتباره مستقلا بذاته، بل تابع للعدالة حيث يقرر في المثنوي العربي النوري: ''اعلم أن مقاصد القرآن الأساسية وعناصره الأصلية أربعة: التوحيد، والرسالة، والحشر، والعدالة مع العبودية.''[2] بعد هذا يشير إلى أن سائر المسائل تصير وسائل لهذه المطالب، واعتمادا على قاعدة: عدم التعمق في تفصيل الوسائل لئلا ينتشر البحث بالاشتغال بما لا يعني فيفوت المقصد، لذلك أبهم القرآن وأهمل وأجمل، وإلا فصّل في كل هذه المسائل وفرّع، من هنا نفهم لماذا لم يفصّل النورسي في هذه المقاصد، وعلى العكس من ذلك نجد بقية العلماء قد أشاروا إلى هذه المقاصد بشيء من التفصيل.

ففي إشارات الإعجاز يقول الأستاذ: ''إن المقاصد الأساسية من القرآن وعناصره الأصلية أربعة: التوحيد والنبوة والحشر والعدالة''[3] ويُثْبت بعد صفحات حيث يقول: ''فاعلم أن المقصد الأصلي في القرآن إرشاد الجمهور إلى أربعة أساسات هي: إثبات الصانع الواحد والنبوة والحشر والعدالة''.[4] وفي صيقل الإسلام يبين بوضوح انبثاثها في كل القرآن: ''إن مقاصد القرآن الأساسية وعناصره الأصلية المنبثة في كل جهاته أربعة إثبات الصانع الواحد، والنبوة، والحشر الجسماني، والعدل''.[5]

إن تعريف النورسي للقرآن الكريم يتميز بالشمولية، وقد توخى من خلاله المقاصد الكبرى له والأهداف العامة والكونية التي يهدف إليها ومن أجلها نزل، ومن خلال قراءتنا لهذا التعريف الشمولي نستشف براعة النورسي في جمع كل المقاصد التي أشار إليها القرآن الكريم، حيث يقول في التعريف: ''هو الترجمةُ الازلية لكتاب الكائنات الكبير.. والترجمانُ الابدي لألسنتها المتنوعة التالية للآيات التكوينية..

ومفسّرُ كتاب عالَم الغيب والشهادة.. وكذا هو كشّافٌ لمخفيات الكنوز المعنوية للأسماء الإلهية المستترة في صحائف السماوات والأرض.. وكذا هو مفتاح لحقائق الشؤون المضمَرة في سطور الحادثات.. وكذا هو لسان عالَم الغيب في عالم الشهادة.. وكذا هو خزينةٌ للمخاطبات الأزلية السبحانية والالتفاتات الأبدية الرحمانية الواردة من عالم الغيب المستور وراء حجاب عالم الشهادة هذا.. وكذا هو شمسُ عالم الاسلام المعنوي وأساسُه وهندسته.. وكذا هو خريطةٌ مقدسةٌ للعوالم الأخروية.. وكذا هو القولُ الشارح والتفسيرُ الواضح والبرهانُ القاطع والترجمان الساطع لذات الله وصفاته وأسمائه وشؤونه.. وكذا هو المربي لهذا العالم الإنساني. وكالماء والضياء للإنسانية الكبرى التي هي الاسلام. وكذا هو الحكمة الحقيقية لنوع البشر.. وهو المرشد المهدي إلى ما يسوق الإنسانية إلى السعادة.. وكذا هو للإنسان: كما انه كتاب شريعةٍ، كذلك هو كتابُ حكمةٍ، وكما انه كتابُ دعاءٍ وعبوديةٍ، كذلك هو كتابُ أمرٍ ودعوةٍ، وكما أنه كتابُ ذكرٍ كذلك هو كتابُ فكرٍ.. وهو الكتاب الوحيد المقدس الجامع لكل الكتب التي تحقق جميع حاجات الانسان المعنوية، حتى إنه قد أبرز لمشرَب كلِّ واحدٍ من اهل المشارب المختلفة، ولمسلك كلِّ واحدٍ من اهل المسالك المتباينة من الاولياء والصديقين ومن العرفاء والمحققين رسالةً لائقةً لمذاق ذلك المشرَب وتنويره، ولمساقِ ذلك المسلك وتصويره. فهذا الكتاب السماوي اشبهُ ما يكون بمكتبةٍ مقدسةٍ مشحونةٍ بالكتب.[6]

إن هذا التعريف الشامل للقرآن الكريم يرسم لنا المقاصد الأربعة التي يحددها الأستاذ سعيد النورسي والتي يهدف إليها بذاته والتي من أجلها نزل القرآن، فإذا دققنا في تعريف العلماء للقرآن الكريم نستخلص منه تلميحا للدفاع عن القرآن الكريم من الشبه التي كان يُفترض أن تَلحقه من طرف المشركين وكذا الفُرق الكلامية فيما بعد، خصوصا مسألة كونه مخلوقا أم كلام الله عز وجل.

بعد هذا الاستقراء الواضح للقرآن الكريم -وهذا التعريف يشهد على ذلك- والتمحيص في آياته الكريمات، فإن النورسي رحمه الله يقرر بأن كل القرآن العظيم يهدف إلى هذه المقاصد الأربعة بل إنها منتشرة في كل سوره بل إنها مبثوثة حتى في كل آياته، فقد حدد النورسي تلك المقاصد من خلال هذا التعريف في أربعة.

وإذا أردنا أن نمثل لكون أن هذه المقاصد موجودة في كل سورة بل حتى في كل آية كما يشير إليه النورسي فلنستمع إليه حيث يقول: ''إن قلت: أَرِني هذه المقاصد الأربعة في 'بسم الله' وفي 'الحمد لله'. قلت: لما أنزل 'بسم الله' لتعليم العباد كان 'قُلْ'

مقدّراً فيه. وهو الأمُّ في تقدير الأقوال القرآنيّة. فعلى هذا يكون في 'قُلْ' إشارةُ إلى الرسالة.. وفي 'بسم الله' رمزُ إلى الألوهيّة.. وفي تقديم الباء تلويحُ إلى التوحيد.. وفي 'الرحمن' تلميحُ إلى نظام العدالة والإحسان.. وفي 'الرحيم' إيماء إلى الحشر. وكذلك في 'الحمد لله' إشارةُ إلى الألوهيّة.. وفي لام الاختصاص رمزٌ إلى التوحيد.. وفي 'ربّ العالمين' إيماء إلى العدالة والنبوة أيضاً، لأنّ بالرسل تربية نوع البشر.. وفي 'مالك يوم الدين' تصريح بالحشر. حتى إنّ صدف 'إنّا أعطيناك الكوثر' يتضمن هذه الجواهر. هذا مثالُ فانسج على منواله''.[7]

وفعلا كما قال النورسي فكلمة ''إنا أعطينا'' تدل على التوحيد، وكاف الخطاب يدل على النبوة ونهر الكوثر هو نعيم الجنة الذي يدل على الحشر وعدالة الله تعالى، من هنا نرى أن ما أشار إليه النورسي رحمه الله من وجود المقاصد الأربعة في كل القرآن قد دل عليه بهذا المثال الواضح، وترك استخراج الباقي منها للقارئ عن طريق القياس، وقد أوضح سعيد النورسي بتفصيل هذه المقاصد في رسائله كلها وساق أمثلة حية لها.

فبالنسبة للحشر: انطلاقا من الآية الكريمة: ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾،الروم:٥٠ نجد الأستاذ يفصل في مسألة الحشر وفق فهم عامة الناس بطريقة سَلسة، وذلك بأمثلة مقنعة وتصوير رائع وأدلة قاطعة قصمت ظهر الملحدين وأسكتتت أفواههم.

أما بالنسبة للتوحيد: فنجد النورسي قد بث في كل رسائل النور هذا الموضوع باعتباره الأساس والمنطلق الأول حيث رسائل النور مكتوبات إيمانية هدفها الأساس إنقاذ الناس من العدم وإخراجهم من ظلمات العبث إلى نور الايمان، فكان التوحيد والدلائل الساطعة التي أوردها النورسي له برهانا على وحدانية الله تعالى وقدرته.

أما بالنسبة للعدالة: فإن النورسي يراها من خلال الكون وتصميمه الدقيق، وعدالة الميزان كونية عنده لا يربطها بالعدالة الجزئية الدنيوية وإنما هي أكبر من ذلك.

أما بالنسبة للنبوة: فإن المعجزات الأحمدية التي تجاوزت الثلاثمائة معجزة، تعبير واضح على اهتمام النورسي بذلك المقصد القرآني الرفيع والإشارة الدائمة إلى تلك الشمس الساطعة في مختلف مباحث الرسائل، لهو الدليل الأقوى على أن تعامل سعيد النورسي مع القرآن الكريم وفهمه الثاقب هو الذي كان له الدور الكبير في تميزه في تحديد هذه المقاصد الأربعة الشاملة لكل المقاصد الذي أوردها العلماء من قبْله ومن

بعده، حيث تتميز نظرة النورسي إلى المقاصد بالشمول والإحاطة، فجمْعُها في أربعة ليس اختصارا لها وإنما يدل على دقة النورسي، حيث ما أشار إليه يحيط ويشمل كل ما أشير إليه من قبْله ومن بعده، فلو كان ما أشار إليه اختصارا ما عبر بأن كل المقاصد التي قال بها مبثوثة في كل آيات القرآن الكريم، وفعلا المُدقّق والمتفحص في آياته لا يكاد يمر على آية من غير أن يجد فيها هذه المقاصد الأربعة.

إن الناظر في رسائل النور والمتمعن في جل مواضيعها يرى أنها تتناول مقاصد القرآن الأربعة مشيرة إليها في ثَناياها وفي كل مباحثها، فبالنسبة للمواضيع الأخرى مثل القدر والحشر وكل المواضيع العقدية أو حتى الفلسفية... نجد لها مبحثا منفصلا ومستقلا، غير أن المقاصد مبثوثة في الرسائل جميعِها، وفوق ما تبحثه رسائل النور من أمور الدعوة وقضية الايمان، فهي تبحث أيضا عن إعجاز القرآن الكريم وكذا المقاصد التي يهدف إليها، والمتأمل في هذا الموضوع يجد أنه قد تفرق في صفحات الرسائل.

* * *

المراجع

- القرآن الكريم.
- المثنوي العربي النوري لبديع الزمان سعيد النورسي، تحقيق الأستاذ إحسان قاسم الصالحي طبعة ١٩٩٣ مطبعة سوزلر إسطنبول.
- إشارات الإعجاز لبديع الزمان سعيد النورسي، تحقيق الأستاذ إحسان قاسم الصالحي طبعة ١٩٩٣ مطبعة سوزلر إسطنبول.
- صيقل الإسلام /محاكمات عقلية لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة الأستاذ إحسان قاسم الصالحي طبعة ١٩٩٣ مطبعة سوزلر إسطنبول.
- الكلمات لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة الأستاذ إحسان قاسم الصالحي طبعة ١٩٩٣ مطبعة سوزلر إسطنبول.

* * *

الهوامش:

[1] رئيس مؤسسة الثقافة والعلوم بمانيسا، تركيا.
[2] المثنوي العربي النوري، النورسي، ص: ٧٥.
[3] إشارات الإعجاز، النورسي، ص: ٢٣
[4] إشارات الإعجاز، النورسي، ص: ١٧٧
[5] صيقل الإسلام، النورسي، ص: ٣١
[6] الكلمات، النورسي، ص: ٤٢٢
[7] إشارات الإعجاز، النورسي، ص: ٢٤

الحوار والإصدارات والمؤتمرات

حوار مع أ.د. ثروت أرمغان

تستضيف مجلة النور للدراسات الحضارية والفكرية في عددها التاسع، أحد أبرز الأكاديميين في تركيا، أشرف وأدار المؤسسات العلمية، وصنّف في الدراسات الحقوقية والثقافية العامة ما بقي شاهدا على علو كعبه، وقد أجرت المجلة الحوار مع هذه القامة العلمية تأكيدا منها لوجوب التواصل المعرفي والحضاري بين مجمل الكفاءات الرسالية في الأمة الإسلامية في مختلف المراحل، خدمة لمقصد التعريف بعلماء الأمة، وتيسيرا لثقافة التواصل بين الأجيال بالتعرُف على الذين حافظوا على أمانة العلم والتربية غضة طرية كما أنتجها الأسلاف، ويتم ذلك ببيان مسالك تكوينهم، وطرق استفادتهم من أدبياتنا الأصلية والمعاصرة، اقتربنا في هذا العدد من الأستاذ الدكتور ثروت أرمغان، أردنا بهذا الحوار التأكيد على حضور رسائل النور عند جملة الأكاديميين الحضاريين، كما حاولنا الاقتراب من درسه لرسائل النور لأجل أن نستشف منه أهميتها في التدقيق المنهجي والقراءة الوظيفية للقرآن الكريم والسنة المطهّرة، وتحقيقا لهذا المسعى نستهل الحوار، بالتعرُّف إلى الأستاذ الكريم.

السؤال الأول: نريد أن يتعرّف القارئ الكريم عن الأستاذ الدكتور ثروت أرمغان من الطفولة إلى الشيخوخة (وأنتم مازلتم شابا فكرا وحركة)؟

الجواب: أستطيع أنْ أقول أني ولدت عام ١٩٣٩م في مدينة أورفة التي تقع في جنوب شرقي تركيا والتي توفي فيها الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي، ودرست المرحلتين الابتدائية والثانوية فيها، في سنة ١٩٥٦ انتقلت إلى مدينة إسطنبول بقصد إكمال دراساتي العليا، حيث دخلت جامعة إسطنبول وسجّلت في كلية الحقوق، بعد أربع سنوات تخرجت منها؛ واجتزت امتحان الأكاديميين وانتسبت إلى قسم القانون الدستوري بصفة أستاذ مساعد، وبعد فترة ذهبت إلى أوروبا وبالضبط إلى ألمانيا الغربية حيث استفدت من منحة دراسية ألمانية تحت اسم (د. أ. د. د.).

مكثت في ألمانيا سبع سنوات تقريبا في جامعة بولونيا وحصلت منها عام ١٩٦٧م على شهادات أكاديمية واكتسبت خبرات معرفية ومنهجية كثيرة، ورجعت بعدها إلى تركيا واجتزت امتحان الأستاذ المساعد، ثم أصبحت أستاذا مساعدا في سنة ١٩٧١، وذلك بحسب النظام الجامعي المعمول به في ذلك الوقت، إذ انتظرت أربع سنوات بعد الحصول على الدكتوراه لأجل التقديم لنيل رتبة الأستاذ المساعد، فكان التوفيق بفضل الله حليفنا، حيث نلت رتبة أستاذ مساعد عام ١٩٧١م.

وتقدّمت في الكلية نفسها لامتحان رتبة الاستاذ الدكتور في عام١٩٧٧م، حيث وُفِقْتُ بعون الله تعالى لنيلها.

كنت قبلها قد سافرت إلى الكويت، وكان ذلك عام ١٩٧٥م، تلبية لدعوة جامعة الكويت ومكثت هناك حوالي ستة أشهر، ألقيت خلالها المحاضرات، وأنجزت عددا من البحوث، وترجمت الدستور الكويتي إلى اللغة التركية ونشرته في مجلة كلية الحقوق في جامعة إسطنبول، كما قمت بترجمة الدستور المغربي والسوري والعراقي إلى اللغة التركية، وشرحت قسما من هذه الدساتير.

دعتني ألمانيا الاتحادية عدة مرات لإنجاز مجموعة من البحوث المتعلقة بالمجال الدستوري والفقه الإسلامي أيضا. بعد فترة دخلت إلى مجال الفقه الإسلامي، ومعلوم أنّ الفقه الإسلامي لم يكن يدرّس في بلدنا في المؤسسات الأكاديمية لطبيعة الدولة العلمانية في تركيا، لذلك أنا لم أدرُس ولم أدرّس الفقه الإسلامي، فحاولت أن أتعلمه في جوانبه المختلفة، وبدأت بعد فترة بإنجاز بحوث علمية في هذا المجال، منها:

حرية التعبير عن الأفكار

دور الحرب في الفقه الإسلامي

المساواة بين المرأة والرجل في الفقه الإسلامي.

وقدمت عدة بحوث للنشر في المجلات المحكّمة التي كانت تصدرها كلية الحقوق بجامعة إسطنبول، رفضت إدارات المجلات النشر لأن القائمين عليها في ذلك الوقت كانوا أساتذة علمانيين متشددين في هذا المجال، فامتنعوا عن نشر كل ما له صلة بالإسلام والقيم الإسلامية أو الدينية لأنهم درسوا العلمانية، سواء أولئك الذين تخرّجوا من أوروبا أو من تركيا، لكن وبعون الله تعالى بعد أن حصلت على درجة

الأستاذ المساعد شاركت بعدة مقالات وترجمت أيضا من اللغة العربية إلى اللغة التركية عدة بحوث متعلقة بالفقه الإسلامي.

فُصِلْتُ من قِبَل الإدارة العسكرية من الجامعة سنة ١٩٨٣م، وفقدت منصبي فيها، لذلك ذهبت إلى البنك الاسلامي للتنمية الذي مقره في المملكة العربية السعودية في جدة، وبعد النجاح بعون الله تعالى في الامتحان أصبحت باحثا في البنك الاسلامي للتنمية في مجال الفقه المالي أو فقه المصارف الإسلامية، ومكثت هناك سبع سنوات تقريبا، ثم تراجعت الإدارة العسكرية عن قرارها ودعتني إلى جامعة إسطنبول للمرة الثانية، وذلك بناء على عدة عرائض قدّمتها ضد قرارات الإدارة العسكرية، فنجحت بعون الله تعالى وعدت إلى منصبي. وفي سنة ٢٠٠٦ أُحلت إلى التقاعد من الجامعة لبلوغي سبعة وستين سنة من العمر.

تفرّغت بعد التقاعد للاشتغال بالبحوث الإسلامية والقانون الدستوري وركزت أيضا على المجالات المتعلقة برسائل النور، والآن أدرّس القانون الدستوري والفقه الإسلامي في جامعة خاصة.

السؤال الثاني: عاصر جيلكم جملة من التحولات التي تتداخل فيها العوامل الاجتماعية والسياسية والثقافية والحضارية والتربوية، كيف كان تجاوبكم مع هذه المعطيات؟ وما قيمة رسائل النور في مثل هذا الوضع؟

الجواب: تميّزت الظروف الاجتماعية والسياسية والحضارية التي عايشتها وجيلي بما يأتي:

أولا: كانت تطبق في تركيا المبادئ العلمانية، يعني كانت الدولة علمانية والحياة أيضا علمانية، لم ندرس أي دين وأي قيم إسلامية في المدارس الابتدائية والثانوية ولا في الجامعة أيضا، أما الحكومة وعناصرها فقد كانوا أيضا يوالون العلمانية وبعيدون عن الإسلام.

ثانيا: بالرغم من أنّ تركيا لم تدخل في الحرب العالمية الثانية فقد كان يسود فيها بعد الحرب الفقر والجوع وهذا بسبب الإدارة السيئة، فقد أصبحت تركيا في تلك الآونة جائعة، ولذلك لم نتمكن نحن من الوصول إلى حياة الرفاهية والمعيشة الجيدة بسبب الجوع والفقر.

ثالثا: مرت طفولتي تحت حكم إدارة الحزب الواحد وهي إدارة حزب الشعب الجمهوري العلماني، وفي سنة ١٩٥٠ بدأت تعددية الأحزاب في الحياة السياسية، وشاركت الأحزاب في الانتخابات البرلمانية، ونال الحزب الديمقراطي أكثرية ساحقة، بعد سنة ١٩٥٠ بدأت فلسفة جديدة في كل المجالات وبدأ يحل السلام بين الدولة والشعب وخصوصا في مجال موقف الدولة من رسائل النور، بعد هذا العام بدأت رسائل النور تنتشر وتعرف بسهولة، كما بدأت محاكمات أستاذنا المحترم بديع الزمان سعيد النورسي أو ما شابه ذلك.

السؤال الثالث: يلاحظ المستمع إلى جملة أسئلتكم واستفساراتكم الموجهة إلى الذين كتبوا عن رسائل النور، أنّكم من الذين تشرّبوا بها، متى كانت بدايات تعرفكم على رسائل النور، وما قصة هذه العلاقة؟

الجواب: تعرفت على رسائل النور حينما كنت في المدرسة المتوسطة في عام ١٩٥٢ م في مدينة أورفة، كان أخونا الكبير عبد الله يكن من تلامذة الأستاذ النورسي، وكان يقيم في مسجد بأورفة، وكان يشرح لنا حينما نذهب إليه ما هي رسائل النور وما هو الإيمان ولماذا نحتاج إلى تقوية الإيمان وما شابه ذلك، فما كانت الدروس موجودة كما هي اليوم (دروس يومية وأسبوعية وكذا اجتماعات طلاب النور بشكل مكثف) لأن الأخ عبد الله يكن كان ممنوعا قانونا وفعليا من تنظيم اجتماعات متعلقة برسائل النور، حيث إنّ مفتي المدينة كان يمنعه من تنظيم هذه اللقاءات والاجتماعات، وهذا فضلا عن منع الإدارة الرسمية للاجتماعات، لهذا يمكن أن أقول بأنّ مرحلتي الطفولة والشباب قد مرّتا تحت الإدارة العلمانية السيّئة زيادة إلى الأوضاع الاجتماعية المزرية، فقد كان الجوع والفقر السمة العامة.

السؤال الرابع: لو طلب من سيادتكم المقارنة بين مرحلتين في العمر، الفاصل بينها رسائل النور، فما الفرق بين المرحلتين، مرحلة ما قبل الرسائل ومرحلة ما بعدها؟

الجواب: بعد أن تعرفت على رسائل النور طبعا تغيّرت حياتي وتغيّرت محاكماتي العقلية على النحو الآتي:

قبل كل شيء بدأت أتعلم قراءة القرآن الكريم والصلاة، فما كنت أعرف قراءة القرآن الكريم، ثم بدأت قراءة رسائل النور يوميا حيث كنت أقرأ على الأقل نصف ساعة في اليوم، وعندما أجد كلمة لا أفهمها أسأل العارفين مثل الأستاذ عبد الله يكن

وغيرهم من الإخوة الكبار، وأكرر القراءة عدة مرات في اليوم إلى غاية سنة ١٩٥٦م، حيث أكملت قراءة رسائل النور كلها وذهبت إلى إسطنبول وهناك وجدت بيئة مناسبة كانت تنظم اجتماعات مرة في الأسبوع في حي السليمانية، وكنت أحضر وأستمع إلى قارئ رسائل النور الذي يقرأ ويشرح لنا، لكن هذه الاجتماعات كانت خطيرة للغاية لأن الحكومة لا تسمح بها. كنت أداوم على الحضور بالرغم من الخطورة التي كانت تواجهنا؛ وكان المنع الحكومي لمثل هذه الاجتماعات دون سند قانوني صريح يحظر هذه الاجتماعات قانونا، إلا أنّها فعليا مطبقة، لهذا كنت أتوجّس خيفة من الرقيب وأنا خارج من بيتي متوجهاً إلى مكان الاجتماع، لأنّني قد أتعرّض في أي لحظة للمساءلة أو الاعتقال من قبل الشرطة، لأنّها كانت تسعى إلى القبض بالحاضرين في الاجتماع.

ولا أستطيع أن أعبر اليوم عن مدى خوفي في ذلك الوقت لأني كنت طالبا، وإذا تمّ القبض عليّ فسوف تضيع دراستي الجامعية، ولهذا كنا دائما بين الخوف والرجاء؛ الرجاء في الله طبعا والخوف منه، والخوف البشري من الشرطة، لأنني لم أدخل إلى السجن إلا مرّة واحدة، مكثت فيه يوما واحدا وذلك في سنة ١٩٨٢ عندما كنا مجتمعين في الدرس؛ فدخلت الشرطة إلى المدرسة فقبضت علينا جميعا وأخذتنا إلى السجن ومكثنا هناك إلى الصباح لكن المحكمة أطلقت سراحنا.

السؤال الخامس: ما درجة استحضاركم لرسائل النور في عملكم الأكاديمي؟ وخاصة في مجال تخصصكم الأصلي"القانون الدستوري"؟ وأعمال الأستاذ غنية بنقد الأوضاع إشارة حينا وعبارة أحيانا أخرى.

الجواب: استفدت من رسائل النور كثيرا في عملي الأكاديمي لأنه قبل كل شيء تطورت لغتي التركية بالرغم من أن لغتي الأم هي التركية إلا أنني أقول ذلك لأن الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي كان يستعمل في مؤلفاته كلمات ومصطلحات مناسبة وعلمية ودقيقة وجذابة جدا، لأنه استفاد من الكتب القديمة، وأنا استفدت منه، لذلك أستطيع أن أقول أنه بقراءة رسائل النور تطورت لغتي كتابة وشفاهيا أيضا. وبعد فترة قمت بإنجاز بحوث قانونية واستفدت أيضا في هذا المجال من رسائل النور، كمثال: مرة قررت أن أؤلف مقالة علمية عن حماية البيئة من التلوث، فقررت كلية الحقوق أن تصدر كتابا خاصا عن هذا الموضوع، وأنا استفدت من اللمعة الثلاثين حيث تحدث أستاذنا عن اسم القدوس وأيضا عن تنظيف البيئة وتلوت البيئة، استفدت

من هذه الرسالة وألفت مقالا خاصا تحت عنوان: ''الخطوط الرئيسية لحماية البيئة في الفقه الإسلامي''، فقدمت بحثي إلى عمادة كلية الحقوق وقد مر في ذهني أن إدارة الكلية لن تقبل هذا البحث لأني استفدت من رسائل النور ومن الأحاديث الشريفة وغيرها من الأمور الدينية... بعد فترة وجيزة دعاني عميد كلية الحقوق وقال لي: لماذا ألفت هذا المقال؟ ولماذا استفدت من رسائل النور وأنت تعرف أننا ضد هذه الأفكار وضد القيم الإسلامية ورسائل النور، وبالرغم من هذا ألفت مقالا استنادا إلى هذه القيم الإسلامية وأفكار سعيد النورسي؟ فشعرت وكأنه يطلب مني أن أراجع نفسي وأعود عن مقالتي وأنا كنت قد أرسلت مقالتي للنشر، خرجت من غرفته وبعد هذا توصلت برسالة خاصة من عميد الكلية يقول فيها: ''زميلي الأستاذ ثروت أرمغان، نحن ضد هذه الأفكار الإسلامية ورغم هذا قررنا أن ننشر مقالكم في المجلة الأكاديمية العلمية''. وبعون الله تعالى في عام ١٩٩٢ أي قبل ٢٠ سنة تقريبا نشر المقال وكان أول مقال عن حماية البيئة. أستطيع أن أقول أن رسائل النور كانت معجزة بالنسبة لي لأنها ساعدتني كثيرا في عملي الأكاديمي حيث تعلمت المبادئ الإسلامية وعناصر الفقه الإسلامي خصيصا، فقد استفدت مثلا من الكلمة السابعة والعشرين في موضوع الاجتهاد، كما استفدت من مؤلفات الأستاذ النورسي القديمة من نحو المناظرات والخطبة الشامية وما إلى ذلك.

السؤال السادس: بناء على ما سلف هل يمكن أن يقال إن رسائل النور نافعة لكل التخصصات، أم أنّها نافعة للإنسان من حيث كونه إنسانا؟

الجواب: أستطيع أن أقول بأن رسائل النور نافعة لكل التخصصات، ولو ركزنا على المباحث في رسائل النور وقرأنا بدقة نجد عناصر مهمة متعلقة بتخصصات مختلفة، هنا أحب أن أضرب لكم مثالا طريفا من قصيدة أحمد غالب، فهو كان مدرسا في المدرسة الابتدائية في بارلا التي عاش الأستاذ بديع الزمان فيها، وقد أنشد شعرا قدمه للأستاذ سعيد النورسي، وقد وافق الأستاذ عليه ونشره في ملحق بارلا.

قال فيه الشاعر:

فتحت عليه الأبواب الكثيرة من أقصى العلوم بالرشاد

الواقع أنني تعلمت من رسائل النور عدة علوم: علم الحديث وعلم التفسير وعلم المنطق كما تعرّفت على علوم متداولة في المذاهب وعلم الاجتهاد وما شابه ذلك.

طبعا مضمون رسائل النور واسع جدا ولا أستطيع أن ألخصه في جملتين أو ثلاث، لكن أستطيع أن أقول أني وجدت فيها العناصر التي تؤدي بالقارئ إلى تقوية الإيمان وأيضا وجدت اللغة السليمة وثالثا وجدت فيها إفادة المقصد؛ يعني أن الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي كان يبلغ قصده وأغراضه كما ينبغي بأسلوب قوي أخّاذ، فلا يستعمل كلمة ضعيفة أو غريبة عن السياق، كما أنّه خاطب القارئ وفق المسالك النافعة ووفق ما ينبغي أن يكون عليه أسلوب الإقناع.

وكان لقراءة رسائل النور أثر محمود على بحوثي، فأنجزت عدة مقالات وكُتب عن رسائل النور، منها بعض ما أشرنا في السابق، ومنا أيضا ألّفت عن بديع الزمان النورسي مسالكه في المرافعة عن حقوقه وحريته، ويحتوي هذا الكتاب الخاص على ستمائة صفحة تقريبا، لخصت كيفيات الأستاذ بديع الزمان في مراجعة المحاكم، كما بيّنت ما كتب من عرائض مقدمة إلى الهيئات الإدارية أو الأجهزة الإدارية، مما وفّر لي فرصة اكتشاف ما استعمل ووظف من كلمات وأساليب، وقد سعيت في هذا الاتجاه لمدة غير قصيرة؛ فألفت – إلى حد الآن- عشرين مقالا خاصا عن رسائل النور، منها مثلا:

- مدرسة الزهراء
- الاتحاد الاسلامي
- إدارة الدولة... وما شابه ذلك.

وبالرغم من السمة الموسوعية والشمول والتكامل الظاهرة في رسائل النور، إلاّ أنّ بعض القضايا تعد محورية ورئيسة فيها، فالتفكر الإيماني في القرآن الكريم من القضايا الجوهرية في الرسائل، فلها الصدارة، وبهذا الصدد فإنّ لرسائل النور دورا هاما في تعليم المنطق والمحاكمة، وفهم المتن كما ينبغي. مثلا يذكر بديع الزمان بيتاً للمتنبي:

وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلاً صَحِيحاً وَآفَتُهُ مِنَ الْفَهْمِ السَّقِيمِ

يعني أن الإنسان قد لا يفهم، بالرغم من صحة المتن ومتانته وصحة النقل، أي أنّه مع الوضوح اللازم الجلي لا يستطيع أن يفهم، هذا يعني أنه يشوّق ويشجع القارئ على أن يفهم كما ينبغي، ويقول أيضا في مقال قديم نشره في ١٩٠٨بيتاً آخر للمتنبي:

إِلَىَّ لَعَمْري قَصْدُ كُلِّ عَجيبَةٍ كَأني عَجيبٌ في عُيُون العَجَائب

يعني، الواقع أن الإنسان يستطيع أن يجد كل ما يحتاج في مجال العلم والدين والإسلام والإيمان.

السؤال السابع: ما أبرز ما استوقفكم في رسائل النور، من حيث مضمونها العام، وموضوعاتها ومنهجا؟

طبعا رسائل النور امتازت بالشمولية والتكاملية، فهي تشمل مجالات الحياة والتفكر والعلم، حيث تتبوّأ منزلة رفيعة، ولها دور هام في تعليم وتفهيم وإدراك الفقه الإسلامي والإسلام من كل جوانبه.

نعم كما سبق وذكرت أني أنجزت عدة بحوث في البنك الإسلامي للتنمية في مجالات مختلفة خصيصا المجالات الفقهية المعاصرة، حيث كتبت بحوثا عن المصارف الإسلامية بيّنت فيها كيفياتها من الناحية الفقهية، منها على سبيل المثال لا الحصر، تعريف حقيقة المضاربة والمشاركة والمرابحة؟ وماهي أنواع الشركات في الفقه الإسلامي؟ ومعنى التسعير في الفقه الإسلامي، وأيضا عقود العمالة في الفقه الإسلامي سبع سنوات. يعني أنني اشتغلت في هذه المواضيع المختلفة وفي كل بحوثي استفدت من رسائل النور، ووجدت العناصر المختلفة والمهمة والحيوية. والحمد لله قدمت إلى إدارة البنك الاسلامي أكثر من عشرة مقالات في غضون سبع سنوات، وقُبلت كلها ولم يرفض منها أي بحث، بل على العكس من ذلك وجدوها كلها جيدة وعلمية ومعقولة على الرغم من كونهم لا يعرفون رسائل النور، ومن خلال هذه البحوث سمعوا بسعيد النورسي، وفي تلك السنوات كان ممنوعا علينا أن نُدخل رسائل النور إلى المملكة العربية السعودية ورغم ذلك قمت بإدخالها لأني كنت أعمل في البنك الإسلامي وكان مستواي عال جدا لذلك لم أكن مراقبا ولا راقبوا نوع الكتب والمؤلفات التي أدخلها ولا مؤلفاتي ولا أوراقي عند الجمارك في الحدود السعودية، فأتيت بالكتب كلها إلى المملكة العربية السعودية ووضعتها في مكتبي وفي منزلي أيضا، واستفدت منها بعون الله تعالى في المؤتمرات الدولية لرسائل النور، وشاركت فيها كلها، ثم جمعت هذه البحوث ونشرت كلها وعندي منها نسخ أحتفظ بها، وهي باللغة التركية، لأن غالبية رسائل النور ألفت باللغة التركية، وأردت أن أستفيد من رسائل النور من لغتها الأصلية. وفي المستقبل إن شاء الله أسعى لكتابة مقال خاص باللغة العربية.

السؤال الثامن: سيدي الكريم، كيف السبيل إلى جعل رسائل النور قيمة مضافة لمسارات الإصلاح في العالم الإسلامي، وهذا مع ملاحظة اختلاف مسالك ومناهج مرابطة أهلها.

والله إن الزعماء السياسيين في تركيا وفي العالم الإسلامي يجب أن يستفيدوا من رسائل النور، ولو استفاد زعماء العالم الإسلامي من رسائل النور، لما صارت هذه الحالات السيئة في مصر وتونس وليبيا وما شابه ذلك، لأن هذه الحالة السيئة المؤلمة تنبثق عن الفهم السيئ للمنطق الإسلامي أو التفكر الإسلامي، يعني أنهم لو تعمقوا في رسائل النور تعمقا جيدا وكما ينبغي ما صارت هذه الحالة المؤلمة مثلا في مصر والعالم الإسلامي وخصيصا في مصر وسوريا. يعني أنّ المسلمين أخطأوا منهجيا حيث لا تتماشى هذه المناهج التي نهجوها مع المناهج الإسلامية التي تعلمناها في رسائل النور.

السؤال التاسع: درجنا في كلّ سنة دراسية على تنظيم لقاء الأكاديميين الشباب المهتمين بدراسة رسائل النور، بماذا تنصح هؤلاء الشباب الجامعيين.

الجواب: نصيحتي إلى الباحثين الجدد والقدامى الذين يريدون أن يقوموا بالبحوث الاسلامية عن رسائل النور، أولا وقبل كل شيء أن يفهم قصد رسائل النور جيدا وثانيا أن يركز على نقطة معينة دائما (مونوغرافي في اللغة الفرنسية) التي تعني التخصص في مجال معين وفي نقطة معينة لأننا لا نستطيع أن نؤلف كتابا خاصا عن رسائل النور كلها لأنها تتحدث عن علوم مختلفة. لكن نصيحتي أنا شخصيا على القارئ الباحث أن يركز نفسه ووقته وجهده على نقطة معينة، يعني أن يتخذ موضوعا معينا مثلا: منهج الاجتهاد من منظور بديع الزمان سعيد النورسي، منهج السياسة من منظور سعيد النورسي... وأنصح خصيصا إخواني العرب أن يركزوا على مؤلفات بديع الزمان سعيد النورسي باللغة العربية، فكما تعلمون ألف أستاذنا في بداية الأمر باللغة العربية لأن لغته سليمة، في حين كانت لغته التركية ضعيفة في البداية، أي في سنة ١٩١٨ بداية إعلان الجمهورية، فلماذا لا تركزون مثلا على إشارات الاعجاز في القرآن؟ ولماذا لا يركز الباحثون العرب على الخطبة الشامية من كل مجالاتها، ويستطيعون أن يجدوا مواضيع مختلفة.

السؤال ١٠: نستنصح سيادتكم، هل من مقترحات عن الملفات الأَوْلَى بالدراسة في العصر الحديث.

الجواب: أتوجه إلى القارئ بأن يقرأ رسائل النور بكثرة، على الأقل نصف ساعة يوميا.

ثانيا: أن يسعى بجد لفهم رسائل النور كما ينبغي.

ثالثا: إن لم يفهم فينبغي له أن يرجع إلى عالم أو من يعرف رسائل النور كما ينبغي.

رابعا لابد أن يستفيد من قاموس يضعه دائما في يده، ولابد أن يوجد قاموسا خاصا حيث إن أخانا عبد الله يكن ألف قاموسا خاصا للقارئ التركي طبعا، فهو ألفه لكن في نفس الوقت قام بترجمة الكلمات والمصطلحات التي لا نعرفها ولا نفهمها، فنستطيع أن نجد في هذا القاموس ما نريد. وأنصح أيضا القارئ العربي أو التركي أن يجمع المصطلحات الفقهية والعلمية من رسائل النور لأن رسائل النور تتضمن مصطلحات فقهية متعلقة بالفقه مثلا أو بالتفسير والحديث وأصول الحديث أو ما شابه ذلك... وحتى الآن لم نجمع أو لم نختر هذه المصطلحات ونجمعها في كتاب معين. وأنا اقترحت هذه النقطة في اجتماعات مختلفة على إخواننا الأعزاء. نحن جمعنا الكلمات العربية أو الفارسية في قاموس معين لكن أيضا ينبغي أن تجمع مصطلحات المجالات المختلفة كذلك.

* * *

الإصدارات

١- قراءة في كتاب

الكتاب: اللؤلؤ والمرجان من حكم بديع الزمان سعيد النورسي (من الكلمات).

تأليف: د. مأمون فريز جرار.

دار النشر: دار المأمون، الأردن.

الطبعة: الأولى.

ما زالت رسائل النور منذ استلهمها قلب الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله من القرآن الكريم، موردا للباحثين عن منابع النور، المتطلعين إلى برد اليقين، الساعين إلى طمأنينة القلب، واستنارة العقل، العاملين بمقتضاها في شعاب الحياة، الراغبين في تحقيق الإيمان، ورؤية تجليات أسماء الله تعالى في كل شيء، ليتجلى في كل لحظة من لحظات حياتهم قول الشاعر:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد[1]

وفي كل أمر للناس مذاهب، ولهم مشارب، ولكل عمل نية ومقصد، فمنهم من أعمل عقله، وأنتج بحوثا وكتبا في رسائل النور، ومنهم من يمسك الرسائل بيده يقرأ ويقرأ، شأن من لا يرتوي من عذب المورد، كلما شرب منه ازداد به تعلقا، ولتذوقه من جديد رغبة.

وقد سعى عدد من واردي ينابيع رسائل النور إلى التقاط ما فيها من جمل متميزة، وفقرات ذات دلالة خاصة، هي أشبه بالجمل الأساسية التي يأتي بعدها شرح وتوضيح، فكأنها الثمرات اليانعة تقدم إلى القارئ من غير عناء.

وقد كان أول من تنبه إلى هذا الأمر هو الأستاذ النورسي نفسه رحمه الله، وقد تجلى ذلك في ''نوى الحقائق'' في كتاب المكتوبات، ولنستمع إلى ابن أخيه الأستاذ عبدالرحمن رحمه الله يقص علينا خبر ذلك في مقدمة نوى الحقائق:

''منذ مدة وعمي العزيز (بديع الزمان) لا يتوجه الى المسائل عقلاً بل قلباً. وما يظهر على قلبه يمليه عليّ ويقول: ''إن العلم هو ما يستقر في القلب، فلو استقر في العقل وحده لا يكون ملك الإنسان''. وكان يقول: ''إن هذه المسائل ليست قواعد علمية وحدها، بل ما اتخذته وجداناً من أسسٍ لبعض دساتير قلبية''. وقد أمرني: ''انتخب ما يروق لك مما سنح لقلبي'' فأنا بدوري اقتطفت هذه الفقرات من آثاره الآتية: نقطة من نور معرفة الله، إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، سنوحات، شعاعات معرفة النبي ﷺ رموز، طلوعات، محاكمات، مناظرات، إشارات، قزل إيجاز.(عبد الرحمن).''

وسار على هذا المنهج عدد من قارئي رسائل النور، ومن ذلك ما فعله الأستاذ حازم ناظم في فهارس رسائل النور حيث اختار منها فقرات وضمنها تلك الفهارس في فهرس خاص.

وكذلك فعل الدكتور نجيب السودي في كتابه الذي سماه: هكذا علمتني رسائل النور.

وممن سار في هذه السبيل الدكتور مأمون فريز جرار، الذي أكرمه الله تعالى بتسجيل رسائل النور صوتيا، فقد سعى إلى استكمال ما بدأه عبد الرحمن ابن أخ الأستاذ النورسي، ولكن وفق منهجية محددة، وخطة شاملة تستقصي رسائل النور كلها، وبدأ هذا المشروع في شهر رمضان المبارك عام ١٤٣٢ الموافق لشهر آب/أغسطس٢٠١١، حيث نشر منه ثلاثين حلقة من كتاب ''الكلمات'' في جريدة الدستور الأردنية، ومضى في سبيله ينشر كل يوم جمعة حلقة جديدة يلتقط فيها درر الحكمة من رسائل النور، وقد اختار لعمله هذا عنوان: ''اللؤلؤ والمرجان من حكم بديع الزمان سعيد النورسي''، والعنوان مقصود لأن اللؤلؤ والمرجان من آيات الله تعالى التي تتجلى في البحر، جمالا وإبداعا وحكمة، ورسائل النور رشحة من إعجاز القرآن وفيض من نوره وتفسير له، فلا عجب أن يلتقط منها من يقرؤها بوعي وتدبر ''اللؤلؤ والمرجان''، ولا ضير من تشابه هذا العنوان مع الكتاب المشهور: ''اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان'' الذي يضم الأحاديث التي اتفق عليها الإمامان الجليلان البخاري ومسلم رحمهما الله، جمعها وقدمها للناس محمد فؤاد عبد الباقي رحمه الله، أقول لا ضير في ذلك فالكتب تتشابه في العناوين قديما وحديثا، ولكل كتاب مقامه الذي يرتبط بكاتبه ومضمونه، ومضمون رسائل النور نور من أنوار القرآن

الكريم وقبس من أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام.

وقد تنوعت الفقرات المختارة في كتاب اللؤلؤ والمرجان بين جمل قصيرة وفقرات طويلة استعصت على الاجتزاء. ولعل من فوائد هذا الكتاب أنه وهو ينشر على حلقات في الجرائد والمواقع الإلكترونية يشيع ذكر رسائل النور بين الناس، وذلك هدف مقصود لأن كثيرا من قراء العربية لم يصلهم بعدُ خبر رسائل النور، ومن فوائد ''اللؤلؤ والمرجان''؛ مقالات في الجريدة أو كتابا مجموعا أنه يُقَرِّبُ رسائل النور من القراء، ويزيل عنهم وهمَ صعوبة الفهم، فكأنه يقدم إليهم الثمرات من غير عناء السعي إليها، ولكنه في المقابل يغريهم بدخول بستان رسائل النور والانتفاع والاستمتاع بما فيه من خضرة ونضرة وأزهار وأثمار.

ولما انتهى المؤلف من اختياراته من كتاب الكلمات رأى أن يصدر تلك المختارات في كتاب مستقل فصدر عن دار المأمون للنشر والتوزيع في عمان / الأردن عام ٢٠١٣ وبلغت عدد صفحاته ١٩٦ صفحة، ومن المتوقع أن تصدر منه طبعة أخرى عن طريق دار سوزلر في القاهرة. والمُؤَلِفُ ماض في مشروعه: ''اللؤلؤ والمرجان من حكم بديع الزمان ''فانتقل بعد ''الكلمات'' إلى ''المكتوبات''، ولعل الله تعالى ييسر له الانتهاء من الرسائل كلها ليصدر اللؤلؤ والمرجان في مجموعة من الأجزاء.

ومما يجدر ذكره أن ''اللؤلؤ والمرجان من حكم بديع الزمان'' لم يعرض على الناس مقتطفات من الحكم فحسب بل يسر الله لها النشر على مواقع التواصل الاجتماعي،[2] وعرفت الصفحة بعنوان: ''رسائل النور لبديع الزمان النورسي'' ينشر فيها مختارات من اللؤلؤ والمرجان ويرفق بكل فقرة منها صورة معبرة ذات دلالة على مضمون الفقرة، تقرب المعنى إلى ذهن القارئ. وقد لقيت هذه الصفحة رواجا وقبولا وإعجابا بما ورد فيها، فنقلت محتوياتها إلى صفحات أخرى.

* * *

الهوامش:

[1] أبو العتاهية (ت 211 هـ)

[2] صفحة الفايسبوك تشرف عليها (وفاء) ابنة المؤلف (مأمون الجرار).

المؤتمرات والحلقات الدراسية

عقدت مؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم كعادتها المؤتمر العالمي العاشر حول موضوع: "دور النبوة ومكانتها في البحث عن الحقيقة من منظور رسائل النور"، وذلك أيام ٢٢–٢٤ أيلول / سبتمبر ٢٠١٣.

وقد حاول المؤتمر نقل موضوع النبوة إلى يومنا الحاضر ووضعه على محك العصر وكذا الإجابة عن أسئلة كثيرة تتعلق بالنبوة وهي: لماذا تحتاج الإنسانية إلى الأنبياء؟ وماهي النبوة وكيف تُفهم؟ وكذلك تم طرح التساؤل هل يمكن إثبات ضرورة النبوة بالدلائل العقلية؟ وما هو الدور الريادي للأنبياء في استعمالهم الحق والقوة والحكمة. وتم الحديث كذلك عن القواعد المستقاة من قصص الأنبياء لاتمام خلافة الإنسان ومناهج التبليغ لدى اتباع الأنبياء، وتطرقت بعض البحوث إلى استسقاء الدروس والعظات التي يجب إدراكها من قصص الأنبياء في النصوص المقدسة، وأسهبت بعضها في مفهوم النبوة والوحي والارشاد في الهدي الديني والتقاليد الفلسفية، كما تناولت بعض المداخلات دور الأنبياء في تنظيم الأمور الدنيوية وكذلك الحلول التي تقدمها مناهج النبوة للمشاكل ولا سيما مشاكل العصر الحديث، كما تم الحديث عن أسلوب بحث الفلاسفة واللاهوتيين والمتصوفة عن النبوة... وغيرها من المواضيع المختلفة.

بعد الافتتاح الذي انعقد يوم الأحد ٢٢ أيلول / سبتمبر ٢٠١٣ بالمجمع الرياضي سنان أردم بإسطنبول على الساعة العاشرة صباحا واستمر إلى الثانية بعد الزوال، والذي تضمن في البداية تلاوة آيات بينات من القرآن الكريم وتلته كلمات الافتتاح والترحيب التي ألقاها أ.د. فارس قايا رئيس مؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم عبر فيها عن شكره للحضور ولكل من ساهم من قريب أو بعيد في إنجاح المؤتمر، وتلاه الإخوة الكبار طلاب الأستاذ سعيد النورسي، ثم أعقبه شريط مرئي خاطب فيه الأستاذ سعيد النورسي الحضور خيالا وذلك بكلمته المشهورة: "إن القدرة الالهية التي لا تترك النمل من دون أمير والنحل من دون يعسوب لا تترك حتما البشر من دون نبي"، أعقب ذلك الكلمات الرسمية (البروتوكول) لرجال الدولة وهم: رئيس بلدية إسطنبول الكبرى عبد القدير طوب باش ومحمد كورمز رئيس الشؤون الدينية. وحسين عوني

موطلو والي إسطنبول. وبكير بوزداغ مساعد رئيس الوزراء. وحسين جليك، مساعد رئيس حزب العدالة والتنمية... تلا ذلك كلمات مختصرة مختارة لبعض الأساتذة المشاركين أتيحت لهم الفرصة وتمكنوا من مخاطبة الحضور الذي يتجاوز عشرة آلاف شخص، وفي النهاية تم حفل توزيع الجوائز إلى الأستاذ فاروق رسول يحيى مترجم رسائل النور إلى اللغة الكردية والأستاذ الدكتور عمار جيدل رئيس تحرير مجلة النور، والأستاذ الدكتور كولن تورنر، والأستاذ الدكتور أحمد آق كوندوز، والأستاذ نجم الدين شاهينر.

وفي يوم الإثنين ٢٣ والثلاثاء ٢٤ أيلول انعقدت الجلسات العلمية ابتداء من التاسعة صباحا إلى الخامسة والنصف مساء وذلك في ثلاث قاعات على التوازي، وهي (أ) و (ب) و (ج) بفندق (واو) بمنطقة يشيل كوي قرب المطار الدولي بإسطنبول، وقد كانت مداخلات الجلسات علمية بامتياز تخللتها نقاشات مفيدة حصلت فيها استفادة كبيرة بشهادة الحضور الذي أتوا من كل أرجاء تركيا وكذا من سائر الأقطار لكي يشهدوا هذا الحدث العلمي المهم الذي لا يتكرر إلا مرة كل ثلاث سنوات.

وقد ترأس جلسة القاعة (أ) أ.د. بهاء الدين الندوي من جامعة دار الهدى الإسلامية بالهند، وتدخل أ.د. عمار جيدل من جامعة الجزائر ببحث تحت عنوان: ''أهمية مقصد النبوة في رسائل النور''. تلاه أ.م.د. نجيب السودي من جامعة تعز باليمن ببحث تحت عنوان: ''مصطلح النبوة مفهومه ومهامه قراءة في رسائل النور''. بعد ذلك قامت بإلقاء بحثها أ.م.دة. أحلام مطالقة من جامعة اليرموك بالأردن ببحث تحت عنوان: ''دور النبوة في تعزيز الإيمان من خلال تجليات أسماء الله الحسنى في فكر الإمام النورسي''. ثم تلاها أ.د. أسلم إصلاحي من جامعة جواهر لال نهرو بالهند بمداخلة في موضوع: ''سعيد النورسي في ظل النبوة''.

وبعد فترة الاستراحة فقد ترأس الجلسة أ.د. ألب أرسلان أجق كنج من جامعة يلدز التقنية بتركيا.

قدم بحثه د. أشرف عبد الرافع الدرفيلي من جامعة المنوفية بمصر تحت عنوان: ''الرسالة الأساسية والكونية للأنبياء''. تلاه د. وصي الحق من القنصلية البحرينية ببحث تحت عنوان: ''لماذا تحتاج الإنسانية إلى الأنبياء بمنظور رسائل النور''. وبعده تناول الكلمة د. محمد أمين أولوداغ من جامعة دجلة بتركيا بمداخلة تحت عنوان: ''قصص الأنبياء منهج لفهم الحقيقة: ردود رسائل النور بأسلوب قرآني''. ثم تلاه من ناب عن

أ.د. سليمان عشراتي بجامعة وهران بالجزائر بمداخلة تحت عنوان: ''واقع الانسانية فيما بعد عصر النبوة مدخل للحديث عن دور العلماء ورثة الأنبياء''.

أما في القاعة (ب) فقد ترأس الجلسة من ناب عن أ.د. محمد حسيني الغزالي من جامعة الأزهر بمصر، وتصدر المداخلات د. حمادي ذويب من كلية الآداب بتونس ببحث تحت عنوان: ''منزلة النبوة لدى الإمام النورسي ووظائفها'' ثم تلاه أ.م.د. حامد أشرف همداني من جامعة بنجاب بباكستان بمداخلة تحت عنوان: ''مفهوم النبوة وضرورتها للبشرية بمنظور رسائل النور''.

وبعد الاستراحة ترأس الجلسة أ.د. ويلهيلموس والكينبورج من الجامعة الكاثوليكية الأمريكية، تدخلت دة. شكران واحدة من جامعة دورهام بإنجلترا ببحث تحت عنوان: ''دلائل النبوة من منظور بعض الأوجه الكلية لإعجاز القرآن: تفسير سعيد النورسي''. ثم تلاها أ.م.د. عبد السميع الأنيس من جامعة الشارقة بالإمارات ببحث بعنوان: ''دلائل نبوة محمد عليه الصلاة والسلام في رسائل النور: دراسة وتحليل. وبعده قدم من ناب عن د. محمد رشدي عبيد من جامعة أربيل بالعراق بحثا تحت عنوان: ''منهج الفطرة في إثبات النبوة، رسائل النور نموذجا. وبعده قدم مداخلته أ.د. علي بن حسين موسى من جامعة الملك خالد بالسعودية تحت عنوان: ''طرق إثبات النبوة بالدلائل العقلية والأحوال الشخصية''.

أما في القاعة (ج) فقد ترأس الجلسة: أ.د. علي بانضا من جامعة الدولة ميندااناو بالفلبين، تدخل فيها أ.د. عماد الدين خليل من جامعة الموصل بالعراق بموضوع تحت عنوان: ''كيف نفهم النبوات؟'' ثم تلاه أ.د. رسيني دين من الجامعة الوطنية الماليزية ببحث عنوانه: ''عظمة أهل البيت وكيفية التعامل معهم من خلال رسائل النور''. وبعده تدخل أ.د. مروان إبراهيم القيسي من جامعة اليرموك بالأردن ببحث تحت عنوان: ''دور السنة النبوية والقواعد الواجب مراعاتها في تطبيقها''.

وبعد الاستراحة ترأس الجلسة: أ.د. دافيد لاو من جامعة مانشيستر بإنجلترا. وتدخل د. كولن تورنر من جامعة دورهام بإنجلترا ببحث تحت عنوان: ''رأي المفكر بيكر في النبوة''، ثم تلاه محشد أنصاري من جامعة موناش بأستراليا بموضوع تحت عنوان: ''آراء النورسي ومحمد إقبال في مؤسسة النبوة''. ثم تلته أ.م.دة. آسيا شكيرب من جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بالجزائر ببحث تحت عنوان: ''موقف النورسي من منهج الفلاسفة واللاهوتيين والمتصوفة في البحث عن النبوة من خلال رسائل النور. وبعد ذلك قدم بحثه أ.د. بهاء الدين الندوي من جامعة دار الهدى

الإسلامية بالهند وهو تحت عنوان: ''إثبات الرسالة المحمدية وتوضيحها العقلي، مقارنة بين منهاجي رسائل النور للنورسي وحجة الله البالغة الدهلوي.

وفي المساء عقدت الجلسات من جديد في كل من القاعة (أ) و (ب) و (ج)، فترأس جلسة القاعة (أ) د. كولن تورنر من جامعة دورهام بإنجلترا. فتقدم أ.م.د. هادي رضوان من جامعة كردستان بإيران بمداخلته تحت عنوان: ''دلالة الرسول الأكرم ﷺ على الوحدانية الإلهية من منظور رسائل النور. ثم تلاه د. داني كلارك بكلية إيداهو من أمريكا ببحث في موضوع: ''دور النبوة وموقعها في خلق الله البديع للكون. ثم تلته دة. كريستين جونستون لاركين من كلية الإلهيات كيتيسبورغ لوتران بأمريكا ببحث تحت عنوان: ''هوية النبي عيسى عليه السلام وفضل النورسي في تذكره من جديد: الأمل في المستقبل. وبعد ذلك تدخل أ.د. فالينتينو كوتيني من معهد البابوية للدراسات العربية والإسلامية بالفاتيكان. ببحث بعنوان: ''النبوة والأنبياء في نظر المسيحيين.

وبعد فترة الاستراحة ترأس الجلسة من ناب عن أ.د. سلمان الحسيني الندوي، رئيس جامعة الإمام أحمد بن عرفان الشهيد بالهند. فقدم أ.د. زياد خليل الدغامين، جامعة آل البيت بالأردن بحثه تحت عنوان: ''الأنبياء قدوة في قراءة كتاب الكون من خلال رسائل النور''. بعد ذلك قدم أ.د. أندي بكتي من الجامعة الوطنية الإسلامية بأندونيسيا بحثه تحت عنوان: ''استراتيجية التواصل عند الأنبياء: منظور رسائل النور. ثم تلاه أ.م.د. جاويد قاسيملي من أكاديمية آذربيجان الوطنية للعلوم بمداخلة بعنوان: ''رسائل النور ونظرة العالم الغربي للنبي محمد ﷺ وللإسلام''. ثم أعقبه أ.د. كانيبك كاكيسوف من الجامعة الوطنية القرغيزية بمداخلة تحت عنوان: ''القوة المعنوية لمحمد ﷺ في إثبات وجود الله تعالى في مؤلفات النورسي''.

وقد ترأس جلسة القاعة (ب) من ناب عن أ.د. سليمان عشراتي من جامعة وهران بالجزائر. فقدم د. محمد بودبان من جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بالجزائر مداخلته تحت عنوان: ''أبعاد امتثال الوحي لدى الأنبياء وأثرها في دعوة النورسي من خلال رسائل النور. ثم تلاه أ.م.د. جتو حمد امين الهورمزياري من جامعة صلاح الدين بالعراق ببحث تحت عنوان: ''المنهج النبوي في بناء الحياة العائلية السعيدة من منظور النورسي. وبعده تقدم أ.د. جورج غريغوري من جامعة بوخارست برومانيا ببحث تحت عنوان: ''الثنائي البلبل والوردة تعبيرا عن الحب القائم بين الخالق والمخلوقات في كتابات النورسي''. ثم بعد ذلك تدخل راسم صويلو من جامعة يلدز التقنية بتركيا. وذلك بتقديم مداخلة تحت عنوان: ''شهادة النبوة على حسن الصنعة''.

وبعد الاستراحة ترأس الجلسة روبرت سكوت من ثالوث وول ستريت بأمريكا. فقدم أ.د. ثروت أرمغان من جامعة إسطنبول بتركيا مداخلته تحت عنوان: ''تعاليم النبي محمد ﷺ من خلال معجزات الأنبياء عليهم السلام وتعاليمهم''. ثم تلاه د. كوناتي ساليف من الجامعة الإسلامية بالنيجر، قدم مداخلة تحت عنوان: ''ما يقتضي أن نتعلمه من معجزات الأنبياء''. أعقبه د. أحسن خشة من جامعة ٠٨ ماي بالجزائر بمداخلة تحت عنوان: ''دلائل صناعة الحياة من خلال معجزات الأنبياء''. وبعد ذلك قدم أ.د. يونس جانكال من جامعة عدنان مندريس بتركيا مداخلته تحت عنوان: ''القوانين الفيزيائية في ضوء رسائل النور''.

أما القاعة (ج) فقد ترأس الجلسة: أ.د. فريد العطاس من الجامعة الوطنية بسنغافورة، فقدم أ.د. ويلهيلموس والكينبورج من الجامعة الكاثوليكية الأمريكية بحثه تحت عنوان: ''تفسيرات الوحي عند النبي محمد والنبي عيسى عليهما السلام: دراسة مقارنة. وبعده قدم بحثه صالح صايلغان من الجامعة الكاثوليكية الأمريكية ببحث تحت عنوان: ''تجاوز المعضلات الدنيوية وتأكيد سعيد النورسي على السنة''. تلاه أ.د. حسين ياشار من نفس الجامعة ببحث تحت عنوان: ''النبوة: علاقة الألوهية بالبشرية من منظور رسائل النور. وأعقبه أ.د. ليو ليفيبور من جامعة جورج تاون بأمريكا بمداخلة بعنوان: ''الحكمة والنبوة وإرشاد الإنسانية: البابا جون الثالث والعشرون وبديع الزمان سعيد النورسي''.

وبعد الاستراحة ترأس الجلسة: أ.د. عبد الحكيم الأنيس وهو كبير باحثين أول بدائرة الشؤون الإسلامية بدبي. فقام د. عبيد الله فهد من جامعة عليكرة مسلم بالهند بتقديم بحثه تحت عنوان: ''دراسة حول دلائل النبوة: وجهة نظر النورسي وعبد الحق محدث''. ثم تلته الباحثة شميلا ماجد من جامعة بنجاب بباكستان ببحث تحت عنوان: ''آراء النورسي وإقبال حول معجزة المعراج''. وبعد ذلك تقدمت الباحثة إلميرا أحمدوفا من معهد الدراسات الإسلامية العالمي بماليزيا ببحث تحت عنوان: ''دور النبوة في تأسيس المدنية الحقيقية: وجهة نظر كل من الفارابي وابن سينا وسعيد النورسي''. وتلاها د. فوزان صالح من المدرسة العليا للدراسات الإسلامية بأندونيسيا ببحث تحت عنوان: ''آراء متضاربة حول ضرورة النبوة عند سعيد النورسي وبعض الفلاسفة.''

وفي يوم الثلاثاء ٢٤ أيلول / سبتمبر ٢٠١٣ عقدت الجلسات من جديد في كل من القاعة (أ) و (ب) و (ج)، فترأس جلسة القاعة (أ) أ.د. أسلم إصلاحي من جامعة

جواهر لال نهرو بالهند. فقدم د. معاني حسن مختار غنسوري من جامعة الهدى ببوركينا فاصو بحثه تحت عنوان: ''دور النبوة ومكانتها في البحث عن الحقيقة من منظور رسائل النور. ثم تلاه د. محمد السيسي من جامعة مولاي اسماعيل بالمغرب ببحث تحت عنوان: ''وظيفة الأنبياء الرسالية مع وجهتهم البشرية والتاريخية. بعد ذلك تلاه د. إسماعيل المشهداني من جامعة الموصل بالعراق ببحث تحت عنوان: ''قراءة النبوة للكتاب المنظور: دراسة سيميائية في فكر النورسي''. وأعقبه د. طارق عبد الوهاب من جامعة قناة السويس بمصر ببحث تحت عنوان: ''التوضيح النورسى للدور الريادى للأنبياء ووظائفهم''.

وبعد الاستراحة ترأس الجلسة: أ.د. عبد الجليل السالم من جامعة الزيتونة بتونس. فقدم ذ. أسامة شهوان من مدرسة شيبة الثانوية بمصر مداخلته بعنوان: ''إثبات ضرورة النبوة واضطرار الخلق إليها بين الإمام الرباني والإمام النورسي. تلاه د. مظفر علام من جامعة إفل بالهند ببحث تحت عنوان: ''الأنبياء وطبقات المجتمع. ثم تلاه أ.د. محمد البنعيادي من جامعة سيدي محمد بن عبد الله بالمغرب ببحث تحت عنوان: ''الإرشاد في الهدي الديني والتقاليد الفلسفية من خلال المدرسة النورية''. بعد ذلك قدم د. أحمد عبد الجليل النذير من منتدى النهضة والتواصل الثقافي بالسودان بحثا تحت عنوان: ''مساهمة الأنبياء للإنسانية في ضوء رسائل النور''.

أما في القاعة (ب) فقد ترأسها أ.د. ثروت أرمغان من جامعة إسطنبول بتركيا. وقدم بحثه أ.م.د. محمد مسيح الرحمان من جامعة عالية بالهند بمداخلة بعنوان: ''دور الأنبياء في تنظيم الأمور الدنيوية''. تلاه بعد ذلك الباحث نور هدايتي محمد ميهارجا من جامعة سنغافورة الوطنية ببحث تحت عنوان: ''السنة النبوة في الوقت الحاضر والتركيز على الخطاب الاسلامي الاجتماعي من خلال رسائل النور''. ثم تلاه د. سرحان بن خميس من جامعة الحاج لخضر بالجزائر ببحث تحت عنوان: ''إرث النبوة عند بديع الزمان النورسي رهانات المعنى وإرادات الاستنطاق. وبعده قدم د. حسن هوركوج من جامعة دورهام بإنجلترا بحثه تحت عنوان: ''الرسالة الكونية للإسلام وسعيد النورسي''.

وبعد فترة الاستراحة قام برئاسة الجلسة: أ.د. عمار جيدل من جامعة الجزائر. فقدم من ناب عن د. عبد الحميد راضي من جامعة الأزهر مصر مداخلته تحت عنوان: ''مناهج التبليغ لدى أتباع الأنبياء في فكر الإمام النورسي محاورها وكيفية استفادة الدعاة منها''. ثم أعقبه من ناب عن أ.د. محيي الدين عفيفي من جامعة الأزهر بمصر ببحث

تحت عنوان: ''الهدى النبوي ووارثو النبوة''. ثم تلاه د. عبد الغني أكوريدي من جامعة الحكمة بنيجيريا بمداخلة تحت عنوان: ''الهدي النبوي ووارثو النبوة من منظور رسائل النور''. وبعد ذلك تقدمت أ.دة. بلقيس ممدوفا من أكاديمية آذربيجان الوطنية للعلوم ببحث بعنوان: ''كيف يتم إنشاء العلاقة بين الاعتقاد التوحيدي ورسالة النبوة''.

وفي القاعة (ج) ترأس أ.د. فالينتينو كوتيني من معهد البابوية للدراسات العربية والإسلامية بالفاتيكان. فقدم أ.د. دافيد لاو من جامعة مانشيستر بإنجلترا بحثه تحت عنوان: ''النبي عيسى عليه السلام ونبوته والحوار المسيحي الإسلامي''. تلاه أ.د. روبرت سكوت من ثالوث وول ستريت بأمريكا ببحث تحت عنوان: ''النبي عيسى عليه السلام: مقاربة بين الأديان''. ثم تلاه أ.د. إيان بنسون من جامعة الولاية الحرة بجنوب إفريقيا بمداخلة بعنوان: ''التعددية الدينية في الكاثوليكية والإسلام عند سعيد النورسي وجون كورتني موراي''. وبعده قدمت أ.دة. ماريان كوبين من كلية المجتمع بأمريكا بحثا بعنوان: ''النبي عيسى والنبوة: قراءة جديدة حول رسائل النور''.

وبعد الاستراحة ترأس الجلسة: أ.د. خاقان ياووز من جامعة أوتاه بأمريكا. فقدم أ.د. سيد فريد العطاس من الجامعة الوطنية بسنغافورة بحثه بعنوان: ''النبوة وآل البيت والأفكار المتميزة في فكر النورسي''. ثم تلاه د. فرهاد إبراهيم الشواني من جامعة صلاح الدين بالعراق بمداخلة بعنوان: ''الشمائل المحمدية وأثرها في الاتباع دراسة لمصطلح الشمس المعنوية في الرسائل النورية''. وبعد ذلك قام الباحث تاغي تاغييف من آذربيجان بتقديم بحثه بعنوان ''تعريف النبوة وضرورتها وأهميتها''. ثم أعقبه ذ. أديب إبراهيم الدباغ من المركز الأكاديمي للدراسات والبحوث بإسطنبول''. ببحث تحت عنوان: ''تأملات في النبي والنبوات''.

وفي المساء انعقدت الجلسات من جديد في القاعات (أ) و (ب) و (ج)، ففي القاعة (أ) قام برئاسة الجلسة: أ.د. بلال كوشبنار من جامعة نجم الدين أربكان بتركيا. فتقدم أ.د. عبد التواب جاد من جامعة الأزهر بمصر ببحث تحت عنوان: ''القواعد التي يجب مراعاتها في تطبيق السنة النبوية في الحياة من منظور رسائل النور للنورسي''. ثم تلاه أ.م.د. إسماعيل عبد الله من الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا. بمداخلة بعنوان: ''السنة النبوية باعتبارها مظهرا لتطبيق للقرآن الكريم: مقاربة النورسي''. ثم تقدم أ.د. رابح دفرور من جامعة أدرار بالجزائر ببحث تحت عنوان: ''القواعد التي يجب مراعاتها في تطبيق السنة النبوية في الحياة. بعد ذلك تلاه د. يحيى ضاحي شطناوي من جامعة اليرموك بالأردن ببحث تحت عنوان: ''القواعد التي يجب مراعاتها في تطبيق السنة النبوية في الحياة من منظور رسائل النور''.

وبعد الاستراحة ترأس الجلسة: أ.د. يونس جانكال من جامعة عدنان مندريس بتركيا. فقدم أ.د. محمود الداودي وهو عضو هيئة التدريس متقاعد بتونس مداخلة بعنوان: ''النبوة من منظور النورسي وابن خلدون والعلوم الاجتماعية''. تلاه أ.م.د. أبو الفذ عزيملي من جامعة ناختشيفان الدولية بآذربيجان بمداخلة بعنوان: ''بديع الزمان سعيد النورسي: نقد الفلاسفة انطلاقا من نور النبوة من خلال نظرتهم للأنا''. بعده تقدم أ.د. بنيامين دوران من جامعة جلال بايار بتركيا بمداخلة تحت عنوان: ''نظام النبوة بين ابن سينا وبديع الزمان سعيد النورسي''. ثم تلاه أ.د. الأخضر شريط من جامعة الجزائر بمداخلة تحت عنوان: ''أسلوب بحث الفلاسفة واللاهوتيين والمتصوفة عن النبوة في ضوء رسائل النور''.

أما القاعة (ب) فقد قام من ناب عن أ.د. محسن عبد الحميد من العراق برئاسة الجلسة، وتقدم فيها من ناب عن أ.د. محمد حسيني الغزالي من جامعة الأزهر بمصر وذلك بتقديم بحث تحت عنوان: ''الحلول التى تقدمها مناهج النبوة للمشاكل ولا سيما فى العصر الحديث''. ثم تلاه من ناب عن د. محمد حمد كنان ميغا من جامعة السلطان الشريف علي الإسلامية ببروناي دار السلام ببحث تحت عنوان: ''كبرى مشاكل العصر الحديث – أسبابها – وحلولها في المنهج النبوي من خلال رسائل النور. وبعد ذلك تقدم د. مأمون جرار من الجامعة الأردنية بالأردن بتقديم بحثه تحت عنوان: ''النبوة حاجة ضرورية للبشرية''. وأعقبته دة. إيمان الدباغ من جامعة الموصل بالعراق بمداخلة بعنوان: ''الهدي النبوي لحل مشاكل العصر الحديث في ضوء رسائل النور''. ثم تلاها أ.د. دافيد سكوت وهو عضو هيئة التدريس متقاعد بألمانيا ببحث تحت عنوان: ''رسالة النبي محمد ﷺ للمتشائمين مما بعد الحداثة والباحثين فيها: دراسة في الآية الكبرى لبديع الزمان سعيد النورسي.

وبعد فترة الاستراحة ترأس الجلسة: أ.د. ليو ليفيبور من جامعة جورج تاون بأمريكا. فقام أ.م.د. قادر جان أطان من جامعة يلدز التقنية بتركيا بتقديم مداخلة تحت عنوان: ''هل من الممكن تجاوز الثقافتين؟'' تلاه أ.د. اقتدار محمد خان من الجامعة الملية الإسلامية بالهند بمداخلة بعنوان: ''العولمة والنبوة وبديع النورسي''. وبعده قدم برينس راجيف سرانغاني من الجامعة الوقفية للسلطان محمد الفاتح بتركيا مداخلة تحت موضوع: ''تواصل الخالق مع الناس بالقرآن الكريم ونبوة محمد ﷺ''. تلاه أ.د. أمين محمد سلام المناسيه من جامعة مؤتة بالأردن بمداخلة بعنوان: ''الدور التوجيهي للأنبياء في الحياة الفردية والعائلية والاجتماعية من منظور رسائل النور''.

أما في القاعة (ج) فقد ترأس الجلسة: أ.د. جورج غريغوري من جامعة بوخارست

برومانيا. وقدم أ.د. علي بانضا من جامعة الدولة ميندااناو بالفلبين مداخلته بعنوان: ''دور النبوة في الاتحاد الاسلامي في فكر النورسي''. ثم تلاه د. زابرول خان من كلية الدراسات الإسلامية بأندونيسيا ببحث تحت عنوان: ''أهمية السنة السنية للإنسان المعاصر من وجهة نظر سعيد النورسي''. وبعده قدم د. مجيب الرحمن من جامعة جواهر لال نهرو بالهند مداخلته تحت عنوان: ''البعد الديناميكي للنبوة ودورها في تأسيس الأخلاق الحميدة من خلال رسائل النور''. ثم تلاه د. سالم حسن ذيبان وهو مدرب تنمية بشرية معتمد بالمركز الوطني بالسودان بمداخلة بعنوان: ''قواعد تطبيق السنة النبوية عند الإمام النورسي وعلاجها للخلاف بين الفرق والمذاهب الإسلامية''.

وبعد الاستراحة ترأس الجلسة من ناب عن أ.د. محيي الدين عفيفي من جامعة الأزهر بمصر. فقدم أ.د. زكي صاري طوبراق من جامعة جون كارول بأمريكا مداخلة بعنوان: ''نظرة جديدة لأهمية قصص الأنبياء التي في القرآن في ضوء مؤلفات النورسي. ثم تلاه أ.م.د. أميد المفتي من جامعة صلاح الدين بالعراق ببحث تحت عنوان: ''وقفات مع نبي الله سليمان عليه السلام رؤية قرآنية من خلال رسائل النور''. بعده تقدمت دة. بتانيا كارتيكا مفلح من الجامعة العالمية الإسلامية بماليزيا ببحث تحت عنوان: ''تأثير وفاعلية القصص القرآني في انكشاف الايمان: مقاربة سعيد النورسي''. تلاها د. نبيل جميل شندر من الجامعة اللبنانية بمداخلة بعنوان: ''القواعد المستقاة من قصص الأنبياء لإتمام خلافة الإنسان بمنظور رسائل النور''.

هذا وقد توصلت اللجنة المسؤولة عن فرز البحوث المقبولة في المؤتمر الذي استمر ثلاثة أيام بخمسمئة ملخص بحث واختارت منها أكثر من مئة بحث تفضل أصحابها بتقديم مداخلاتهم وهم قادمون من أربعين دولة غربية وإسلامية.

* * *

ندوة حول الأستاذ النورسي في مدينة أربيل

أقامت''معهد العلوم الإسلامية'' في مدينة أربيل بجمهورية العراق في ٢٠١٣/١٢/٢١ ندوة لأول مرة حول الأستاذ النورسي تحت عنوان ''بديع الزمان النورسي مربى الأجيال ورمز البناء والاعتدال'' وقد حضر الندوة جمع غفير من الناس والعلماء الأفاضل من شتى المدن العراقية. كما حضر باحثون من الجمهورية التركية.

افتتح الندوة الدكتور إبراهيم هرشلي وهو يرحب بالضيوف القادمين ويعرفهم بالأستاذ النورسي قائلاً:

''بديع الزمان النورسي مربى الاجيال ورمز البناء والاعتدال'' ذلك الإمام الفذ والمجدد الملهم الذي جاد به هذا البلد الطيب وأنجبته هذه الأرض المباركة التي استوت على جبالها سفينة نوح والمباركة بدعائه ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾المؤمنون:٢٩ وانبته الله نباتاً حسناً واصطنعه لدينه وقيضه في عصره ليواجه موج الإلحاد والانحلال وليبث بنور رسائله روح الإيمان من جديد ولينور العالم بأشعة كلماته ورشحاته داعياً إلى المحبة والأخوة وبناء الذات، فعم نور رسائله الأرجاء المعمورة''

وبعد تلاوة معطرة من الهدي الحكيم ألقى عميد ''معهد العلوم الإسلامية'' الدكتور عمر عبد الله سيمرداني كلمة قال فيها:

''إن اختيارنا لبديع الزمان رحمه الله موضوعاً لندوتنا لاقتناعنا بضرورة التعريف ببديع الزمان ودراسة رسائله. فإن الجيل الجديد بحاجة ماسة إلى خريطة عمل توضح بلسان العصر حقائق الدين كما أنزله الله على رسوله ﷺ وعلى يد من عاصر الأحداث والتقلبات المتنوعة منذ بداية القرن الماضي ذاق مراراتها لصنع جيل جاد مخلص في العمل محب للأمن والاستقرار والبناء والإعمار''.

ثم ألقى معالي وزير الأوقاف والشؤون الدينية في إقليم كردستان الأستاذ كامل الحاج علي كلمة أكد فيها على أهمية هذه الندوة وعلى أهمية معرفة الشباب بالأستاذ النورسي الذي عرف بغزارة علمه وتقواه ورجاحة عقله وصلاحه واصلاحاته في الدولة العثمانية وما بعدها.

وباسم علماء الدين الإسلامي قدم سيادة رئيس اتحاد علماء الدين الإسلامي الشيخ عبد الله ملا سعيد الكرتكي كلمة قال فيها:

''بالأخص في الوقت الذي نرى ثمار ذلك الجهد العظيم الذي بذله الأستاذ المربي والمفكر بديع الزمان سعيد النورسي ذلك الجهد الذي تخطى حدود الدول وأصبح فكره منتشراً في العالم الإسلامي. أريد أن أقول وبكل صراحة إن المعرفة تفتخر اليوم بأعلامها وبالأخص شخصية مثل النورسي تلك الشخصية التي بحاجة إلى دراسة وتعمق أكثر من أجل بيان الجوانب الخفية في فكره العظيم''.

وقد قال الأستاذ فاروق رسول يحيى مترجم كليات رسائل النور إلى اللغة الكردية والمشترك في الندوة من مدينة السليمانية في كلمته:

''أيها الأخوة والأخوات إن أهمية رسائل النور لبديع الزمان الأستاذ سعيد النورسي رحمه الله وأهمية دراستها واتخاذها نبراساً في طريق الاستهداء بهدي القرآن الكريم تزداد روحاً كلما تقدمت الحياة وتعقدت فيها المشاكل. وما هذه الندوات والمؤتمرات العلمية التي تتوالى في حواضر العالم اليوم حول هذه الرسائل والحلول التي قدمتها لمشاكل العصر إلا مؤشرات تصديق لما رصدناه أنفاً من حاجة البشرية الى هدي القرآن الكريم''.

أما الأستاذ علي قاطي ئوز الذي اشترك للندوة من مدينة مانيسا التركية فقد قال في كلمته ''إن المنهج الذي اقتناه الأستاذ بديع الزمان عجيب جدا حيث النورسي الذي نذر للتجديد الخطاب الديني نفسه وعمره ووهبه فكره ووجدانه ودعا إليه بلسانه وقلمه وخطبه وكتبه وجهاده واجتهاده وبكل ما توفر له من أساليب دوماً وأبداً نجده في رسائله لا يعرّف المنهج الوسطى لأمته او يوضح صورته وملامحه او يحدد أركانه ومقوماته او يجلي ملامحه وخصائصه فحسب إنما أنزله إلى الواقع وفق برنامج عملي تضمنته رسائله وهي دورس مبسطة تخاطب كل الفئات تعبر عن تفسير شهودي للقرآن الكريم ألقيت على مجموعة من طلبته''.

وقد قال الأستاذ الدكتور إبراهيم اوزدمير رئيس مؤسسة جامعة حسن قاليونجو في مدينة غازي عينتاب التركية في كلمته:

''إنّ تعاليم الأستاذ سعيد النورسي مثال جيد لهذا الفهم من المنظور القرآني في القرن العشرين، حيث يرى النورسي أن الله هو المعنى الحقيقي للوجود، والمعنى يتجلى ويتكشف بواسطة الكون نفسه ويستفيض الإنسان في شرحه. وبالتالي فإنّ الله هو الذي يجعل الأبعاد الأخرى ممكنة :أي أنّه يعطي معنى وحياة لأي شيء آخر ، فالقرآن الكريم يرى في النحل الصغير آية تدل على عظمة الخالق عز وجل، ويحض القارئ بأن يلاحظ التغير الدائم للرياح، وتعاقب الليل والنهار والغيوم ونجوم السماء والكواكب التي تسبح في الفضاء اللامتناهي.''

أما الدكتور مادح محمد عمر من مدينة أربيل فقد قدم بحثاً حول حياة الأستاذ النورسي ومواقف من حياته الحافلة بالخدمة الإسلامية والقرآنية.

ثم قدم من مركز بحوث رسائل النور في اسطنبول عماد صالح محيي الدين بحثاً بعنوان ''العمق الإيماني في رسائل النور'' قال فيها:

''عندما نقف على أسلوب الأستاذ سعيد النورسي ونتابع نهجه نرى عمقاً ايمانياً في كل رسالة من رسائله، بل في كل موقف من مواقفه الحياتية أيضاً. فالمنطلق عنده في

تناول القضايا كلها دقّها وجلّها منطلق ايماني بحت. ولا شك أن أساس رسائله هو إنقاذ الإيمان وترسيخ الحقائق الإيمانية ومن ثم التركيز على العبودية الحقة للخالق جل جلاله. فهو يقف دائماً لدى تناوله المسائل الإسلامية بأكبرها وأصغرها على الأركان الإيمانية. ويقيم صرح الإسلام على هذا النهج القويم الرصين... وهكذا يجد طالب النور أمامه بحراً زاخراً بالإيمان في عشرات من رسائل النور الغنية بالأدلة العقلية والمنطقية والوجدانية وأدلة الحكمة والحقيقة والفطرة، حتى يتصفّى عقلُه من الشكوك ويصبح عقلاً يجمع بين المادة والمعنى ويمتلئ قلبُه بالإيمان ويصبح قلباً نابضاً بالإحسان وكأنه يقف في كل لحظة بين يدي الله. وتسمو روحُه في عوالم المعنى وتصبح روحاً تستجمع رحيق أزاهير عوالم المادة مع رحيق ورود عوالم الغيوب.''

وقد نقل ما يقارب سبعاً من القنوات الفضائية وأربعين من القنوات المحلية الندوة للمشاهدين. وأجروا لقاءات تلفزيونية مع الأساتذة والضيوف.

فكانت الندوة ندوة ناجحة وموفقة بإذن الله، والحمد لله أولا وآخرا.

* * *

مؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم

المؤتمرات المستقبلية لموسم ٢٠١٤

١- ستعقد في الهند مؤتمران حول بديع الزمان سعيد النورسي:

أ- جامعة عليكرا العريقة وموضوعه الإيمان والأخلاق والعلم في ضوء رسائل النور لبديع الزمان سعيد النورسي وذلك أيام ١١-١٣ من شهر فبراير٢٠١٤

ب- جامعة الإمام أحمد بن عرفان الشهيد وموضوعه بديع الزمان سعيد النورسي، فكره ودعوته، وذلك أيام١٤-١٥ فبراير ٢٠١٤.

٢- سينعقد مؤتمر في أدرار بالجزائر في موضوع: ''التجديد في حركة التفسير المعاصرة'' وذلك أيام ١٤-١٥-١٦ أبريل ٢٠١٤.

٣- سينعقد مؤتمر في جاكرتا بإندونيسيا أيام ١٧-١٩أبريل ٢٠١٤. تحت إشراف رئاسة الشؤون الإسلامية بإندونيسيا.

٤- ستعقد رئاسة جامعة القرويين بفاس بالمغرب مؤتمرا تحت عنوان: ''قضايا المرأة والأسرة والمجتمع من خلال رسائل النور لبديع الزمان النورسي'' وذلك أيام ٢٧-٢٨-٢٩ أبريل ٢٠١٤.

معلومات عن النشر في المجلة

١. تنشر المجلة البحوث الأصيلة (تنشر أول مرة) المنجزة في الدراسات الحضارية والفكرية بمعناه العام.
٢. تسعى المجلة إلى نشر البحوث والدراسات المتوافقة مع العمل العلمي الجدي المتجلي في وضوح المقاصد والأهداف، ودقة المنهجية.
٣. لا ترى المجلة مانعا من نشر الدراسات التأصيلية في ميادين الدراسات الفكرية والحضارية، وخاصة إن حازت عناصر الجدة والدقة.
٤. ترحب المجلة بالبحوث المقارنة سواء تعلّقت بالدراسات المقارنة في ذات الفضاء الفكري أو من فضاءين مختلفين أو من فضاءات متعددة.
٥. تعمل المجلة على تشجيع الدراسات والبحوث النقدية الواضحة المقاصد الملتزمة بآداب الحوار والنقاش، المتقيّدة بالمنهجية العلمية.
٦. تشجع المجلة على التعريف بأعلام الفكر والدراسات الحضارية، لهذا تتبنى خدمة هذا الهدف بنشر الدراسات المعرّفة برجالات الفكر ولاسيما الشخصيات العلمية التي لم تحظ بالتعريف بالقدر الكافي.
٧. تخدم المجلة الباحثين الناشئين وتشجّع دراساتهم المنجزة، وتقدّم ملخصات مركّزة عن أعمالهم المقدّمة لنيل الدرجات العلمية الأكاديمية.
٨. تنشر المجلة بعنوان المقالات المحكّمة التغطية الجيّدة لأعمال المؤتمرات والورشات أو الأيام الدراسية العلمية الحضارية والفكرية.
٩. تنشر المجلة بعنوان الدراسات الأكاديمية، البحوث المنجزة في التعريف بالكتب النوعية في ميدان الدراسات الحضارية والفكرية، يقدّم فيها الباحث أهم عناصر الكتاب وأهم النتائج التي خلص إليها، مع بيان المآخذ التي سجّلها على الكتاب.
١٠. تعرض الدراسة أو البحث المقدم للنشر على محكّمين من أهل الاختصاص، تختارهم إدارة المجلة، ويُلْزَم صاحب العمل المقدّم بإعادة النظر في بحثه أو دراسته في ضوء الملاحظات المقدّمة له.
١١. يمنح صاحب البحث نسخا (عدة مستلات) من بحثه المنشور، فضلا عن عدد من المجلة التي نشر بها بحثه.
١٢. تحتفظ المجلة بحق نشر العمل المنشور في كتاب أو بشكل مستقل، بلغته الأصلية أو مترجما.
١٣. البحوث والدراسات التي وصلت المجلة لا ترد إلى أصحابها سواء نشرت أو لم تنشر.
١٤. ترسل البحوث والدراسات على العنوان الإلكتروني للمجلة editor@nurmajalla.com بشرط أن لا يزيد حجمها عن ٤٢٠٠٠ حرف (مع الهوامش والفواصل).

الإشتراك السنوي (عددان)

الإشتراك في تركيا: .....٢٠ ليرة تركية

الإشتراك في الأقطار الأخرى للأشخاص: .....١٥ دولار أمريكي

الإشتراك في الأقطار الأخرى للمؤسسات: ....٣٠ دولار أمريكي

العنوان للاشتراك

عبد الكريم بايبارا kerimbaybara@gmail.com

شركة سوزلر للنشر

٣٠ شارع جعفر الصادق – الحي السابع

مدينة نصر– القاهرة – جمهورية مصر العربية

تلفون + فاكس: ٩٣٨ ٦٠٢ ٢٢ (٢٠٢+)

Kalendarhane Mahallesi, Delikanli Sk.
No: 6, VEFA 34134 Fatih
ISTANBUL – TURKEY
Tel: +90 212 527 81 81 (pbx)
Fax: +90 212 527 80 80
info@nurmajalla. com
www. nurmajalla. com

Contents

Editorial

- Prof. Dr. Amar Djidel: Introductory Note 3

Miscellaneous Studies

- Dr. Idris Maqbul: Imam al-Nursi on Reason Strengthened by Faith and the Connection Between Divine Signs, Qur'anic Verses and Values 7
- Prof. Dr. Amar Djidel: Positive Thinking and the Need for It in the Life of Muslims..... 21
- Ibn Shiyyah 'Abdullah (doctoral student): The Question of Evil and Misdeeds and Their Relation to Divine Justice in Creation According to the Risale-i Nur..... 47
- Prof. Dr. George Grigory: The Nightingale and the Rose as Expressive of the Love Between the Creator and Creatures in al-Nursi's Writings 61
- Dr. Ja'far al-Salami: al-Nursi and Sufism, or From the Divine Unity of the Saint to the Divine Unity of the Purely Sincere 71
- Prof. Dr. Farid al-Ansari: Badi'uzzaman al-Nursi From the Intermediacy of Sufism to the Ascension of the Qur'an 83
- Dr. Muhammad al-Samadi: The Cosmic Vision of Ethics in al-Nursi's Writings and Its Effects in the Building of the Human Being 105

Dossier: Aim and Purpose in the Risale-i Nur

- Dr. 'Abd al-'Aziz al-Bityawi: The Principles of al-Nursi's Method of Thinking in the Risale-i Nur and Its Relation to Aim and Purpose 123
- Dr. 'Abd al-Salam al-Ahmar: The Qur'anic Aims in al-Nursi's Thought..... 147
- Ali Katıöz: The Aims of the Qur'an in the Risale-i Nur 159

Interviews, Publications and Conferences

- Interview with Prof. Dr. Servet Armağan 167
- **Publications:** A reading of the book: *Badi'uzzaman on Pearl and Coral* Sa'id al-Nursi, from al-Kalimat 177
- **Conferences and Study Circles:**
  1. The Tenth International Symposium in Istanbul 180
  2. Conference on al-Nursi in Arbil..... 188
  3. Forthcoming conferences in 2014..... 191
- Information about publication of articles and papers in the Journal, al-Nur 192
- Annual subscriptions / Contents 193

– Only papers conforming to academic standards will be considered for publication